سبحانه جلّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الذى يصطفيه نبيا ، على احتمال أبوة البنات والصبر عليها ، فنشأ ـــ ﷺ ـــ على الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، وكان فى أبوته لبنات أربع قدوة صالحة للمؤمنين برسالته التى أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق ما لا تطمح النساء إلى مثله أو قريب منه ، أبدَ الدهر . . . .

* * *

الشقيقاتُ الأربع

فى بيتِهنَّ الأوّل

خرجن إلى الدنيا فى أكرم بيت ، وأنبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن ثمرة طيبة لزواجٍ سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجه الحبيبة التى أنسته بحنانها الفياض كل ما ذاق فى طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان . .

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من زوجها الحبيب الذى أُخِذَتْ منذ عرفته بجلال طلعته ، وأسرها بنبل شخصيته ، وجميل خصاله ، فتفتح له قلبها المغلق وأقبلت على الحياة من جديد .

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا أذبلها الحرمان . .

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتُمست لهن — واحدة بعد الأخرى — خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى إذا أدركن سن الفطام عدن إلى حضانة الأم التى كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت « محمدًا » من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الإشراف عليها وأقبلت هى بكل طاقتها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا إلى ما وراء جدران بيتها السعيد . .

وأكسبتها تجربتها السابقة فى الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها إلى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب . وإذا كانت ظروف الأسرة يسرت لها ما تحتاج إليه من الموالى والخدم ، فإن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة إلى حضانة الأطفال ، إذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة الجليلة ، كى تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن ، وما فى مكة من تدانيهن شرفا وعزة . .

حتى إذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت أمها بتمرينها على المشاركة فى العبء الكبير ، وأخذتها مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما تلهو به لداتها . وأترابها فى ملاعب الطفولة ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى أمها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها . .

وقرَّب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل .

وسارت الحياة بالشقيقات رخية هانئة . . . حتى تزوجت كبراهن « زينب » فافتقدتها أخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ، ولبثن ليالى عديدات ينظرن إلى فراشها الخالى فيخامرهن إحساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى ، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى ، حول الزواج ، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا الوضع الذى ينتزع الفتاة من أحضان أهلها ، ويلقى بها وحيدة إلى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن « فاطمة » بحكم طفولتها ، أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن ضيقًا به ، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التى

طالما لاعبتها ودللتها ورعتْها . ولعلها ساءلت أختيها كيف هان على الأسرة أن تستقبل حادث الزواج بالفرح المعلن ، والاحتفال المشهود . وكان أولى بها أن تتمسك بزينب ، أو فلتودعها كارهة ، بغير احتفال !

وتحاول رقية ــ متأثرة بشعورها أن الدور عليها ــ أن تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة ، وأن تقنعها أن أبويها ما كانا ليسلما « زينب » إلى زوجها فى احتفال بهيج كالذى كان ، لو لم يكن فيه خيرها وسعادتها . .

ولكن فاطمة تصر على رأيها فى الزواج ، وقد يبدو لأم كلثوم أن تقول لأختيها :

ــ من يدرى ؟ . . لعل ضجة العرس إنما قُصِدَ بها إلى شغل العروس عن التفكير فى أبعاد التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها . . .

وإذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضى مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها إلى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكتمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه .

ثم تسألهما :

ــ أما سمعتماها غير مرة تنادى « رقية » باسم « زينب » ثم تتنبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحى ! . . . لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة فى أسى :

ــ هو ما تقولين . . . .

وأما رقية فتجيب :

ــ إنك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس فى سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الإلْف والعادة . .

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ـــ فما قولك إذن فى أبينا ؟ . . أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس إلى الخلوة ويميل إلى الوحدة ويجنح إلى الصمت والتأمل ؟ أوَ ما يبدو عليه فى هذه الأيام أنه مشغول البال بهمٍّ يطويه ؟

قالت « فاطمة » وهى تنتفض حبا وحنانا :

ـــ يا لأبى العزيز ! . . إنه لكما ذكرتِ يا أم كلثوم . .

وقالت رقية :

ـــ وما يدريكما أن لفراق زينب صلةً بميل أبينا إلى العزلة وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهى تقول بلهجة ذات مغزى :

ـــ ما أراك يا رقية إلا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :

ـــ ما خطر لى هذا يا أخت ببال . .

وعقبت فاطمة :

ـــ فلتتزوجا أنتما وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوىَّ ما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت أختاها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هى فى بيت أبيها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . . .

إلى هنا ينمتهى الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقبلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى ما فعلتْ بها الأيام . .

* * *

(١)

زينبُ الكُبْرَىٰ

- العَـــروسُ الهاشِميَّـــة
- ابـــن الخَــالـــة
- سَعَـــادة لم تطـــل
- ليْـل لا يبْدُو لَـه آخِـر
- الأسـير وَالقِــلاَدة
- مسْـلِمـة وَمشــرك
- طـــارق بِلَيْـــل
- لقـــاء . . وَفِـــرَاق
- ذِكـــرَى . . .

زينبُ الكبْرىٰ

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت إليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبوها من كرام الفتية القرشيين . . .

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الأمل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابنِ خالتها « أبى العاص بن الربيع » أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواها ، أن كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت « محمد » كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، ما يطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة ، فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ملء النضرة والبهاء . . .

وكان مكانها فى بيت أبيها ، كبرى بنات أربع ، قد أسرع بها إلى النضج قبل الأوان ، بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الأم الطيبة التى كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، وأجهدها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع داركا فى العقد الخامس من عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الأنوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الإهاب . . .

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته فيؤخذ بملاحتها وعذوبة حنانها وذُكاء ملامحها ولطف طباعها . . .

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الإلمام ببيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين إليها من الحجيج والتجار ،

والتجار ، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، إلى الشمال وإلى الجنوب ، في الصيف والشتاء ، تحبسه عن « أم القرى » فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ الرحلة منها أشهرا ذوات عدد ، لكنه كان يرنو إلى « أم القرى » على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديعة ، التي يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة نبيلة . . .

ولم يغب عن باله قط ، أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون إلى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن إلى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من يتاح له مثل مكانته في بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف في كسب ود « زينب » والوسيلة إلى الظفر بإعجابها وتقديرها . . .

وأبت عليه ثقته في نفسه أن يدخل مع منافسيه في معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالي لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا ، إلى دعم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين . . .

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكتمان والحرص والتأني ، ولكنه في الوقت نفسه جعل « زينب » تطمئن إليه وتأنس له في غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل شخصيته التي أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتز به أخا ، ولا ترى في فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وإن كان فيهم من يُوزن به أصالة ونسبا ، وربما مالًا كذلك . . .

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت « محمد » قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح إلى محضره ، ويطيب لها أن تصغى إلى ما في جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة الأسفار ، وكأنما كانت ترى في وعيها لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذي تميزت به عن لداتها وأترابها . . .

وربما جاءها فى بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ، فتتقبلها فى سماحة وبشر ، وترى فيها تحية جميلة لما يربطهما من أواصر المودة فى القربى . . .

وهكذا تفتح له قلبها على مهل ، فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها فى رفق ولطف ، وكانت أمها إلى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » وإلا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه . . .

و « خديجة » قد عرفت الحب الطاهر ونهلت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها الفذة ــ التى بدت للقوم فى حينها أشبه بمغامرة ــ أشد تحمسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق إيمانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعودين السعداء . . .

وتلطفت السيدة الأم ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب ابنته الأولى ، فرقَّ قلب الأب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما ينهلان ، فى حياتهما الزوجية ، من ذاك النبع السخى المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون ألا يزهد أو يمل . . .

هنالك وافقت « خديجة » على أن يتقدم ابن أختها إلى أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى إلى جانبها ، لكنها رأت حرص الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الأمين ، وخشيت إن هى تريثت أن يسبقوا « أبا العاص » إلى طلب يد « زينب » فيكون شىء من الحرج لا ترضاه لزوجها

وقد أحسن « محمد » لقاء « أبى العاص » كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه إليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من « زينب » ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه

الرغبة إلى ابنته ، فإنها لأهل لأن تكون صاحبة الكلمة الأولى فى أمر زواجها .

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو « أبى العاص » ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع فى الأمر دونها . وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد إلى آمها فى آن تسبقه إليها . ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ــ بنيتى زينب ، إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك . . .

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم إلا إن كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ماتكره . . .

وتلبث الأب برهة يصغي ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الأم الطيبة . . . وعندئذٍ عاد إلى حيث ترك « أبا العاص » ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا . . .

* * *

وذاع النبأ السعيد فى مكة ، فوجمت له قلوب شبان طمعوا فى الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بنى العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص إلا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا إلا خيرا ؟...

قرشى صميم ، يلتقى نسبه من جهة الأب مع « محمد بن عبد الله » عند الجد الثالث : عبد مناف بن قصى ، فهو « أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى[1] .

(١) نسب قريش ٢٣١ وجمهرة أنساب العرب : ٧٠ ــ ذخائر . والمحبر ٥٣ . وكُنَى الاستيعاب ٤ / ١٧٠١ والاصابة ٧ / ١١٨ .

ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ، عند جدهما الأدنى : خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب . . .

وكان إلى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين[1] ، كما لقبوا محمد بن عبد الله . . .

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم إليه ما جعله يتقدم إلى الصف الأول من صفوف التجار ، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها[2] .

ولقائل أن يقول إن السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، ولآخر أن يقول إن محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه . . .

فلئن كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، لقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزكيه ويغنيه ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف إليه أى عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشى العالى . . .

* * *

تهيأ البيت المحمدى للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذى يقترن عادة بإعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » فى طلب أزكى العطور والأطياب ، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس . على حين مضى « أبو العاص » يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو فى هذا السبيل بما يتيحه له كرمه ، وثراؤه العريض . . .

---

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٣١ ط الذخائر .
(٢) السيرة : ٢ / ٣٠٦ وانظر معها الاصابة لابن حجر : ترجمة أبى العاص .

وآن موعد الزفاف ورددت أرجاء مكة أصداء العرس ، ونُحرت الذبائح ودعى إليها أهل البلد العتيق . . .

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها إلى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذى حُلت فيه تمائمها . . .

ثم تركتها فى رعاية زوجها الكريم . . .

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة خالصة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن يتنعما بالعيش فى ظل الزوجية الموفقة ، وإن مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت . حين يُضطر أبو العاصى إلى السفر فى تجارته ، فيمضى تاركا قلبه فى مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق ، وتستعين عليه بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلى ، واسترواحا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد ما يلوح فى أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب . وقد كثر انقطاع أبيها إلى التعبد والتأمل فى خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها إلا أن ترمقه على العبد ، وتُهَيِّئ له ما فى وسعها من أسباب الراحة والهدوء . . .

وتتشاغل « زينب » بالمشاركة فى تدبير شئون الدار لكى تتيح لأمها الفراغ للتفكير فى الحبيب وإعداد زاده والسهر على راحته . حتى يعود « أبو العاص » من سفره فترجع زينب إلى بيتها حيث تفضى إلى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها إلى مألوف حالتها بين دعة وإشراق ، وربما أنشدها بعض ما كان ينشده فى سفره ، وهو عنها بعيد :

ذكرتُ زينب لما ورّكتْ إرَماً ... فقلت سقيا لشخصٍ يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة ... وكل بعلٍ سيثنى بالذى علما[1]

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٢٠ ـــ الاستيعاب ٤ / ١٨٥٤ واروض الأنف ٣ / ٦٨ ، وعيون الأثر ٢ / ٢٨٩ .

ثم منَّ الله عليهما بوليدهما « علىّ بن أبى العاص » ومن بعده جاءت أخته « أمامة »[1] ففاض عالمهما بالغبطة والفرح . . .

وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة إلى بيت أبيها وأبو العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل » .

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة والاهتمام والانشغال ، وقد راعها أن مرَّت بها فلم تكد تراها . بل اندفعت لا تلوى على شىء نحو مخدع زوجها . حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج إلى بناتها وقد عاودها هدوؤها . . .

وأصغت « زينب » إلى أمها وهى تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحى على أبيها ﷺ وهو يتعبد فى غار حراء ، فأُخِذَتْ بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك أن الأمر كان من الخطر والجلال بحيث قصُرتْ عن إدراكه وأعياها أن تبلغ مداه . . .

ولبثت فى مكانها ساكنة لا تريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهى ، بل خيل إليها أنها تسبح نائمة فى بحر لجى لا تدرك عبره !

حتى ردها إلى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :

ــ أوَ ما يسرك يا أختى أنك بنتُ نبىّ هذه الأمة ؟

أجابت بعد تأمل صامت :

ــ أجل والله يا فاطمة ، وأى فتاة لا يزدهيها ذلك الشرف الذى ما بعده شرف ؟ لكنه الذى سمعتُ من قول خالى « ورقة » : ليُكَذبُّن أبى ، وليوذَين ، وليُخْرَجَن ، وليقاتُلَنَ [2]

(1) نسب قريش ٧٠ ــ وجمهرة أنساب العرب ٧٠ ؛ ١٥٨ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٥٤ والمحبر ٥٣ ؛ ٩٩ وعيون الأثر ٢ / ٢٨٩ .

(2) السيرة الهشامية ١ / ٢٧٤ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٠٧ .

ففكرت « فاطمة » مَلِيًّا وقد عزَّ عليها أن يُؤذَى أبوها . ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :

هو والله ما قالت أمي لأبي :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، والله ما يخزيك الله أبدا . إنك لَتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] .

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وإن أحست كلتاهما أن لهذا الأمر ما بعده !

* * *

عاد « ابن الربيع » من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد ..

وتحدثت إليه زوجه « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وفخرا ، فما راعها إلا أن أمسك صامتا لا يعقب !

وسألته : ما بك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يملأ عينيه منها : بى يا حبيبة أنى خائف . . .

ثم غض بصره وهو يردد كمن يحدث نفسه :

ــ لو تبعتُه لقال القوم : فارق دين آبائه إرضاء لزوجِه وحميه ، ولو خالفته . . .

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة :

ــ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق . . ورنت إليه طويلاً قبل أن تستطرد قائلة : وأنا بعد قد أسلمتُ يا ابن الخالة . .

قال وقد أسقِط فى يده : أَوَ قد فعلتِها يا زينب ؟

---

(١) متفق عليه من حديث المبعث ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، مرفوعا (اللؤلؤ : باب بدء الوحى) ح (٨٩) .

قالت : وكذلك أسلمت أمى وأخواتى ، وعلىّ ابن العم أبى طالب ، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابنُ عمك عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد . . .

فلم يبد عليه أنه أصغى إلى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام : فهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك ، فيما يحدث لو أنى بقيت على دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب : كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الإسلام كما سبق إليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك . .

فانثنى مولّيًا ، وخرج إلى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جمر . .

وآب إليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

ــ لقيتُ أباكِ اليوم فى الكعبة يا زينب ، ودعانى إلى الإسلام[1] .

ثم لم يزد . . .

وكان فى وجوم ملامحه ، وانكسار صوته ، ما يغنى زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة ؟

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همَّا بعناق ، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعورٍ بالتدانى ، والتماس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا . . .

ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليال ، اللهم إلّا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفواتٍ قلقة ممزقة .

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد :

---

(١) السيرة ٢ / ٢٠٦ .

ـــ والله ما أبوك عندى بمتَّهم ، وليس أحب إلَىَّ من أن أسلك معك يا حبيبة فى شِعب واحد . لكنى أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بدين آبائه مرضاةً لامرأته وحَمِيه ، فهلا قدَّرت وعذرتِ ! ؟

وتمثل بموقف العم أبى طالب بن عبد المطلب : بقى على دين قومه ، وإن محمدًا لأحبُّ إليه من ولده ، وما يساوره فى صدقه أدنى ريب .

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وإن خايلها الأمل فى أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة . . .

* * *

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى ، وهذه قريش قد لجت فى عداوتها للرسول ﷺ ، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا محمدًا إلى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى سُجلت فى صحيفة عُلقت بالكعبة، وخرجت بالهاشميين إلى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك فى حصار طويل منهك امتد ثلاث سنين[1] .

ولم تكن « زينب » فيمن خرج إلى الشعب ، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها فى دار زوجها ، فتروعها بالذى يكابده أهلها هنالك . . .

ولم تنجل محنة الحصار ، إلا لتسلم إلى ليل طويل ، لا يبدو له آخر ! . . .

مات العم « أبو طالب » بعد ستة أشهر من تمزيق صحيفة المقاطعة .

وبعده بثلاثة أيام[2] ، توفيت خديجة أم المؤمنين الأولى ، وربة بيت النبى ﷺ وأم عياله ، ووزيره فى الإسلام .

---

(١) السيرة : ١ / ٣٧٥ . تاريخ الطبرى ٢ / ٢٢٥ . ومعهما عيون الأثر ١ / ١٣٠ .

(٢) المحبر : ١١ ، عيون الأثر : ١ / ١٣٠ .

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على النبى ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب فك الحصار ، إلى أشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا . .

وبدأ المسلمون يهاجرون تباعا إلى يثرب فرارا بدينهم من الفتنة والأذى ، حتى لم يبق مع النبى ﷺ بمكة إلا من حُبس أو فُتن ، غير « علىّ بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق » رضى الله عنهما . . .

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة أن المشركين قد ائتمروا بمحمد ﷺ ليقتلوه ويستريحوا منه . . .

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها إلى أقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق . .

وأوجست فى قلبها خيفةً « زينبُ » وهى تصغى إلى أنباء المطاردة الشرسة العنيدة ، حتى إذا بلغها وصول أبيها ﷺ إلى مأمنه فى دار الهجرة ، اطمأن بالها . . .

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيها « فاطمة وأم كلثوم » إلى هناك ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت زينب فى دار زوجها أبى العاص بن الربيع بمكة ، إذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد . .

وتلفتت حولها فإذا مكة قد خلت من كل الأهل ، وإذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم إلا من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين . . .

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسائلها : أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا ؟

أين الأمين والطاهرة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم وعبد الله ؟

رحلوا جميعا . فأما خديجة وولداها فإلى غير مآب ، وأما محمد ﷺ ، وبناته فإلى هجرة واغتراب . .

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها . حتى أراحها البكاء هونا ، فأغرقت فى تأمل صامت حزين :

واعجبا ؟ الأحياء من أهلها وأحبابها جِدُّ نائين ، والموتى منهم هم الجيران الأقربون ! .

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع : إن زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه ، ولو كان قد أسلم لما تمزّق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدة عن أبيها وأخواتها . .

* * *

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمد ﷺ قد وجد فى « يثرب » أنصارا ودارا ومقاما ، وأصحابه هناك يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعيرٍ تحمل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فعاد المسلمون إلى يثرب بالعير واثنين من الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمى صريعا بسهم على أديم الصحراء[1] .

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى أمر هذه القلة المهاجرة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفارى » ـــ وكان مسافرا فى تجارة بالشام مع أبى سفيان ـــ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

ـــ يا معشر قريش . . اللطيمةَ اللطيمةَ ! . . أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها . . الغوثَ الغوثَ ![2] . .

(١ ـــ ٢) السيرة : ٢ / ٢٥٢ ؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٥ وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٦٣ ، وعيون الأثر ١ / ٢٢٧ .

فجاءته الأصوات من كل جانب : أيظن محمد وأصحابه أن تكون عِير أبى سفيان كعيرِ ابنِ الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فأدركت أنها الحرب . . .

الحرب بين قريش والمسلمين . . .

وفى الأولين زوجها ووالد طفليها علىّ وأمامة : أبو العاص بن الربيع .

وفى الآخرين أبوها : محمد رسول الله ﷺ

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة أشقى منها ولا أفدح هما .

فلما أصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير إلى دار الهجرة فى ألف مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح .

كم ترى يكون عدد الجيش مع أبيها فى المدينة ؟ مائة ! مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يا لزينب مما تتمخض عنه المعركة الرهيبة غير المتكافئة . .

وانثنت إلى مهد صغيريها ، على وأمامة ؛ فرنت إليهما بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين :

ــ لن تطلع علينا الشمس فى مثل يومنا هذا ، إلا وأنتما يتيمان ، أو أنا . .

ثم أرخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها . واستسلمت لقضاء الله وقدره ... .

ولم تحاول أن تتابع أنباء القتال الدائر أو تلتمس ما يصل إلى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » إلا اليتم أو الترمل !

وإذ هى منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة : أوَ ما بلغك النبأ العجيب ؟

فنظرت إليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب . . .

واستطردت العمة : انتصر محمد فى قلة من صحابته ، على قريش فى كثرتها وعدتها . .

فانتفضت زينب هاتفة : انتصر أبى ! ؟ . . وافرحتاه ! . .

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفليها إلى صدرها واستعبرت باكية . . .

لكن العمة عَجِلتْ إليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص . بل وقع فى أسر صهره الكريم ﷺ .

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح . . .

* * *

وأتتْها بقية من الأنباء بعد حين . . .

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذى ترك هامات قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر . . .

وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء . . .

وكان « أبو العاص » ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا فى فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أغلى من المال . .

* * *

سيق أسرى بدر إلى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول ﷺ مليّاً ، ثم نحّى عنهم صهره « أبا العاص بن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال : « استوصوا بالأسارى خيرا » . . .

وبقى أبو العاص عند النبى ﷺ ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها . . .

وغالوا فى الفداء ، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدى به قرشى ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها فى فداء ابنها[1] . . .

---

(١) السيرة : ٢ / ٣١٦ ، والطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة . وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ١١ ـــ ولاحظ أن ابن الربيع ، يذكر فى بعض المصادر باسم « أبى العاصى » وفى آخر باسم « أبى العاص » .

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبى العاصى ، فقال للنبى ﷺ :

ـــ بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى ، أبى العاصى ابن الربيع . . .[1]

وأخرج من ثيابه صُرَّة قدمها إلى المصطفى فإذا فيها « قلادة » من جزع ظفار ـــ بلد باليمن ـــ لم يكد ﷺ يراها حتى رق لها رِقَّةً شديدة ، وخفق قلبه للذكرى . . .

لقد كانت قلادةَ « خديجة » أهدتها إلى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها إلى أبى العاصى ، ابن أختها « هالة » . . .

وأطرق الصحابة خُشَّعًا وقد أخِذوا بجلال الموقف :

قلادة الحبيبة ، تبعث بها بنت النبى إلى أبيها ، فى فداء زوج حبيب !...

وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها . فافعلوا » .

قالوا : نعم يا رسول الله . .

وأدنى محمد ـــ ﷺ ـــ إليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسرَّ إليه حديثا لم يُعلَم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا . ثم حيًّا ومضى ، فلما أبعد ، التفت ﷺ إلى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبى العاص خيرا وقال :

« والله ما ذممناه صهرا »[2] .

* * *

---

(١) مسند أحمد : ٦ / ٢٧٦ والسيرة ٢ / ٣٩٧ : والاستيعاب والاصابة : ترجمة أبى العاص .

(٢) السيرة : ٢ / ٣١٧ ، وابن سعد فى الطبقات ٨ /٣١ من طريق الواقدى ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٩١ ، والاستيعاب : ٤ / ١٧٠١ .

وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل من صحيحه ، وفيه أن النبى ﷺ « ذكر صهرا له فى بنى عبد شمس . فأثنى عليه فى مصاهرته إياه فأحسن » ٤ / ١٩٠٢ ح ٢٤٤٩ .

دخل « أبو العاص » بيته فما رأته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها إليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها الجميل إلى السماء تحمد الله أن رده سالما إليها وإلى طفليه ، وتضرعت إليه تعالى أن يشرح قلبه للإسلام . . .

وشغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه زوجها من وجوم واكتئاب ، إلى أن قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها :

ــ جئتك مودعا يا زينب . . .

سألت بقلب واجف : هكذا ولما نكد نلتقى !

قال ومازال يتحاشى النظر إليها : لستُ راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة ! . .

ورابها ما سمعت .

كانت تعرف أن قريشا ساومت أصهار محمد ﷺ ، على أن يردوا بناته إليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا أختيها « رقية وأم كلثوم » فردَّاهما إلى أبيهما ، وأما أبو العاص فتركهم يقولون :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش . . .

ثم صدمهم بردِّه : لا والله إنى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش[1] .

فهل تراهم عاودوه اليوم فى أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان فى « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجمد أطرافها وتسرى إلى قلبها ، فاستندت إلى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يائس ، ماذا بعد . . .

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ وانظر معه فى الاستيعاب والإصابة ترجمة أبى العاص وسعى قريش فى طلاقه لزينب ، رضى الله عنهما .

وأدرك « أبو العاص » ما هجس فى قلبها ، فبادرها قائلا فى حنو وكأنما ذاب قلبه فى صوته : رحماك يا حبيبة ، إن أباك هو الذى طلب أن أردك إليه ، لأن الإسلام فرّق بينى وبينك ، وقد وعدتُه أن أدعك تسيرين إليه ، وما كنت لأنكث عهدى . . .

وحملها صوته إلى بعيد . . .

وتمثلت نفسها فى يثرب ، تقبل أباها وتعانق أخواتها ، وتلقى النازحين من لأهل والعشيرة ، والصحابة من المهاجرين والأنصار .

وانتشت بالحلم الهنىء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على « أبى العاصى » غارقا فى شجنه ، فسألته مترفقة :

ـــ كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

ـــ ليس بالكثير . . . إن هى إلا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم . . . .

وبقى سؤال لزينب : وترافقنى إلى دار الهجرة ؟

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه وأجاب :

ـــ كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتى أخوك زيد بن حارثة ، ومعه صاحب من أنصار أبيك حتى يبلغا « بطن ياجج » ـــ على بعد ثمانية أميال من مكة ـــ فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك إلى أبيك بيثرب[1] .

* * *

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبى سفيان إلى محافل

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٨ ـــ وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩١ .

مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذيت قتلوا يوم بدر : أباها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وأبناء عمومتها : عبيدة والعاصى ابنى سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وعقبة بن أبى معيط ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان بن حرب . . .

ولم يخفَ على هند ــ فى ذكائها اللماح ــ أن زينب إنما تتجهز لِتلحقَ بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر ، فدنت منها وقالت متلطفة : يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟..

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب ، وأضافت هند مجاملة :

ــ أى ابنة عمى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك فإن عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال . . .

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، فهمت بأن تفضى إلى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها . . .

ومضت كلتاهما لشأنها . . .

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى خِفتُها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب »[1] . . .

وأما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والحمية . . .

* * *

وسرعان ما حل الموعد المضروب . . .

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٨ ، وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩٢ .

وودعت « زينب » أبا العاص وداع مُحِبَّةٍ غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع . . .

وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال : مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت أيامنا وليالينا السعيدة . . .

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بزينب إلى حيث ينتظرها زيد وصاحبه . . .

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طُوى ، فكان أسبقهم إليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جُن حزنه على إخوةٍ له ثلاثة ، صرعوا جميعا يوم بدر بأيدى أصحاب محمد ﷺ[1] .

ونخس البعيرَ ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، وإذ ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

ـــ والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما . . .

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

ـــ كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك . . .

فكفَّ كنانة . . .

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

ـــ إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذُلٍّ أصابنا ، وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن

(١) السيرة ٢ / ٢٦٦ ، الروض ٣ / ١٢٤ ، العيون : ١ / ٨٥ .

أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسُلَّها سرا فألحقها بأبيها[1] .

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع فى الناس أن قد ردتها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت إليها فراعه أن رآها تنزف دما ، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء . . .

وعاد بها إلى مكة ، حيث بقى « أبو العاص » إلى جانبها أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ،فلما تمالكت بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها إلى « زيد بن حارثة » وما تزال تنزف دما . . .

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزى والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :

ـــ أمعركة مع أنثى عزلاء ؟ . . فهلا كانت هذه الشجاعة يومَ بدر ؟

أفى السلم أعيارٌ ، جفاءً وغلظةً   وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟

ورجع « كنانة » إلى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يرفع صوته منشدًا :

عجبت لهبَّار وأوباش قومه   يريدون إخفارى ببنت محمد !
ولست أبالى ، ما حييتُ ، عديدهم   وما استجمعتْ قبضا يدى بالمهند![2]

* * *

استقبلت « يثرب » بنت النبى ﷺ باحتفال مهيب ، شابت فرحةَ اللقاء فيه ، سَوْرةُ الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أولَ خروجها من مكة ، وحملت الركبان إلى قريشٍ قولَ شاعر الأنصار منذراً متوعدا :

أتانى الذى لا يقدر النار قدره   لزينب فيهم من عقوق ومأثم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب   سراة خميس فى لهام مسوَّم

---

(1) السيرة : ٢ / ٣٠٩ ــ وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩٢ .
(2) السيرة : ٣١٠/٢ ، وشرحها فى الروض الأنف ٦٨/٣ .

نزوع قريشَ الكفرِ حتى نعلَّها بخاطمةٍ فوق الأنـوف بميسم
ننـزلهم أكنـاف نجد ونخلـه وإن يُتهِموا بالخيل والرجْل نُتهِم

....

فأبلغْ أبا سفيـان إمَّـا لقيتَـه لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزيٍ فى الحياة معجل وسربال قارٍ خالدا فى جهنم ! . .[1]

كذلك تحدثت الركبان بغضب المصطفى ﷺ لابنته ، حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين ـــ هبارا وزميله ـــ إذا هم ظفروا بهما ، لكنه ﷺ لم يكد يخلو إلى نفسه ويتدبر ما كان من أمره بإحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث إلى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالإحراق عقوبة القتل . .

حدث أبو هريرة رضى الله عنه قال :

بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها ، فقال لنا : « إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه إلى زينب ـــ سماه ابن إسحاق فقال : هو نافع بن عبد قيس ـــ فحرقوهما بالنار . » . .

« فلما كان الغد بعث إلينا فقال : إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[2] . . .

* * *

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الأحداث ، و « زينب » فى حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر « أبى العاص » للإسلام . . .

---

(١) السيرة : ٣١٠/٢ .
(٢) ابن إسحاق ، فى (السيرة ٢ / ٣١٢) بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وليس بمستغرب ألا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها ﷺ من شواغل الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى المدينة والمشركين فى مكة . . .

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكرياتٍ ألمت بها فذادت النوم عن عينها . . . وطاب لها أن تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها إياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى الإسلام ألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر المبين آت دون ريب كما وعد الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟ . .

ودنا الفجر وما تزال فى يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح فى تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق والإجهاد .

وارتابت « زينب » فى يقظتها وظنت أن ما ترى ليس إلا طيف من تحب ، يسرى إليها فى هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح . .

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألمَّ بها ، وغمغمت فى شجوٍ ورقة :

ــ أبو العاص ! . .

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ــ أجل يا أعزَّ من لى . . . أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى إليك والمطاردون فى أثره . . .

ولم تصدق « زينب » سمعها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهى ما تزال أشبه بمنومة ، واستمرأت أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ،

إلى أن لمحت نور الفجر يتسلل من كُوَّة فى الدار ، وسمعت بلال بن رباح يؤذن لصلاة الصبح بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا الأذان :

« الله أكبر » . . .

وميزت خطوات قريبة ساعية إلى المسجد فعرفت أنه أبوها ، ﷺ يخرج ليصلى بالناس . . .

وقالت كمن تحدث نفسها :

ـــ رباه ، لكأنى فى يقظة ! وكأنى بك يا أبا علىٍّ إلى جانبى ! . .

فرد عليها صوتُ من حسبته طيفا : أجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد أن أجهده السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق ! . .

فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت إليه تريد أن تحييه ، حتى إذا لم يبق بينها وبينه إلا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت إليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام . . . .

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت :

ـــ كلا يا زينب ، لم آتِ يثرب مسلما ، وإنما خرجت تاجرا إلى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتى وأقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معى وأعجزتُهم هاربا ، حتى إذا جنَّ الظلام جئتك متخفيا مستجيرا . . .

فعادت إلى مكانها الأول ، وهى تقول بصوت حزين :

ـــ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا أبا علىّ وأمامة . .

ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من حولهما فى سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة ، ثم تناهى إلى سمعها

صوت أبيها ﷺ يكبر فى المسجد ، ويكبر معه الناس ، فجمعت زينب نفسها وقامت إلى الباب ، ثم صاحت بأعلى صوتها :

« أيها الناس ، إنى أجرت أبا العاص بن الربيع »[1]

وحمل نسيم الفجر صوتها إلى من فى المسجد ، فلما سلم الرسول ﷺ أقبل على من معه فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ »

قالوا : « نعم يا رسول الله » . . .

قال : « أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم »

وأضاف بعد صمت قصير :

« إنه يُجِيرُ على المسلمين أدناهم ، وقد أَجَرْنَا من أجارت »[2] . . .

* * *

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى قالت ضارعة :

« يا رسول الله ، إن أبا العاص إن قَرُبَ فابنُ عَمٍّ ، وان بَعُدَ فأبو وَلِدٍ ، وإنى قد أجرتُه . . . »

فرنا إليهما الأب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

« أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يَخلُصنَّ إليك ، فإنك لا تَحلين له »[3]..

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى إذا أبعد ، التفت كل منهما إلى صاحبه ، وقالت زينب عاتبة :

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٣/٢ ، والسيرة ٣١٢/٢ ، والاستيعاب ٧٠٢/٤ والاصابة : ١١٩/٧ ، ٩١/٨ .

(2) السيرة : ٣١٣/٢ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ — وطبقات ابن سعد : ٦٣/٢ . . تاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢ .

(3) السيرة : ٣١٣/٢ — وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ وأخرجه ابن حجر فى ترجمة أبى العاص ، من طريق الحاكم أبى أحمد ، فى الكنى ، ومن طريق البيهقى (١١٩/٧) .

ـــ هان عليك فراقنا يا أبا العاص . . .

فأجابها وهو يمسك قلبه :

ـــ معاذ الحب يا زينب ، أما والله ما طاب لى من بعدك عيش . . .

فسألته : ففيم إذن هذا العذاب ؟ . . وحتام ؟ . .

أجاب : حتى يقضى الله فينا أمره . .

وأخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت فى مقلتيه . . .
همست فى ضعف : يرحمنا الله يا ابن الخالة . . .

فرفع وجهه إليها وقال متمهلا : لقد عرضوا علىَّ بالأمس أن أسلم وآخذ ما معى من أموال فإنها أموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدأ به إسلامى ، أن أخون أمانتى[1] . . .

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه ، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفليه النائمين فى سلام . . .

وفى الصبح ، بعث النبى ﷺ من يصحب « أبا العاص » إلى المسجد ، حيث كان ﷺ يجلس فى جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبى العاص . . .

وقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام :

« إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » . . .

أجابوا بصوت واحد : يا رسول الله ، بل نرده عليه . . .

وأسرعوا يفعلون ، حتى إن أحدهم ليأتى بالدلو ، وبالإناء الصغير ، وبالسقاء البالى . . إلى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا[2] . .

(١) السيرة : ٣١٤/٢ .

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ ، وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/٢ ـــ والاستيعاب والاصابة ، فى : أبى العاص .

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ــ حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى لِى . . .

والتفت « أبو العاص » إلى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا . . .

* * *

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش إذ رأته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء فى يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى إلى كل ذى مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يُسمَع وصاح بأعلى صوته :

ــ يا معشر قريش ، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه ؟ . .

قالوا : « لا . . . فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ! . . . »

فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :

ــ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها ، أسلمت[1] . . .

وخلَّف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق مستقبلا دار الهجرة .

* * *

استهلَّ المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول ﷺ وصحبه من الحديبية ــ على نحو مرحلة من مكة ــ بعد أن عقدوا الصلح التاريخى الذى بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركى مكة ، قبل المعركة الفاصلة .

وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول ﷺ يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة معتمراً مسالما لا يريد قتالا :

---

(١) السيرة : ٣١٣/٢ ــ وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ، والإصابة (الكنى) .

« يا ويح قريش ! . . لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ . . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! » .

وأشار إلى صفحة عنقه . . .

وصدق رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب وما يزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون إلا أن يلقوا بفلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب . . .

وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم وقربى ، وإن دار الهجرة لتفتح قلبها قبل أبوابها لكل من يفد إليها من هؤلاء مسلما ، وتوطىء له فى رحابها منزلا وسكنا . . .

وها هى ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، إلى المسجد النبوى ، مارا فى طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى ﷺ ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى المصطفى يرد عليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم إلى المصطفى ﷺ ، بحاجته فى استرجاع زينب . . .

وأثنى ﷺ عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار إلى بيته ومعه ابن الربيع . . .

ودعا إليه ابنته ، فردها على أبى العاص : قيل ردها إليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد[1] .

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال .

* * *

ومضى عام واحد ، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا .

توفيت « زينب » رضى الله عنها فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهى خارجة من مكة .

وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على إبعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

« اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا . . . »[2]

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف بالباب محزونا شارد النظرات ، إلى أن جهزوها للرحلة التى لا يئوب منها مسافر . . .

وصلى عليها أبوها المصطفى عليه الصلاة والسلام فى مسجده ، ثم شيعها إلى مرقدها حيث أودعها ثرى طيبة . . .

ورجع « أبو العاص » إلى داره التى كانت بالأمس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والأشجان .

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد فى ولده « علىّ » بعض عزاء ، ثم ثكله ، وبقيت ابنته « أمامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب . . .

(١) على القول الأول اقتصر الطبرى « ٢٩٣/٢ » وابن حبيب فى (المحبر ٥٣) وأخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب ١٧٠٣/٤ من حديث ابن عباس ، ثم أتبعه بالقول الآخر وقال : رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وهو قول الشعبى وطائفة من أهل السير . وانظر طبقات ابن سعد ٣٣/١ ، والروض (٦٩/٣) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، ك الجنائز من حديث أم عطية الأنصارية رضى الله عنها من عدة طرق ، وعنه فى (الإصابة : ٩٢/٨) .

وكذلك وجد المصطفى ﷺ فى « أمامة » ما يخفف حزنه على « زينب » فكان يأنس بها ويهش لها ، وفى (الصحيحين) أنه كان يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فإذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها . . .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أن الرسول ﷺ أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : « لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىَّ » فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة ! . . . لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب : فأعلقها فى عنقها . . .[1]

وما كان أحبَّ اسمها إليه ! حدثت زينب بنت أبى سلمة ، ربيبته ﷺ قالت : « كان اسمى برة ، فسمانى رسول الله ﷺ زينب . ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمها برة ، فسماها زينب »[2] .

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها ، وتذكر أيامهما السعيدة فى مكة إذ البال خلىّ وشمل الأسرة ملتئم . ثم كان لها — بعد سنين — بعض عزاء فى تسمية وليدتها — من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — باسم « زينب » إحياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لا يمل . . .

ولحق « أبو العاص بن الربيع » بزينب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة[3] . . .

وأوصى بابنته أمامة إلى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد ، وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها الزهراء ، رضى الله عنها وعنهم ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهى تطيف به إذ هو مسجى على فراشه ، يمزق القلوب ويفتت الأكباد . . .

---

(١) أسنده ابن سعد فى الطبقات ، من رواية الليث بن سعد ، وعنه فى (الإصابة ١٤/٨) .
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه : ١٦٨٨/٣ ، ح (٢١٤٢) .
(٣) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب والإصابة .

قالت « أم الهيثم النخعية »[1] :

أشابَ ذؤابتي وأذلَّ ركني « أمامةُ » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتِها إليه فلما استيأستْ رفعتْ رهينا

وكان الإمام الشهيد كرم الله وجهه قد قال لأمامة حين حضره الموت : « إنى لا آمن أن يخطبك هذه الطاغية — يعنى معاوية — بعد موتى ، فإن كان لكِ فى الرجال حاجة فقد رضيتُ لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيراً » . . .

فلما انقضت عدتها ، كتب « معاوية » إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة ألف دينار ، فلما ذكرتْ ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

— أتتزوجين ابنَ آكلة الأكباد ؟ فلو جعلتِ أمرك إلىَّ ؟

أجابت وقد ذكرت وصيةَ زوجها الإمام الراحل : « نعم . . . »

فقال المغيرة : « قد تزوجتك . . . »

وأقامت معه حتى مات ، عن غير خلف وكذلك مات أخوها « على » قبلها مراهقا ، كما نص على ذلك المصعب الزبيرى ، وابن حزم[2] .

وكل ما وصل إلينا من أخباره — فيما بين مولده وموته — خبر « زعموا فيه أن رسول الله ﷺ أردفه خلفه يوم فتح مكة » .

وبموتهما انقطع عقب « زينب الكبرى بنت النبى » صلى الله عليه وعلى آله وسلم

* * *

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٢ مع جمهرة أنساب العرب ١٤ . والعيون ٢٨٩/٢ ومناقب أمامة رضى الله عنها ، فى (مجمع الزوائد ٢٥٤/٩) .

(٢) نسب قريش : ١٢ ، ٢٢ ، وجمهرة الانساب ١٥ . مع طبقات ابن سعد : ٣١/١ ، ومناقب أمامة فى (مجمع الزوائد ٢٥٤/٩) .

(٢)

رُقَيّة ذات الهجرتين

عليها السلام

ـ الخَاطِبَانِ
ـ ظلال عَلَى الأفق
ـ فى بَيتِ أبى لهب ،
مَع حَمّالة الحَطب
ـ النجاة
ـ مع عثمان ذى النورين
ـ وهجرة إلى الحبشة
وعودة إلى أم القرى
ـ الهجرة الثانيَة
ـ مأتم فى يَوم النصر
ـ الثرى الطَّهور

الخـاطبـــانِ

بعد زواج « زينب » من أبى العاص بن الربيع بوقت قصير . استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم إليه كفء كريم من شباب قريش . . .

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ـــ ما أرى دورك إلا قد حان يا رقية . . .

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردًّا على ما سمعت من كلام أختها أم كلثوم : بل جاء دوركما معا ! . . .

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفى حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فتستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها . . .

وأتيح لها بذاك أن تسمع قول شيخهم أبى طالب :

ـــ إنك يا ابن أخى قد زوجت زينبَ أبا العاص بن الربيع ، وإنه لنعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا . . .

أجاب محمد : « صدقت يا عم . . . » .

وقال الشيخ : وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ، وما أراك تضن بهما على ابنى عمك . . .

معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا أمهله العم حتى يتحدث فى هذا إلى ابنتيه ؟

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرعت تعدو نحو أختيها فى بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير . . .

ووجمت الأختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر كله مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم استغرقهما جمود صامت ، وراحت كل منهما تنظر إلى الأخرى ، وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتدا إليهما بغير جواب . . .

هنالك التفتتا معا إلى « فاطمة » وقالتا :

ــ فهل عرفتِ لأى أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة : كلا ، فما أطقت صبرا بعد أن سمعت حديث الجد ، وعجِلتُ إليكما بالنبأ دون انتظارٍ لما بعده . . .

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث نفسها :

ــ وماذا يعنينى من اسم الخاطبين ؟ . . . ليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف فى كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسى ، وتُنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت زينب من قبل ، وتنقلان إلى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى هنا وحدى ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس أختيها ، ولم يفت الأم فى اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت إليها تسألها فى حنان : ماذا يبكيك يا صغيرتى ؟ . .

أجابت وهى تتشبث بها معانقة :

ــ لا تدَعى أحدا ينتزعنى منك ومن أبى ، فلست أطيق فراقكما . . .

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

ـــ كلا ، لن تتركينا يا حلوة ، حتى تريدى أنت ! . . .

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها : لكنى لن أريد ! . .

وعقبت الأم هامسة فى دعابة وشجو :

ـــ كذلك تقولين الآن يا صغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل . . .

وأسبلت جفنيها خالمة ، وارتدت بها الذكرى إلى أربعة عشر عاماً مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وعقدت العزم على ألا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم إليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت إليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا إلى ما يحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردَّت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذى لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين ! . . .

وآبت من حلمها الهنيء الذى ما تزال فى نشوة منه ، فإذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـــ من يكون الخاطبان يا أم ؟ . .

أجابت فى إيجاز وهى ترنو إلى رقية وأم كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـــ عتبة وعتيبة ، ابنا العم عبد العُزَّى[1] .

وأطالت النظر إلى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا إلى مخدعهما فى سكون ، دون أن تنبسا ببنت شفة . . . وتبعتهما فاطمة . . .

---

(١) هذا هو اسمه ، وقد غلبت عليه كنيته « أبو لهب » بن عبد المطلب بن هاشم . وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية ، وجدته لامه : هند بنت عمرو بن كعب ، من تيم بن مرة ـــ راجع جمهرة انساب العرب : ١٨ ـــ ذخائر .

وبقيت الأم وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه ، فعلّلت ذلك بقرب فراقها لابنتيها . على أنها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها : لقد كانت لا تستريح إلى « أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس » زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان . . . وفيها كذلك صلف أحمق وطيش أهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمت الجليل الذى يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفقت « السيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها قِبَل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون إتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى إن هى فعلت ، أن تثير غضب الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم إياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وآله من أواصر القربى . . .

والسيدة خديجة إلى جانب هذا ، تعرف لأم جميل انتماءها إلى بيت قرشى كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وإنها لقادرة على أن تفعل ، وحسبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنطلق فى المجتمع القرشى متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات . . .

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضى إلى زوجها بمخاوفها ، فما اعتادت قط أن تخفى عنه شيئا مما يهجس فى خاطرها لكنها كرهت أن تشغله بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وإنها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، أن هناك أمرا خطيرا يشغله ، وان لم تدرِكْنَهَ هذا الأمر ، ولا هى بحيث تحمله على الإفضاء به إليها قبل أن يفعل ذلك من تلقاء نفسه . . وإنما حسبها أن توفر له ما يحتاج إليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير أن تثقل عليه ، وترقبه فى خلوته بعين ساهرة ، دون أن تقتحم عليه خلوته . . .

وما كان لها وهى الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم

جميل بنت حرب ، أو تشغله بالصراع بين حرصه على راحة ابنتيه ، وبرّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية ، أو تعرضه — وهو فى حالته تلك — لعداوة عمه عبد العزى وبغضاء امرأته .

وفى الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، وأختهما الصغرى ترقبهما فى حيرة : إن الأمر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والإشراق تستعد للفرح فى غبطة وعلى استخياء ، وأما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب إلى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعاطف والألفة ، وآخر تعقده أواصر العشيرة وروابط الدم . . .

ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب فى مدار واحد : ما بال الأسرة تتعجل زواجهما ، هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال إلى دار أم جميل ؟ . . .

وفى الحق إنهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما من فتية آل هاشم الأمجاد ، ولهما كذلك فى بنى عبد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشى الكريم ، وأما العم عبد العزى ، فله — إلى جانب حسبه وثرائه — مكرمة سابقة هيهات أن يجحدها آل محمد ، فإنه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله ، حتى أعتق جاريته « ثويبة » التى حملت إليه البشرى السعيدة . . .

وما غاب شىء من هذا عن بال رقية وأم كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال إلى بيت العم ، أيكون هذا لأنهما لم تألفا بعدُ الوضعَ الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، غشرة « أم جميل بنت حرب » — زوج العم عبد العزى — ذات السمت السوقى والطبع الجامح الحاد ؟ . .

وقالت أم كلثوم لرقية :

ــ إنك لتعلمين أن أبانا لن يقضى هذا الأمر دوننا ، فماذا ترينك فاعلة ؟

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

ــ لست بالتى تعق أباها ، فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأدنين . . .

ثم رنت إلى أختها وقالت تشجعها فى رقة وعطف :

ــ لا عليك يا أختاه ، فسنكون معا . . .

* * *

فى بيت أبى لهب
مع حمــالة الحطب

وكذلك تم الأمر فى هدوء مشوب بالقلق : تزوجت رقية عتبة بن عبد العزى بن عبد المطلب الهاشمى ، وتزوجت أختها أم كلثوم أخاه عتيبة[1] . وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما فى حراسة الله ورعايته ، وانصرف إلى ما كان يشغله من تعبد وتأمل . . .

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير فى زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا إلى الخلوة ونزوعا إلى الصمت والتأمل . وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتمه حتى عن « خديجة » موضع حبه وثقته وسكنه . . .

ليته يدعها تشاركه الهمَّ وتحمل معه العبء الذى يحسه ثقيلا باهظا ! ليته يخفف عنها ما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضى إليها بالذى شغل باله !

---

(١) فى طبعة نهضة مصر من الاستيعاب ما نصه : « كانت رقية تحت عتبة بن أبى لهب ، وكانت أختها أم كلثوم تحت عتبة بن أبى لهب » وكتب المحقق على هامشه : فى نسخة (أ) : عتيبة (٤ / ١٨٢٩) وهذا من عجيب الوهم !

وفجأة ، لاح لها فى هدأة الليل شعاع من نور أضاء الظلمة التى أغرقت الكون من حولها ، وتناهى إلى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ، صدى من قول ابن عمها « ورقة بن نوفل » لها . وقد استبطأ أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد فى رحلتهما إلى الشام :

لججت وكنتُ فى الذكرى لجوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا !
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيا ليتنى إذا ما كان ذاكم ... شهدتُ فكنت أوَّلَهم ولوجا[1]

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع . فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليه السهاد . . .

ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد إلى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وإن بقيت بجسمها فى البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب . . .

وقد تذكر ابنتيها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما وإشفاقا عليهما مما قد يثقل عليهما من عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث أن تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الأمر الجليل المرتقب . . .

* * *

ولم يكذب السيدة خديجة ظنُّها . . .

فما كاد محمد ﷺ يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الحق ، حتى أُخرِجت « رقية وأم كلثوم » من بيت أبى لهب ، ورُدتا إلى بيت أبيهما ! . .

وكانت قريش قد ائتمرت بسيدنا محمد ﷺ فى بناته قائلة :

---

(١) السيرة : ٢ / ٢٠٣ .

ــ إنكم قد فرّغتم محمدا من همّه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن . . .

ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت . . .

فأما « أبو العاص » فأبى مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا . وأما ابنا أبى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجةً من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد »[1]

وفى الحق ، ان ابنى أبى لهب لم يكونا فى حاجة إلى سعى من قريش فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « أم جميل بنت حرب » من قبل ، حين أقسمت ألا يظلها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها « أبى لهب » حتى أثارت حفيظته على العروسين الهاشميتين ، فقال لولديه :

ــ رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد . . .[2]

وكان الظن بابنى العم ألا يفعلا . . .

بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتى أخيه عبد الله ، وابنتى محمد الذى ابتهج بمولده وأعتق جاريته حين بشرته به . . .

لكن « أم جميل » كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الإرادة ، وتسمم الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ما توجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ . . .

لكأنما أرادت هذه العبشمية أن تكيد لبنى هاشم ، الذين استأثروا بأكثر المجد والشرف دون قومها بنى عبد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض . . .

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٧ ــ وانظر معها الاصابة : جـ ٨ / ٣٨ ــ و (مسند أحمد) ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ .

(٢) فى الروض الأنف ٣ / ٦٨ ، أن عتبة وعتيبة طلقاهما بعزم أبيهما عليهما وأمهما حين نزلت ﴿ تبّت يدا أبى لهب وتب ﴾ فأما عتيبة فدعا عليه النبى ﷺ أن يسلط عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه . وأما عتبة فمن مسلمة الفتح . انظر ترجمته فى (الإصابة ، القسم الأول من حرف العين : ٥٤٠٥) .

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفى غليلها من « خديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهابة وجلالا ، ملء الأسماع عزة ونُبْلا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ﷺ لتغيظ غريمتها خديجة وتعكر عليها صفو سعادتها التى كانت مضرب الأمثال . . .

و لم يكفها أن ردت إليها ابنتيها طالقتين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو لهب إلى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما كان أحد أشد عداوة منهما للنبى ﷺ ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر ما بلغا ، ولا سُمع أن أحدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب ! . .

وإنه لموقف يدعو حقا إلى الدهشة والعجب . . .

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقى أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه . . .

أقبل حمزة بن عبد المطلب ، أخو أبى لهب ، ذات يوم متوشحًا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره » . . .

فاحتمل حمزةَ الغضب ــ و لم يكن قد أسلم بعد ــ واندفع غير ملق بالا إلى أحد فى الطريق ، حتى عثر بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ . . فرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت ! »[1] ومضى إلى المصطفى ابن أخيه ، فبايعه . . .

---

(١) السيرة : ١ / ٣١٢ ، ومعها الطبقات والاستيعاب والاصابة ، ترجمة حمزة « رضى الله عنه » وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٢٤ والروض الأنف ٢ / ٤٩ وفيه شعر لحمزة رضى الله عنه ، حين أسلم . وعيون الأثر ١ / ١٠٤ .

وهكذا أسلم حمزة ، رضى الله عنه ، لأنه لم يطق أن يؤذى ابنُ أخيه بمرأى منه أو مسمع !

وكذلك لم يطق أحد من بنى هاشم وبنى عبد المطلب أن يخذل محمدا ، سواء فى ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير أبى لهب !

فى الصحيحين[1] عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال :

لما أنزل الله تعالى : ﴿ **وأنْذِرْ عشِيرَتكَ الأقرَبِينَ** ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الصفا فصعد عليه فهتف : « يا صباحاه ! » فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقىَّ ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » قال أبو لهب : تبًّا لك ! ما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت : ﴿ **تبَّتْ يَدَا أبى لَهَبٍ وتَبَّ** ﴾ .

تمام السورة : ﴿ **ما أغنَى عنهُ مالُه وما كَسبَ * سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهبٍ * وامرأتُهُ حَمَّالةَ الحطبِ * فى جِيدِها حبلٌ مِّن مَّسَد** ﴾ . .

ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر . . .

قال ابن إسحاق :

فذُكِر لى أن أم جميل حمَّالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة — قطعة تملأ الكف — فلما وقفتْ عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ،

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، ومسلم فى كتاب الإيمان . والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ١ / ٥٧ ، ح ١٢٤) . ورواه ابن سعد فى (الطبقات ١ / ١٩٩) من طريق الواقدى ، بسنده عن ابن عباس ، رضى الله عنهما .

فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إنى لشاعرة . ثم قالت :

مُذَمَّما عصينا

وأمـرَه أبينـا

ودينَـه قلينـا

وانصرفت ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : « ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى »[1] .

وفى حمالة الحطب ، يقول « الأحوص عبد الله بن محمد بن عبد الله الدوسى ،الشاعر الأنصارى » رضى الله عنه :

ما ذاتُ حَبْلٍ يراه الناسُ كلهمُ وسْط الجحيم ولا يخفَى على أحدِ
كلُّ الحبال ، حبال الناس، من شَعَر وحبلُها وسْط أهل النار من مَسَدِ[2] .

وربما استيقظ ضمير أبى لهب مرة ، وحَمِىَ فى عروقه الدم الذى يحن إلى ابن الأخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم . حدثوا أن أبا سلمة المخزومى بن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله أبى طالب ، حين أرادت قريش أن تفتنه عن إسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له :

ـــ لقد منعتَ منا ابنَ أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : إنه استجار بى وهو ابن أختى ، فإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى . . .

وكان أبو لهب حاضراً ، فقال مغضبا : يا معشر قريش . والله لقد أكثرتم

---

(١) السيرة : ١ / ٣٨٢ .

(٢) نسب قريش : وجمهرة الأنساب ٣١٣ .

على هذا الشيخ ؟ . . ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنَقومَنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . . .

فآثروا أن يبقوا عليه فى حزبهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة »[1] .

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة فيما أعلم ، أن « أبا لهب » وقف مثلها مرة أخرى ، بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ، . .

وأعشى سحرُ « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته وإنسانيته .

فى السيرة النبوية أن بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار فى شعب أبى طالب ، كانوا إذا قدمت العير مكةَ وأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم . . .

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم أو الهاشمى إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شىء يطعمهم به . ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعرياً[2] .

وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، متأثرة بما قرأت عن أبى لهب وأنا ألتمس أخبار ابنتى محمد ، ﷺ ، فى زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما إلى أبويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب . . .

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، أقرأ ما لم يُكتب عن معاملة هذه العبشمية

---

(١) السيرة : ٢ / ١٠ .

(٢) وانظر كذلك مسند أحمد ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ . وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٢٥ .

لابنتى محمد ، إذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما إلى بيت أبى لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى[1] . . .

وأكاد ألمحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذى تظله أجنحة الحب والمودة — أو كانتا بسبيل أن تغادراه — إلى بيت تتلقاهما فيه ، وهما فى جلوة العرس ، امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها . . .

فإذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوادعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء . . .

* * *

النجـــاة

احتملتا همومهما فى صمت وصبر ، حتى أراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة ! . .

على أن الحياة فى بيت أبيهما — ﷺ — كانت قد تغيرت عما ألفتا فى أمسهما الخَلِىِّ السعيد ، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء . . .

أو لم يقل المصطفى ﷺ لزوجه : « مضى عهد النوم يا خديجة » ؟ . . بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب فى سبيل الله ، وإن المصطفى ليعود إلى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن . . .[2]

---

(١) ابن حجر : الاصابة ٨ / ٨٣ ، ٨ / ٢٧٢ .   (٢) السيرة النبوية : ١ / ٢٥٧ .

ومع كل ذلك البلاء ، طاب لرقية وأم كلثوم أن تشاطرا أبويهما ما يلقيان فى سبيل الله ، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الأذى .

* * *

وخاب ظن حمالة الحطب وظنُّ المشركين من قريش ، فلم يُشغل « محمد » ــ ﷺ ــ بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه طلاقُهما ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب وأبى لهب ، ثم ما لبث أن أبدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضى الله عنهم ، ذلك هو « عثمان بن عفان ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس »[1] أعزه الله فى الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا . يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصى ، ومن ناحية الأم عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هى البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبى[2] ﷺ . . .

وكان « عثمان » إلى هذا النسب العريق ، بهى الطلعة ، فخم السمت موفور المال ، رضى الخلق . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « كان عثمان أوصلَنا للرحم ، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين[3] » .

أعزه الله فى الإسلام فكان من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم .

* * *

---

(١) نسب قريش : ١٠ وصحيح مسلم : ٤ / ١٨٦٦ وصحيح البخارى : ٦٢ باب ٥ ، ٧ ، ٨ / ١ باب ١١٩ .

(٢) الاستيعاب : ٤ / ١٠٣٨ ، ونسب قريش ١٨ .

(٣) الاستيعاب ٤ / ١٠٣٩ وانظر باب فضائله فى كتاب فضائل الصحابة ، من صحيح مسلم .

تقدم « عثمان » الى رسول الله ﷺ يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه ﷺ ابنته « رُقية » ولم يُر زوجان قط أجمل منهما ولا أبهى فيروى أن النساء غنَّين فى عرسهما :

أحسن شخصين رأى إنسان رقية وبعلها عثمان[1]

ولم تشارك « مكة » هذه المرة فى الاحتفال بالعرس الكريم ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر فى هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا . ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس !

وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والأرواح ، بل يرون الاستشهاد فى سبيل دينه مجدا وانتصارا . . .

من هؤلاء ، من كان بالأمس له عدوا ، ومنهم من تردد أمدا قبل أن يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا . . .

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب فى مستهل المبعث . فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد إلى دين الكثرة الغالبة ! [2]

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وإنه ليعلم ما يلقى أصحاب

---

(١) الروض الأنف ٢ / ٧٩ ، والاصابة ، فى ترجمة « سعدى بنت كريز بن ربيعة » خالة عثمان ، رضى الله عنهما .

(٢) تاريخ الطبرى : ٢ / ٢٣٠ — والسيرة : ١ / ٢٣٩ .

« محمد » من أذى ، ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بخصومة المجتمع القرشي الذى أحله مكانا مرموقا . . .

* * *

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى أمية « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، بموطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، إلى بلد ناء وقوم غرباء . . .

« ذلك أن محمدا ـــ ﷺ ـــ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . »

فكان « عثمان بن عفان » أول من هاجر إلى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة « رقية » على قرب عهدهما بالزواج[1] . . .

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب . . .

وأما « رقية » فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها مودعة ، وتعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها إلى مهاجرِه .

وتمهلت فى مسيرها إلى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغى .

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت إلى الصحراء العارية الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادى :[2]

---

(١) السيرة : ١ / ٣٤٤ والطبرى : ٢ / ٢٣١ .

(٢) ليس هذا الحداء مما نقلت ، بل رجَّعتُ فيه صدى وجدانى وأنا أتمثل رحلة المهاجرين . فمن العجيب أن إذاعات عربية اشترت من بعضهم حلقات فى نساء مسلمات ، منقولة نصا من كتبى فى سيدات بيت النبوة ، وفى حلقة السيدة رقية ، هذا الحداء ! !

الأهــل والأوطــانْ فراقهـــــم صعبُ
لكنــــــه الايمانْ فـــداؤه القـــلب
والــروحُ والأبــدانْ فليقبـــل الـــربُّ
فليقبل الـربُّ

وهز الصوت الشجى قلب « رقية » فأصغت إليه وهى ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة ما يزال يلوح من بعيد . فإذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو إليها فى عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس فى خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة راضية وقالت : الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا فى جوار البيت العتيق . . .

ثم استدبرت أحبَّ أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن « عثمان » إلى جانبها ، وأكرِمْ به صاحبا وعشيرا . . .

* * *

فى أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريثما تجمع المهاجرون الأولون فى سبيل الله ، فبلغت عدتهم بضعة عشر رجلا[1] ، فيهم من بنى عبد شمس ، آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبى سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية . . .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، أخوال رقية : الزبير بن العوام ابن خويلد . . .

ومن بنى عبد الدار بن قصى ، أبناء عم عثمان ورقية : مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . . .

---

(١) عدَّ ابن إسحاق هذا الفوج الأول عشرة : السيرة ١ / ٣٤٥ . وفى رواية أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة « الطبرى : ٣ / ٢٣١ وعند الواقدى أنهم كانوا اثنى عشر رجلا وأربع نسوة : طبقات ابن سعد ١ / ٢٠٤ .

ومن بنى زهرة ، أخوال المصطفى ﷺ : عبد الرحمن بن عوف الزهرى . . .

ومن بنى مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عمة المصطفى ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجُه « هند بنت زاد الركب ، أبى أمية بن المغيرة المخزومى » ــ خلفه عليها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد « أحد » ــ

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الإسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحى ، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمى رسوله من كيد المشركين . . .

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة فى سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوَض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والإخوان فى الدين والهجرة . رضى الله عنهم جميعا . .

* * *

رحَّبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم فى أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من إخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو وُلدوا فى مهاجَرهم . . .

وسرَّ « رقية » أن كان فيهم من بنى هاشم : ابنُ عم أبيها « جعفر بن أبى طالب » ، ومعه امرأته « أسماء بنت عميس » . . .

ومن بنى أمية ، آلِ زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العَاص بن أمية ، وأخوه خالد ، ومعهما زوجتاهما . . .

ومن بنى أسد : عبد الله بن جحش ــ ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة المصطفى ــ وأخوه عبيد الله ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، التى تزوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد سنين . . .

ومن أخوالها بنى زهرة : عامر بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة . . .

ومن بنى عامر : ثمانية نفر ، منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التى خلف عليها المصطفى ، بعد عام الحزن . . .

* * *

وأحاط المهاجرون الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا النبى عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف حال الأهل والصحابة بمكة ؟ !

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا فى سبيل الله .

وحدثوا أن « النبى » عليه الصلاة والسلام افتقد أنباء ابنته ، حتى أتت امرأة أخبرته ﷺ أنها رأت رقية وزوجها . فقال :

« منحهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله »[1] .

* * *

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمَّنهم « النجاشى » وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا . . .

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس السهمى » صوته منشدا وهو يرجو رضى الله عنه أن يُسمِع من بمكة :[2]

يا راكبا بلغنْ عنى مغلغلة   من كان يرجو بلاغ الله والدين
كلَّ امرىءٍ من عباد الله مضطهدٍ   ببطن مكة مقهورٍ ومفتون

---

(١) الاصابة : ٨ / ٨٣ .

(٢) السيرة : ١ / ٣٥٤ ، وانظر معه فى الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث .

أنَّا وجدنا بلاد الله واسعة تُنْجِى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزي في الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى إلى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال :[1]

أبت كبدى ، لا أكذبَنْكَ ، قتالهم علىّ ، وتأباه علىَّ أناملى
وكيف قتالى معشرا أدبوكم على الحق أن لا تأشبوه بباطل

وقال المهاجر « عثمان بن مظعون الجمحى » يعاتب ابن عمه وكان شريفا فى قومه :[2]

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لايواتيك ريشها وتبرى نبالاً ريشُها لك أجمعُ
وحاربت أقواما كراما أعزة وأهلكتَ أقواما بهم كنت تفرغ
ستعلم ان نابتْك يوما مُلِمَّة وأسلمك الأوباشُ ، ما كنت تصنعُ

وبلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من فزع . . .

وأطار النوم من عيونها ، أن أصحاب محمد قد أمنوا بأرض الحبشة وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكى يفسدوا ما بين النجاشي وبين المهاجرين المغتربين . . .

ووقع اختيارهم على « عبد الله بن أبى ربيعة » ـــ والد الشاعر عمر ـــ و « عمرو بن العاص بن وائل »[1] وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد ﷺ ، ومن بقى إلى جانبه من أصحابه وآله . . .

(١) السيرة : ١ / ٣٥٥ ، وشرحها فى الروض الأنف ٢ / ٨١ .

(٢) هذه رواية ابن إسحاق فى اسم مبعوثَى قريش إلى النجاشي (السيرة ١ / ٣٥٦) قابلها على : الروض الأنف (٢ / ٩١) وعيون الأثر (١ /١١٩) .

وأشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة ـــ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أميمة وبرة ، ورقية حفيدة أخيه عبد الله ـــ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشى » ويحضه على أن يحمى جواره :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفرُ وعمرو، وأعداء العدو الأقاربُ ؟
وهل نالت آفعالُ النجاشى جعفرا وأصحابَه ، أو عاق ذلك شاغبُ ؟
تعلمْ ، أبيتَ اللعن ، أنك ماجدُ كريم ، فلا يشقى لديك المُجانبُ
وأنك فيض ذو سجال غزيـرة ينال الأعادى نفعَها والأقـارب[٢]

فهزت قريش رأسها لمَّا سمعت نداءه ، وقال قائلها مستهزئا : مايبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وماذا تجدى الكلمات مع الهدايا التى حملها مبعوثا مكة إلى النجاشى وبطارقته ؟

* * *

وكان المهاجرون فى منزلهم النائى ، يرهفون أسماعهم إلى ما تناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون إليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول « عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة » إلى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر ...

ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشى ليتحدث إليهم فى أمر ذى بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ـــ ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذى أجمعوا عليه :

ـــ نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ...

وسعت المهاجرات إلى منزل رقية رضى الله عنها وعنهن ، وقد خامرهن

شيء من القلق ، فإذا لديها « أم سلمة ، هند بنت زاد الركب »[1] تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين ...

قالت :

ـــ هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا بالحبشة خير جار : أمِنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا إلى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشي فينا ، ثم يقدما إلى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا ...

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا ... وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ـــ أبصر بهم ـــ وأعلم بما عابوا عليهم ...

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومُهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ..

« فغضب النجاشي وقال : لا ها الله ! .. إذن لا أسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى

---

(١) تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد وفاة زوجها أبى سلمة المخزومى من جرح أصابه يوم أُحُد .

قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى ... »[1]

وهذا هو قد أرسل إلى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا ...

* * *

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشى ويحدثوا عما كان ...

استقبلهم النجاشى وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسأل المهاجرين : « ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ » . .

فأجاب عنهم « جعفر بن أبى طالب » :

ــ أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوىّ منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعنا على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » .

---

(١) أسنده ابن إسحاق من طريق الزهرى ، إلى أم سلمة رضى الله عنها : السيرة ٣٥٧/١ ، ومعه السمط الثمين للمحب الطبرى ٨٦ ، وعيون الأثر ١١٩/١ .

فصمت النجاشى مليا ثم سأل : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

أجاب جعفر : نعم ...

قال النجاشى : فاقرأه على ...

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم ...

قالوا : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

ــ إن هذا والذى جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة .

والتفت إلى عمرو وعبد الله ، مبعوثى قريش ، قائلا :

ــ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم ولا يُكادون ...

فانصرفا ، أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته فى دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم (يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا) .

وأما عبد الله بن أبى ربيعة ، فأخجله أن يكون النجاشى الغريب ، أبر بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يمت إليه بقربى أو رحم . . .

قال لعمرو : لا نفعل ، فان لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا . . .

ورد « عمرو » فى إصرار :

ــ والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد !

ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لغده ، وأما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشى غدرا ، وقد أجمعوا رأيهم أن يجيبوه إذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم ﷺ ، وليكن بعد ذلك ما يكون . . .

فلما أصبحوا دعاهم النجاشى وسألهم عما يقولون فى « عيسى » فأجاب جعفر :

« نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » ...

قالوا : فمد النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ـــ والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ ، هذا العود ...

ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سبَّكم غرم ـــ كررها ثلاثا ـــ وما أحب أن لى جبلا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم » ...

والتفت من بعد ذلك إلى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حتى ردّ علىَّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه »[1] .

ورجع عمرو وعبدالله إلى قريش بخفى حنين ...

وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا ...

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع إلى مكة ، وتحن إلى من تركوا بها من الأهل والأحباب ...

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على أنباء الرسول ﷺ وصحبه فى محنتهم بالمشركين . . .

ولعل السيدة « رقية » كانت من أشد المهاجرين حنينا إلى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الأحداث الشداد التى مرت بها فى صحتها ، فأسقطت جنينها الأول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والإعياء . . .

---

(١) السيرة ١/٣٦٠ وما بعدها . عيون الأثر ١/١١٩ .

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة ، أن قريشا يئست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك الذى ضربته على الهاشميين ...

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت إلى رشدها لما رأت من عجيب ثبات النبى ﷺ ، والذين معه ، فمالت فئة منها إلى الإسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه لما تستبصر من رجحان الإيمان ، فى موازين القوى . .

وقد أصغى مهاجرة الحبشة إلى هذا الذى قيل وشاع ، فهفت قلوبهم إلى العودة إلى الوطن ...

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق إلى أحب أرض وأعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا فى مهاجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش للرسول ﷺ ، وإسلام عدد منها ...

* * *

عودة إلى أم القرى

سار الركب فى طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجه السيدة« رقية » وابنهما عبد الله رضيعا ، والزبير ابن العوام ابن اخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة المصطفى ، وأبو سلمة بن عبد الأسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت أبى أمية » ، والسكران بن عمرو معه امرأته سودة بنت زمعة » .

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون أنفسهم بلقاء الأحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم فى الوطن من أنس وطمأنينة ...

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين إلى البلد العتيق ، خايلتهم

الرؤى ، وسبقتهم قلوبهم إلى الوطن إلى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة ، رأوا بأعينهم التى ما زالت بها بقية من خدَر الحلم ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب ...

وأخذت العائدين صيحاتٌ من هنا وهناك ، تعدهم بالويل والهلاك ، وصمت الحادى ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأمانى ...

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة فى جوارٍ من الوليد بن المغيرة المخزومى ، أو أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى ...

وعلى أثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الأقدس ، وعلى وجوههم نور الاستشهاد ...

* * *

وآبت « رقية » إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد ... وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ـــ أين أبى ، وأين أمى ؟ ...

أجابتا :

ـــ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ...

ثم اختلجت شفاههما فى تأوه مكتوم ...

وعادت رقية تسأل وقد أوجس قلبها خيفة : « وأمى ، أين هى ؟! »

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، وأما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية ...

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الأطراف ...

إلى أن جاء أبوها ﷺ ، فأذاب ذلك الجمود بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ما ران على قلب ابنته من أثر الصدمة . .

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها ؛ ثم أوت إلى الصدر الرحب الكريم ، وثابت إلى السكينة والصبر .

* * *

الهجـرة الثـانية

ولم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ...

هاجر أبوها ﷺ إلى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى صحبة زوجها .

وكانت قد ولدت طفلها عبد الله بن عثمان[1] ، فملأ عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها فى أمها ، وما ذاقت فى هرجتها من شجن الغربة . . .

وحسبت أنها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد ...

مات « عبد الله » صبيا فى السادسة من عمره ، بنقرة من ديك ، فترنحت رقية تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ، قيل إنها الحصبة .

وأقام « عثمان » إلى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى إذا تناهى إلى سمعه صوت داعى النبى صلى الله عليه وسلم يؤذن أنْ حىّ على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والأنصار للقاء عدوهم فى « بدر » ، ود عثمان لو يلبى الداعى الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر بأمر النبى ﷺ ، وراح يشهد معركة الموت فى أعز من له ![2]

---

(١) نسب قريش : ٢٢ والاصابة جـ ٨٣/٨ ، والاستيعاب : ١٠٣٧/٣ .

(٢) الاصابة ٨٣/٨ — وتاريخ الطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة ، والطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢

وقسا الصراع وطال ، ثم رفَّت روحها على شفتيها فى حشرجة وانية ، وعيناها على زوجها ، وغابت عن الوجود ...

ورنا إليها « عثمان » يتزود لفراق طويل ، وفى مسمعه صدى من حشرجة الموت ، مختلطا بهتاف البشرى بانتصار المسلمين فى « بدر » ...

* * *

مأتم يوم النصر

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والأسى ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبتْ على مضجع أختها تبكى ، فجعل ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه[1] ...

ولم تتمالك النساء أنفسهن ، فانسحبن من حضرته مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم من تجمل وتصبر . . وهاج نحيبهن غضبَ « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار ، لكن المصطفى الرحيم كفه عنهن قائلا :

« دعهن يا عمر ، مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »[2] ..

وصلى الأب النبى على ابنته رقية ...

وشيعت « يثرب » جثمان بنت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ذات

---

(١) الاصابة : ٨٣/٨ .

(٢) أسنده ابن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ثم عقب عليه بقوله : فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر — هو الواقدى — فقال : الثبت عندنا أن رقية توفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر . ولعل هذا الحديث فى غيرها من بناته صلى الله عليه وسلم . فان كان فى رقية وكان ثبتا فلعله أتى قبرها بعد قدومه إلى المدينة — من بدر — (الطبقات ٣٧/٨) .

الهجرتين ، حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء « بدر » رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وضرب أبوها ﷺ ، لصهره « عثمان » بسهمه وأجره ، مما أفاء الله على المسلمين فى « بدر » إذ كان إنما تخلف عن شهودها ، لمرض « رقية » الراحلة[1] رضى الله عنهما .

* * *

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٦ مع ترجمة عثمان ورقية ، رضى الله عنهما ، فى الإصابة .

(٣)

أمّ كلثوم

عليها السلام

ـ مع رقية ، فى بيت أبى لهب

ـ طلاق . . وهجرة

ـ فى بيت ذى النورين

ـ مع رقيَّة دَائمًا

ـ الرحيلُ

أراد الله بها خيرا فطلقها « عتيبة بن أبى لهب » عدو الله ، ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها أختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت أن تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه إلى الحبشة ...

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى بيت أبيهما ، ﷺ ، بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها النبى عليه الصلاة والسلام إذ يعود كل يوم إلى بيته ، وعلى كاهله الكريم العبء الثقيل ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها ، فيحطن به فى بر وحنو ، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار ، وأن يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن فيها إلى بيته وأهله ...

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع آلها فى صميم معركة الاضطهاد الأولى التى بلغت أقسى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبى طالب لابن أخيه ، وخاب سعيها لديه كى يسلمه إلى أعدائه فيبطشوا به ...

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقة علقوها فى جوف الكعبة[1] ، وخرج محمد بأهله ومن تبعه إلى شعب أبى طالب ، وانحازت إليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، إلا أبا لهب ...

وهناك عاشوا فى ضيق الحصار ، حتى إنهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل إليهم شىء إلا سرا ...

حدثوا أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى

---

(١) انظر حديث « الصحيفة فى السيرة ١/٣٧٥ وفى تاريخ الطبرى : ٢/٢٢٥ ، وعيون الأثر ١/١٢١ .

مع زوجها ﷺ وبنتيها أم كلثوم وفاطمة فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ ... والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة »[1] .

* * *

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بعد محنة الحصار بِسنين :

« لقد جُعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن ! »[2] ...

ومن عجب أن ذلك السهم الذى راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع إيمانهم مثقال ذرة ، أو يزحزحهم قيد شعرة ، عن موقفهم من نصرة النبى ﷺ ، وعاد السهم منطلقا إلى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا ! ...

ذلك أن نفرا من مشركى قريش ، روعهم الحصار الغشوم المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب ...

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير ...

حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى ــ وكان ابن أخى نضلة بن هاشم لأمه ــ كان يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى إذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل[3] ...

---

(١) السيرة : ٣٧٩/١ تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢ .

(٢) السيرة : ١٧/٢ .

(٣) السيرة : ١٤/٢ .

وذات ليلة ، خرج ﷺ إلى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه فى ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش أمها التى علت بها السن وأنهكتها الأحداث وأحست دنو أجلها ، وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة ...

وقالت تناجى ابنتها :

ــ ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فأموت قريرة العين راضية .

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ــ لا بأس عليك يا أماه !

ثم خنفتها العبرات فلم تزد ...

واستطردت الأم :

ــ أى وربى لا بأس علىَّ يا ابنتى ! .. ما من امرأة فى قريش حظيت بما حظيت به من نعمة ، بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من عزّ : حسبى من دنياى أنى زوج الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى ، وأنى أم المؤمنين ...

ثم أسبلت عينيها وهمست :

اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك ! .. اللهم إنى لا أكره لقاءك ، ولكن أطمع فى مزيد من الجهاد لأكون أهلا لما أنعمتَ علىَّ ! ..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ، ولفَّ الكونَ سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فما عاد يُسمَع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تدعو صامتة . . .

ثم ... فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ، ودخل

ﷺ بهى الطلعة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القوة والعافية ...

وأصغت « أم كلثوم » إلى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد ...

فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس . ليحدث مَن فى الشعب عما رأى هنالك وما سمع من أمر نقض الصحيفة .

مشى هشام بن عمرو ــ ذاك الذى كان يحمل المئونة إلى المحاصرين . ليلا ــ إلى زهير بن أبى أميّة المخزومى ، أخى هند أم سلمة ، بنت زاد الركب المخزومية ، فقال له :

ــ يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟ .. أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم ابن هشام ، ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه من مقاطعتهم ، ما أجابك إليه أبدا ! ..

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

ــ ويحك يا هشام ! .. فماذا أصنع ؟ .. إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ..

قال هشام : قد وجدتَ رجلا ...

فسأله : من هو ؟ ..

أجاب : أنا ...

قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا ..

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له :

ــ يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد

على ذلك موافق لقريش فيه ؟ .. أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنهم إليها منكم سراعا..

فكان جواب مطعم كجواب زهير ..

ومضى هشام بعد ذلك إلى أبى البخترى بن هشام ، فحدثه بمثل ماحدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البخترى :

ـــ وهل أجد من يعين على هذا ؟ ..

أجاب هشام :

ـــ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك ...

فطلب إليه أبو البخترى أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة ...

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخطم الحجون ـــ بأعلى مكة ـــ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ « زهير » فيكون أول من يتكلم فى مجتمع القوم ...

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

ـــ يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ .. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ...

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان فى ناحية المسجد :

ـــ كذبتَ ، والله لا تشقّ !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

ـــ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كُتِبت !

وثنى أبو البخترى :

ـــ صدق زمعة : لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نقر به ...

وأيدهما المطعم :

ـــ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ..

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقّل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ـــ هذا أمر قُضِى بلَيل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان ...

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم بمرأى من القوم ـــ وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد ـــ والتمس الصحيفة ليشقها ، فإذا الأَرَضة قد أكلتها فلم تدع منها إلا : « بِاسمك اللهم »[1] .

ووجمت قريش ، وأسقط فى يديها وأحست بالسهم الذى راشته يرتد إلى صدرها فيمزقه ...

ونهض أبو طالب يسعى إلى الشِّعب بالبشرى ، وقد ذكر ـــ وهو فى طريقه من البيت العتيق ـــ بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحريِّنا صنعُ ربنا	على نأيهم ، والله بالناس أروَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُـزقتْ	وأنْ كلَّ ما لم يرضه الله مُفسَد
تَراوَحَها إفك وسحر مجمـع	ولم يُلفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا	على ملأ ، يهدى لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم	مقاولة ، بل هـم أعـز وأمجد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا	على مهل ، إذ سائر الناس رُقَّد[2]

---

(١) انظر حديث « نقض الصحيفة » فى السيرة : ١٤/٢ : ١٦ والحوار بنصه منقول منها .

(٢) القصيدة رواها ابن اسحاق ، وعدد أبياتها ستة وعشرون ـــ السيرة : ١٧/٢ ، ١٨ .

وأيقظ صوته كل من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون بالبشرى ، وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر » ...

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال ...

وأصبحوا ساعين إلى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا إلى بيوتهم فى مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار ..

* * *

وفى بيت النبى ﷺ بمكة ، رقدت السيدة خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت روحها أن فاضت ، والنبى إلى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم[1] ...

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل ...

وفى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة عشر من المبعث ، حُملت إلى الحجون ، وهنالك أضجعها زوجها ﷺ بيديه فى حفرتها ، ثم ودعها وآب إلى بيته محزونا ، فضمَّ إليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته فى وطنه ، حتى أذن الله له فى الهجرة إلى يثرب ...

---

(١) الاصابة جـ ٨ ، والسمط الثمين ١٧ ، مع مناقبها وفضائلها ، رضى الله عنها ، فى الصحيحين .

وودع ﷺ بناته ، ثم ذهب فى ضحوة النهار إلى بيت الصديق أبى بكر فاستصحبه ...

وتلبث لحظة قبل أن يفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلَىَّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما فارقتك » ..

ومضى مع صاحبه الصدّيق فى طريقه إلى الغار ، وترك ابنتيه أم كلثوم ، وأختها فاطمة ، وحيدتين فى البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الأسى لولا رحمة الله . . .

* * *

وتثاقلت الأيام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالى مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبى ﷺ سالما إلى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها فاطمة ، وآل أبى بكر إلى دار الهجرة .

وأمضت بنتا النبى يومهما الأخير بمكة مع أختهما زينب زوج أبى العاص ، يذكرن الأمس السعيد الذى ولّى وراح ثم أغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين إلى الحجون فروين قبر الأم الطاهرة بدموعهن . . .

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها إلى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل[1] . . . .

(١) طبقات ابن سعد : ٣٨/٨ .

وألقتا نظرة وداع على مغانى مكة وما تدريان أتكون إليها عودة !

ثم اندمجتا فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنهما شجنَ الفراق أنهما ذاهبتان إلى أبيهما ﷺ فى منزله الكريم بين الأنصار !

* * *

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث ...

وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » ، كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية » يوم النصر ...

وأهلَّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة ...

وكانت « أم كلثوم » تلمح « عثمان » فى هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية ...

إلى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى ﷺ إلى بيته يستريح ، فإذا عمر بن الخطاب يسعى إليه مستثار الغضب ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان ...

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة » بعد أن مات عنها زوجها خُنيس بن حذافة السهمى رضى الله عنه ، فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم[1] ...

وسمعت « أم كلثوم » أن أباها صلى الله عليه وسلم قال لعمر ملاطفا :

ــ يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة ![2] ...

وخفق قلبها لما سمعتْ !

(١ ، ٢) الاستيعاب ١٨١١/٤ ، ١٩٥٢ ، المحب الطبرى : السمط الثمين ٨٣ .

فما من امرأة خير من بنت عمر إلا بنت النبى ﷺ ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » فى بيت عثمان ؟

وعجبت لأن أباها لم يحدثها فى هذا الأمر من قبل ، وقد عهدته لا يزوج واحدة من بناته دون أن يعرف رأيها ...

وعادت بها الذكرى إلى ماض بعيد ، يوم وقفت هى وأختها الراحلة « رقية » تصغيان إلى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب فى الزواج منهما ...

وقد عُقد الزواج ، ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، إلى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب فى وقت واحد ...

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قدر عجيب يجمع بين الأختين ، لو كُتِب لأم كلثوم أن تتزوج هى أيضا من زوج شقيقتها : عثمان ابن عفان ؟!

وبينما هى تفكر ـــ شبه حالمة ـــ فى الخيوط الخفية التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها ﷺ ...

وفى شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة تم عقد زواجها من عثمان ذى النورين[1] ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها » وخرجت إلى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذلك الذى دخلت به رقية على عثمان ....

وبعث معها أبوها ، ﷺ ، « أمّ عياش » كما بعثها مع أختها من قبل ...

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة أو منام ...

---

(١) فى ترجمته بالاستيعاب (١٠٧٩/٣) : « قيل للمهلب بن أبى صفره : لم قيل لعثمان : ذا النورين ؟ قال : لأنه لم يُعلَم أن أحدا أرسل سترا على ابنتى نبىٍّ غيره » .

ولعلها همست فى شجن : لم يبق يا رقية إلا أن ألحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! . . .

لكنها عاشت ست سنين ، رأت فيها الإسلامَ يبلغ أوج انتصاره . وشاهدت أباها المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج من غزاة إلى غزاة ، مؤيَّدًا مظفرا ، وزوجها ذو النورين معه ، صاحبا ومجاهدا بماله ونفسه :

رُوى أنه كانت « بئر دومة » بالمدينة ليهودى يبيع للمسلمين ماءها . فقال رسول الله ﷺ : « من يشترى دومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه فى دِلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟ » فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعه إلا نصفها باثنى عشر ألف درهم . فجعله عثمان للمسلمين ، واتفقا على أن يكون لليهودى يوم ولعثمان يوم ، فكان إذا جاء يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين . فلما رأى اليهودى ذلك ، قال لعثمان : أفسدتَ علىَّ ركيَتى فاشترِ النصف الآخر . فاشتراه بثمانية آلاف درهم .

وقال رسول الله ﷺ : « من يزيد فى مسجدنا ؟ » فاشترى عثمان موضع خمس سوارٍ فزاده فى المسجد[1] .

وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، خرج أبوها ﷺ على راحلته القصواء ، فى نحو ألف وأربعمائة من أصحابه ، يريدون « مكة » لقضاء العمرة ، ليس معهم سلاح إلا السيوف فى القِرَب ...

وتصدت قريش لهم ، قرب الحديبية ، تأبى أن يدخلوا مكة ...

وقال المصطفى ﷺ لصهره ذى النورين « عثمان بن عفان » : اذهب إلى قريش فأخبرهم أنّا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهَدى ننحره وننصرف .

---

(١) الاستيعاب : (١٠٣٩/٣) .

وأمسكت « أم كلثوم » قلبها ، وهى تخشى على زوجها أذى المشركين وساورها القلق ، وهى فى انتظار أوبة عثمان ، بعد أن طال غيابه ... فما راعها إلا نبأ ذاع ، أن عثمان قد قتل ...

قال النبى ﷺ لما بلغه النبأ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . ودعا المسلمين إلى « بيعة الرضوان » وفيها بايع لعثمان رضى الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال : « إنه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله ... »[1]

لكن لم يطل بأم كلثوم الحزن !

فلقد عاد « عثمان » من رحلته ، لم يصبه أذى ...

وتم صلح الحديبية ...

وكان « عثمان » ممن لم يرضوا عن شروطه ...

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه ، حلق عامة الصحابة ، وقصر نفر ، منهم « عثمان بن عفان » ![2]

وقد عز الموقف على « أم كلثوم » وهى تسمع أباها يقول : « رحم الله المحلقين ... » قالها ثلاثا ...

ولم تطمئن ابنته ، حتى قال من بعد ذلك : « والمقصرين ... » .

وعرفت كذلك أنه عُدَّ من أصحاب بيعة الرضوان وإن تغيب عنها ، إذ بعثه النبى ﷺ إلى مكة ، فى أمرٍ « لا يقوم به غيره » .

* * *

وتم النصر الأكبر ...

---

(١) ابن إسحاق عن الزهرى بسنده فى السيرة ٣٣٠/٣ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٠/٢ ، عيون الأثر ١١٨/٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٥/٢ .

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت « أم كلثوم » هذا الفتح ، كما أدركته أختها « فاطمة » ...

ورقَّ قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمهما خديجة ، وشقيقتيهما زينب ، ورقية . رضى الله عنهن . .

وأدركت كذلك ، مسيره ﷺ إلى (تبوك) فى شهر رجب من سنة تسع .

ولم يكن ﷺ يجد ما يحمل عليه أصحابه الذين لبوا داعى الجهاد وأرادوا الخروج معه ، فكان لعثمان رضى الله عليه عنه ، مثوبة أن جهز جيش العُسْرة ـــ كما سُمِّى جيش تلك الغزوة ـــ بتسعمائة وخمسين بعيرا . وأتمَّ الألف بخمسين فرسا . وفى روايةٍ أنه رضى الله عنه حمَل فى جيش العُسرة على ألف بعير وسبعين فرسا[1] .

* * *

ثم رحلت « أم كلثوم » .

ماتت فى بيت عثمان ، فى شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد ...

ووسدوها ثرى « يثرب » إلى جانب ما بقى من رفات أختها ، ووقف المصطفى ﷺ على قبر ابنته دامع العينين ، مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ...

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتم والترمل ، فلم تشهد رحيل أبيها عن الدنيا ، بعد عام واحد ، ولا المصرع الفاجع لزوجها « عثمان » يوم الدار بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجتيه اللتين جاءتا الدار بعدها : أم البنين بنت عبيدة بن حصن ، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية[2] ...

---

(١) الاستيعاب ٣ / ١٠٤٠ ، وطبقات ابن سعد : ٨ / ٣٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ونسب قريش : ١٠٢ ذخائر .

(٤)

فاطِمَة الزهْرَاء

أمّ أبيها

عليهــا الســلام

ـ أحبُّ البنات .

ـ فى دوَّامَة الأحدَاث

ـ الهِجُــرة والبَيْت الجَديد

ـ سحَابة صــيف

ـ محنَة تنجلى

ـ حلم هَنىء

ـ يقظة مروّعة

ـ التئام الشمْل

ـ تاريخ ممتَدّ

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الإسلامى كما لم تدخله أخرى من أخواتها رضى الله عنهن ، وتركتْ فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدى وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات ...

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها ، فى السنة الخامسة قبل المبعث ، بالحادث الجليل الذى ارتضتْ فيه قريش « الأمين » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة[1] ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة ...

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية وأم كلثوم » من ابنى العم عبد العزى بن عبد المطلب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة إثْر أخرى ، وأعياها — فى طفولتها الباكرة — أن تدرك حكمة هذا الزواج الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الأخت وأختها . وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالى ذات عدد ، حتى تركت أثرا عميقا فى مشاعرها الغضة وقلبها البكر ، وكان للظروف التى طرأت على البيت حينذاك ، فعلُها فى تقوية ذلك الأثر : فلقد شغل الأب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت به إلى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره إذا غاب ، وشغلت

(١) ابن سعد ، (الطبقات ١/١٤٥) عن الواقدى . وجزم به المدائنى (الإصابة ٨/١٥٧) .

الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة : وتُركت « فاطمة » شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثر فى وجدانها على مهل ...

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، علىّ بن أبى طالب ــ ذاك الذى اختاره أبوها فضمه إليه واتخذه ولدا[1] ــ أخا وزميلا ، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحيت أن تفضى إليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها ...

ثم كان الحادث الأجل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها فى عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها فى دوامة الأحداث الهائلة التى أعقبت المبعث ...

ووجدت نفسها ــ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ــ تواجه الرجّة العنيفة ، وتقف فى مهب الإعصار الذى أثارته الوثنية العاتية ، فى وجه الدين الجديد . . .

لكنها لم تأس قطّ على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلّت تمائم صباها راضية ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبى الذى اصطفاه الله رسولا ، وتعى ثقل العبء الذى يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من المصطفى الذى يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل إلا من إيمانه بالحق ، وحيدا إلا من فئة قليلة مضطهدة .

ولم تعد « فاطمة » تشعر بالوحدة التى كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربط الإسلام بينها وبين أبيها المصطفى ، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسى كل فرد

---

(١) السيرة : ٢٦٣/١ .

فى البيت المحمدى شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد ، لا يدينون بغيره ، ورب واحد ، يجثون له سجدا ، لا يشركون به إلها آخر ولا يعبدون ربًّا سواه ...

وسرها أن « علىّ بن أبى طالب » كان أحد الثلاثة الذين سبقوا إلى الإسلام ، إذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هى بنعمة الإسلام دونه ، ويترك هومكانه فى بيت سيد البشر ، ليلحق بالعصبة الكافرة التى باءت بغضب من الله ...

وودت لو يسلم شيخ الهاشميين « أبو طالب » فإنه لكما قال أبوها صلى الله عليه وسلم : « وأنت أى عمٍّ ، أحق مَن بذلتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه » ...

وودت كذلك لو يسلم أبو العاص بن الربيع ، ابن خالتها هالة ، وزوج شقيقتها العزيزة زينب . بل ودت لو يسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشريته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه عَنَتُهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبى ويصهرهم فى بوتقة الابتلاء ، وشاء تعالى ، جلَّت مشيئته ، أن يضرب رسوله المصطفى المثَل الأعلى فى قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية ...

كما آثر — سبحانه وتعالى — فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم النبيل ، فكتب لها أن تشهد محنة البلاء العظيم منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون أخواتها جميعا ، حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الأعلى . . .

وكانت لذلك كله أهلا ...

وهذه هى ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من أبيها فى قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع

أباها إذ يسعى إلى أندية قريش ومحافلها مبشرًا ونذيرًا ، ويلقى فى سبيل رسالته ما يلقى من كيد الطغاة وأذى السفهاء . . .

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم أقبل يمشى إلى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لمحه المشركون حتى وثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ — وعدوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم —

فيقول عليه الصلاة والسلام : « نعم ، أنا الذى يقول ذلك » ...

وأمسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء أبيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام أبو بكر دون رسول الله ﷺ ، وهو يقول منكرا :

« أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟ ! » .

فالتفتوا إليه وشرر الغضب يتطاير من أعينهم ، فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه إلا وقد صدعوا رأسه ![1] ...

وغادرمحمد — ﷺ — البيت الحرام ، ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه أحد من الناس ، لا حرٌّ ولا عبد ، إلا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته ، فتدثر فى فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه ...

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ، إذ هو ساجد فى الحرم ، وحوله ناس من مشركى قريش ، فجاء « عقبة بن أبى معيط » بِسَلْىِ جزورٍ ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع — ﷺ — رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلىَ ودعت على من صنع ذلك ، واذ ذاك رفع ﷺ رأسه وقال :

---

(١) السيرة : ٣١٠/١ .

« اللهم عليك الملأ من قريش ! .. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبىّ بن خلف » ...

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا أبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف إلى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة ...

ولن تمضى غير أعوام معدودات لترى فاطمة هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم أبوها صلوات الله عليه وسلامه ، صرعى مجندلين حول ماء بدر ...

وكانت هناك ، يوم خرج النبى ﷺ إلى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى : ﴿ **وأنذِرْ عشِيرَتَكَ الأقربينَ** ﴾ فجعل ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ... لا أغنى عنكم من الله شيئا ...

« يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ...

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا »[1]

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ـــ لبيك يا أحبَّ والد وأكرم داع ...

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بِجِرمها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير ، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها ﷺ ، من بين أخواتها جميعا ، بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغنى من الله شيئا عن أعز الناس عنده وأحبهم إليه وأدناهم منه ...

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببنى عبد مناف عشيرته الأقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه النبى

---

(١) حديث متفق عليه : أخرجه الشيخان من عدّة طرق : البخارى فى كتاب الوصايا ، ومسلم فى كتاب الإيمان . والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ١/٥٧ : ح ١٢٣) .

مثلا فى ذلك الموقف الجليل . فعندها إذن ، ينتهى أقصى ما يبلغه ﷺ فى العظة والاعتبار ، وإذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها ــ كائنا من كان ــ فى أن يغنى عنه أحد من الله شيئا ! ؟

وفى صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إنما فاطمة بضعة منى ، يؤذينى ما آذاها ، ويريبنى ما رابها » .

« خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » ...

« إن الله ليرضى لرضاكِ ويغضب لغضبكِ » .

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة أصغر بنات النبى ﷺ وأحبهن إليه »(١) ...

* * *

وسبق أن أشرنا إلى اتهام متعصبى المستشرقين والمفتونين ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى ﷺ ابنته فاطمة ، والزعم بأنها مرويات صُنِعت بأخَرة ، بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى والدينى ، ذا الأثر البالغ فى التاريخ الإسلامى كله ..

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« إن المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر ، حتى إذا ظهرت فكرة التشيع فى الإسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، وأخذت شهرتها تذيع وتنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث » ...

ويرد أحد الكتاب المسلمين ــ الأستاذ عمر أبو النصر ــ على هذا الزعم قائلا :

---

(١) من : كتاب المناقب فى صحيح البخارى ، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم . مع ترجمتها رضى الله عنها فى : طبقات ابن سعد ١٥/٨ والاستيعاب ١٨٩٣/٤ والإصابة ١٥٧/٨ .

« فأما عدم ذكر مؤرخي السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله ﷺ ، فمرده أن مؤرخي السيرة إنما كانوا يؤرخون للنبوة والإسلام ، ولم تكن النبوة والإسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وأنهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ إلى ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر المؤرخون من أخبارهن إلا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر »[1] .

وأوْلى منه أن يُردَّ عليهم ، بأن المرويات عما حظيت به الزهراء ، أم أبيها ، من حبه ﷺ ، وصلت إلينا فى مدونات موثقة ، لرجال الطبقات الأولى من أئمة الحفاظ وعلماء السيرة ومؤرخى عصر المبعث ، بأسانيدهم الصحيحة إلى عصر النبى ﷺ وصحابته رضى الله عنهم ...

وهذه المدونات القديمة ، قد تعاقب على خدمتها أجيال من أئمة النقاد وأعلام النظار ، فحصاً وتوثيقا وتهذيبا واستدراكا ، على أدق ضوابط المنهج النقلى للرواية : متنا وإسنادا ورجالا . ولا أحتاج فى رد هذا الزعم الباطل إلى مزيد ، اللهم إلا أن أعرض مثلا من تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين ، فى حديث الحلية التى رُوِى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فيها : « لأهبنها أحب أهلى إلَّى » ثم دفعها إلى حفيدته « أمامة بنت أبى العاص بن الربيع » فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث ، يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأحاديث والأخبار ، عن حبه ابنته فاطمة . ومن عجب أنهم حملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع إليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، واتهموا بالوضع المرويات الخاصة بالسيدة فاطمة ، مع أن المصدر واحد !

ولو أنهم كبحوا جماح هواهم لما رأوا فى حديث الحلية سوى مظهر من

---

(١) عمر أبو النصر (فاطمة بنت محمد ، ٦٠) صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

مظاهر عطفه ﷺ على حفيدته الطفلة التى خلفتها أمها الراحلة ، السيدة زينب ، ولفتة كريمة من لفتاته التى طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته ، وسنجده ﷺ فى موقف آخر ، يُهدَى حلةً من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خُمُرا بين الفواطم » فشقها « على » أربعة أخمرة ، أحدها لفاطمة بنت محمد ، والثانى لفاطمة بنت أسد بن هاشم ، زوج أبى طالب وأم بنيه على وجعفر وعقيل ، والثالثة لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبى طالب « أم هانئ » ، وفى رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبى طالب ...

* * *

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند أبيها ﷺ ؟

وهو سؤال يعرض لمن يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما رُوِى عن حب محمد لفاطمة إنما اخترعته الشيعة بعد وفاته ــ ﷺ ــ وما هذا بمستغرب منهم ، فهكذا يلتوى تاريخ الإسلام فى أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون من ضعف وهوى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الإنسانية من جهود هؤلاء الباحثين الذين نقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب فى الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا طيّب الثمر ، لو برئا مما شابهما من شوائب هذا التعصب ، وهيهات !

وأما الدارسون المخلصون ، فلا يشق عليهم أن يصلوا إلى نتائج أعمق من هذه التى التقطها القوم ارتجالا من أقرب الطرق ، كأن يربطوا بين هذا الحب للبنت الرابعة ، وما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للإناث ، فلعل المصطفى فى حبه لفاطمة ، كان متأثرا وبما يُظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث .

فمحمد ﷺ ، فى أبوته الرحيمة وإنسانيته المهذبة ، أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التى شاء لها القدر أن تجىء حيث يُظن ألا تلقى ترحابا ، وأحق بأن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس — ولو على سبيل الوهم — أنها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة ، فكيف إذن يكون موقف الأب الكريم الذى اصطُفى ليُبعث رسولا ؟ .. مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التى تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الذى قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها ..

ولنا أن نقول بعد هذا ، إن تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها ، لم تنقص حبه أخواتِها الثلاث ، ولنا أن نقول كذلك إن حظ الزهراء من حب أبيها ﷺ قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانقطاع ذريته ﷺ إلا من ولد هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له !

* * *

دخلت « فاطمة » على أمها السيدة خديجة ، تحدثها — والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها — عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم ، فإن أحدا لن يغنى عن أحد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغنى عنها أبوها النبى شيئا إذا لم تؤمن ...

وهى قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، ولَلآخرة خير وأبقى ...

مرت الأم الطيبة بيدها الحانية على جبين ابنتها الطفلة ، وهمست فى رفق :

— ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟ .. لقد نلتُ حظى من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف

أكرم زوجين ، ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشىء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا ، حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام ..

فردت فاطمة وهى تذكر أباها صلى الله عليه وسلم :

ــ اطمئنى ، فلا بأس علىَّ يا أماه ، لتطغ قريش ما شاءت لها وثنيتها أن تطغى ، ولتمضين فى اضطهادها للفئة المسلمة إلى أقسى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم باحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » أجدر بأن تحمل منه ما يكافئ ما نعمت به من بنوتها للنبى ، واستئثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه ...

* * *

واستجاب الله لها ، فامتحن إيمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروَّع بالذى يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التى كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها أثر السياط التى كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين .

وصحبت « فاطمة » أبويها إلى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت إلى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد موت أمها السيدة خديجة ، ثم هجرة أبيها إلى يثرب ، بعد أن لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى أثره هاجر « على » ابن العم أبى طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام فى مكة ، ريثما أدى عن النبى المهاجر ، الودائع التى كانت عنده للناس[1] ...

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما إلى

---

(١) السيرة ١٢٩/٢ .

يثرب ، وأغلقت دارُ المصطفى بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها هجرةً ، ليس فيها ساكن ...

ولم تمر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللئام من مشركى قريش ، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصى » ـــ وكان ممن يؤذى أباهما النبى بمكة ـــ بإثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض[1] ...

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحداث الجسام التى لقيتها قبل أن تمتلىء شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك أثره فى صحتها وإن زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، إلى أن بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمرّ السنوات وأبوها ﷺ لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه فى العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد إلى أمرائه أن يقتلوهم وإن وجِدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان على بن أبى طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويزث ، وقد فعل ![2] ...

* * *

كان ﷺ قد شرع فى بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله إلى دار الهجرة ، ونزل ﷺ ريثما يتم البناء ، فى دار أبى أيوب الأنصارى . وهى الدار التى صارت من بعده إلى مولاه « أفلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة .

---

(١) السيرة : ٥٢/٤ .

(٢) السيرة ٥٢/٤ ـــ وتاريخ الطبرى ، حوادث السنة الثامنة للهجرة .

وكان ﷺ يعمل فى بناء مسجده وبيته الجديد ، مما حفز همة المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا يتنافسون على العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعمـلُ
لَذاك منا العملُ المضلـلُ

فيجيبه الأصحاب :

لا عيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الأنصار والمهاجره !

ورُئِىَ المصطفى يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمّار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبنِ ..

وسُمع على بن أبى طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعـدا
ومن يُرَى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء ...

و لم يكن البيت الجديد قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل كان حجرات بدوية مفتوحة على فناء المسجد النبوى ، بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد . . .

وأما ارتفاعها فيقول الحسن بن على ، سبط النبى وابن بنته الزهراء : كنت أدخل بيوت النبى ﷺ وأنا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى .

وفى صحيح البخارى ، أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يُقرع بالأظافر — يعنى : لا حلق له !

وأما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ قِلَّةً وخشونة وتواضعا ، وكان سريره ﷺ ، خشبات مشدودة بالليف .

إلى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها ﷺ فى أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى ﷺ بين الأنصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ، ويشد بعضهم أزر بعض ... .

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها ﷺ يقف فى أصحابه فيقول :

« تآخوا فى الله أخوين أخوين » ...

ثم يأخذ بيد على بن أبى طالب ويقول :

« هذا أخى »[1] ...

ويختار لعمه جعفر ـــ وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة ـــ معاذ بن جبل الأنصارى ، ولأبى بكر الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجى ، ولعمر بن الخطاب ، عتبان بن مالك العوفى ، ولأبى عبيدة بن الجراح ، سعد بن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة ...

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن أبى طالب بسيد البشر أخا ! ...

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لأخيه النبى عليه الصلاة والسلام ، وزوجا لأحب بناته إليه ...

* * *

كانت « فاطمة » وقتئذٍ قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا أختها الحبيبة « زينب » من بيت أبويها ، وزفوها إلى دار أبى العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة فى عامها الرابع ...

ولقد مضت الأعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها

(١) السيرة : ٢ / ١٥٠ والاستيعاب ٣ / ١٠٩٨ ، والمحبر ٧٠ .

فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى بلته كل أنثى قبلها : من حواء ، إلى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، سلام الله عليهن . .

وكانت إلى ذلك كله ، تحس ابن العم « على بن أبى طالب » قريبا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها ﷺ وفى نفسه أمر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه . على أن « فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهى تحس بإلهام فطرتها ووحى قلبها ، أن « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب فى سواها من بنات المسلمين ..

وكذلك هى : لم تشعر فى عالمها النفسى بمن هو أقرب إليها من « على » وأعز موضعا ، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه إلى الاسلام أو أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقته دون الرّجال جميعا ، مؤثرة مكانها إلى جانب أبيها الحبيب ، متشبثة بموضعها فى بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » ــ رضى الله عنها ــ وهى ترى نفسها ربة هذا البيت التى تحمل عبء إدارته ، وخليفة الأم الراحلة فى الوقوف إلى جانب المصطفى المجاهد ، تهيئ له راحة وسكنا ، وقد بلغت فى ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجلّ كنية : « أم أبيها » .

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز ، موضعا سواه !

لكن إلى متى ؟

هذا ما لم تفكر فيه الزهراء ، رضى الله عنها ، أو لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تثقل على حاضرها بما يحتمل أن يأتى به الغد المجهول .

---

(١) السيرة : ٢٦٢/١ وانظر معها ترجمة الإمام على كرم الله وجهه ، فى الاستيعاب والإصابة ، وكتاب المناقب فى الصحيحين .

حتى دخلت « عائشة بنت أبى بكر » فى حياة محمد — ﷺ — زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة ، لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !

ولا أستبعد أن تكون الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زُفت « عائشة » إلى المصطفى ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، وأخذت مكانها فى داره ودنياه ، ولعل الزهراء بكت أمَّها أحر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها — الذى تؤثره على نفسها — فى عروسه اللطيفة ، ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ أربع سنوات . .

* * *

وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحد من قومه ، فهو ﷺ قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت إليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! » ..

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر[1] ...

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبى من تسكن إليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يجده من محنة الصد عن البيت العتيق ، وقسوة الاضطهاد من قومه وعشيرته .

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة — كما لم يشعر سواها — أن الفراغ فى حياة أبيها زوجا ، ظل كما كان قبل أن تجىء سودة

---

(١) انظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة ، فى كتابى « نساء النبى » ﷺ .

بنت زمعة . فإن المصطفى لم يتزوجها إلا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهاجَرهما فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن قواها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف ...

ولم يغب عن الزهراء ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الأول ، دون أن تشعر بأن وجود « سودة » يغنى عنها ...

وأما حين جاءت « عائشة » فالأمر جد مختلف !

فلا عجب أن لم يمض على دخولها بيت النبى أربعة أشهر حتى كانت « الزهراء » فى طريقها إلى بيت على بن أبى طالب[١] ...

* * *

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصة مواتية مسعفة ، يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها إلى بيت الزوجية ...

وطال انتظاره بضع سنين ، حتى إذا دخل ﷺ بعائشة الحبيبة ، خامر « عليا » الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لا يدرى بم يمهرها وليس فى يده مال ، ثم زاد إحجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر — رضى الله عنهما — قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها ﷺ فى رفق بالغ[٢] ...

وشعر خاصة أصحاب « على » بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده ، ومكانة أبويه من قبله : والده

---

(١) الاستيعاب : ١٨٩٣/٤ ، والإصابة ١٥٧/٨ .
(٢) طبقات ابن سعد : ١٩/٨ وسنن النسائى : ٢٦ ك / النكاح .

أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، أول هاشمية وَلَدَتْ لهاشمى[1] ...

قال « على » يائسا : « بعد أبى بكر وعمر ؟ »

أجابوه :

— ولم لا ؟ .. ووالله ما بين المسلمين — وفيهم أبو بكر وعمر — من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته أمك ، ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته ، وكنت أسبق فتى إلى الاسلام .

وتشجع « على » وأخذ طريقه إلى ابن عمه ، حتى إذا جاءه حيَّاه بتحية الإسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته ...

وأدرك ﷺ أن أخاه وابن عمه وصاحبه ، جاء لأمر لا يقوى على الإفصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله فى تلطف :

— ما حاجة ابن أبى طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

— ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ...

قال صلى الله عليه وسلم ، وما يزال على بشْره وتلطفه : « مرحبًا وأهلا ! »[2] .

أو قال فى رواية : « هى لكَ يا علىّ »[3] .

ثم أمسك لا يزيد ...

وطال صمته ، فانصرف « على » حائرا قلقا ، لا يدرى بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا فى انتظاره ، يترقبون عودته بكلمة أبى الزهراء .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٩/٨ ، نسب قريش ٤٠ ، والاستيعاب ١٨٩١/٤ وهى إحدى الفواطم الاربع التى آثرهن الرسول ﷺ بهدية جاءته . مع (طبقات ابن سعد : ١٩/٨) .

(٢ – ٣) طبقات ابن سعد : ٢١/٨ ، ١٩/٨ .

فلما ألحوا عليه ، قال : « ما أدرى والله شيئا : تحدثت إلى رسول الله ﷺ بالأمر ، فما زاد على قوله : « مرحبا وأهلا ! » .

هتفوا جميعا : « يكفيك من رسول الله إحداهما ! » .

ثم تركوه مستجد الأمل ، حتّى الرجاء . . .

* * *

وأقبل فى اليوم التالى فوقف غيرَ بعيد من المصطفى ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :

« أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته ، فقلت : والله ما لى من شيء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه » .

التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

ــ وهل عندك شيء ؟

أجاب على : « لا ، يا رسول الله ... »

لكن المصطفى ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ »

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ﷺ ورعايته :

ــ هى عندى يا رسول الله ...

قال عليه الصلاة والسلام : « فأعطها إياها ... »[1]

فانطلق« على » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها[2] ...

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢٠/٨ من طريق ابن عيينة ، وغيره .

(٢) صحيح البخارى : كتاب البيوع . ومسند أحمد ١٤٢/١ .

وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما ، حملها « على » ووضعها أمام المصطفى ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى « بلال » ليشترى ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقى إلى « أم سلمة » لتشترى جهاز العروس[1] ...

ودعا المصطفى صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على السُّنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة . ثم قدم إلى الضيوف وعاء فيه تمر[2] .

* * *

على هذا النحو من التواضع ، تمت خطبة الزهراء بنت النبى لابن عمه على ، « وعُقِدتْ أخطرُ مصاهرة عرفها الإسلام فى تاريخه الحافل الطويل .. »

تمَّ عقد النكاح فى شهر رجب من مقدمهم إلى المدينة المنورة ، فلما أهلَّ فى السنة الثانية مرجعهم من بدر ، كان « على » قد وفق إلى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء بعد تجهيزها « وما كان حشو فراشهما ووسائدهما إلا الليف ، ولقد أولم علىّ على فاطمة ، فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمة علىّ : رهن درعه عند يهودى بشطر من شعير[3] » .

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة — عم محمد ، وعلى — بشارفين فنحرهما وأطعم الناس . (الإصابة ، من الصحيحين) ..

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين ، ودعا المصطفى « أم سلمة » فطلب اليها أن تمضى بالعروس إلى بيت على ، ولينتظراه هناك ..

---

(١) مسند أحمد : ٩٣/١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ وسنن النسائى : كتاب النكاح باب ٨١ .

(٢) الإصابة : ١٥٨/٨ .

(٣) من حديث أسماء بنت عميس رضى الله عنها ، فى الطبقات الكبرى ٢٣/٨ .

وأذن « بلال » لصلاة العشاء فصلى النبى بالمسلمين فى المسجد ، ثم مشى إلى دار على ، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم ثم أمر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباق ونثره على رأسيهما[1] ، وهمَّ بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

« اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما » وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لابنته : « يا فاطمة ، أما إنى ما آليت أن أنكحتك خير أهلى »[2] .

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الأمر بأنه إنما تركها وديعة عند أقوى الناس إيمانا وأكثرهم علما وأفضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا ..[3] .

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الأولى ، ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم ...

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التى شاء سبحانه أن تنحصر فى ثمرها ذرية نبيه المصطفى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

* * *

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجته ثمانية عشر عاما[4] ، ولكن الهوى جمح بالمستشرق « لامانس » فخيل إليه أنها كانت أسنَّ من ذلك بكثير ، « وإنما

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٥/٨ والاستيعاب والإصابة .
(٢) ابن سعد : ٢٤/٨ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١٦/٣ والاستيعاب والإصابة .
(٤) انظر المحبر ، لابن حبيب : ٥٣) .

عمد بعض كتَّاب السيرة إلى تأخير ميلادها ، كيلا يقال إنها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها إلى أن فاتت سن الشباب » ..

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كتَّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ .. لِم لَم يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا إلى الأخرى عشر سنين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟ .. أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ...

و « لامانس » — فيما أرجح — قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله إلى أبعد حد فى إرضاء هواه ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد ، يضع أصبعه على قول نقله « المسعودى » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبى » بأنها ولدت بعد نزول الوحى . يضع « لامانس » إصبعه على هذا القول أو ذاك ، فيجزم بتأخير تاريخ ميلادها ، متجاهلا أقوال الجمهرة من الثقات الذين عليهم المعتمد فى هذا الشأن ، كابن إسحاق ، وابن سعد ، والطبرى ، وابن عبد البر ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين .

* * *

والخلاف — كما قلنا آنفا — يسير الشأن ، لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من بعض خلاف ، وبخاصة فى سنة مولده ، إذ المألوف ألا تتجه العناية إلى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء ، لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيِّىء التأويل ..

وما أظن « لامانس » بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » إمام كُتاب السيرة ومن أقربهم عهدا بزمن المبعث ، وهو لم يذكر فى مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر

عليه : السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ﷺ ولدن جميعا قبل أن يبعث ﷺ ، وهذا القول أغفله « لامانس » كما أغفل معه أقوال الأئمة من حفاظ الحديث والثقات من المؤرخين والعلماء بالصحابة ، ليتمسك برواية المسعودى ، حتى إذا استغلها ما شاء له التعصب فى الزعم بأن كتّاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكى ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فنقضها برواية « اليعقوبى » التى تقول بولادة الزهراء بعد المبعث ! ...

* * *

إلى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا إلى ما شاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة . . . فسن الثامنة عشرة متأخرة إذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى أبعد تأخرا إذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الأمين الطاهرة ، وهى أخت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبها بأبيها فى الخلقة والسَّمْت ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وإنما عرف القوم زهد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها إلى جانب أبيها ﷺ ، وقدروا موضعها من البيت المحمدى وحاجته إليها بعد وفاة أمها رضى الله عنهما .

ثم ، لم لا نقول — إذا لم يكف كل ما قدمنا — إن تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟ .. لقد بعث أبوها ﷺ ، وهى وحدها التى لم تتزوج ، إذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : إما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر فى مصاهرته — وقد علمنا ما كان من سعى قريش إلى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث إليه كى يشغلوه بهن — وإما مسلم يؤمن بنبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم

وإلى أى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والأرواح ، فغير مستغرب ألا يروا أنفسهم كفئا لمصاهرته ، وأن يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » إجلالا وتهيبا .

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى فى نفسه كفئا لرقية ، فهو على موضعه فى قريش بعامة ، ثراء وشرفا وجاها ، إنما طمع فى الزواج من بنت النبى ﷺ ، بعد أن طلقها ابن أبى لهب كيدا وحقدا ، وليس الأمر كذلك مع الزهراء ...

ونحن ــ حتى يومنا هذا ــ نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن فى انتظار الأكفاء وهم عادة القلة ، إذ القاعدة المطردة أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قلَّ أكفاؤها ...

ولم يكن « على » مع ذاك أول من طمع فى الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى إلى ذلك الشرف قبله ، صاحبا الرسول أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذرى » فى « أنساب الأشراف » ، وابن سعد فى طبقاته[1] ، والنسائى فى سننه[1] ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم ردا كريما ...

ويأبى « لامانس » بعد ذلك كله إلا أن يعلل الزهد المزعوم فى « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!)

* * *

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب إلى أن توصف بالخشونة والتقشف ، وهى فى ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتى أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت « زينب » من أبى العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من

---

(١) جـ ٨ ص ١١ .

(٢) كتاب النكاح ، الباب السابع .

ابنى « عبد العزى بن عبد المطلب » ذى المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » وأما « على بن أبى طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث ، إذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن أخيه محمدا إلى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبى طالب ، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب « على » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم ..

وبُعث « محمد » ﷺ رسولا ، فكان « على » أول من آمن به صبيا ، إذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق[1] وهكذا اشترك « علىّ » فى الجهاد بمجرد أن شب عن الطوق ، وشُغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة النبى ﷺ وهو يواجه طواغيت المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الأشراف فى مكة ، وسبيل الثراء بالوادى الأجرد غير ذى الزرع ، فلا عجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم « بدر » التى أبلى فيها « على » خير البلاء[2] .

ولم يغب شىء من ذاك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها ﷺ طلب « على » يدها ، ولو صح ما رواه « البلاذرى » أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها المصطفى يزكيه :

« إنه سيد فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم إسلاما » ...[3]

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة فى مثل هذا الموقف ،

---

(١) السيرة : ٦٢/١ .

(٢) السيرة ٣٧٢/٢ .

(٣) انظر معه فى ترجمتها بالاستيعاب ، ما رواه ابن السراج بسنده الى عمران بن حصين (١٨٩٥/٤) .

لكن « لامانس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام علىّ كرم الله وجهه ، حتى إذا أحس أن الفقر لا يمكن أن يعاب به الإمام ، وقد نشأ النبى ﷺ يتيما فقيرا — راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، وأخذ يبدى ويعيد عن ضآلة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! ... ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه فى أن شخصية فاطمة رُسِمَتْ بأخرة ، وأضيفت إليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذى ينقله من روايات عن الإمام على ؟ .. أقول : لو راجع نفسه ، لاستوقفه هنا أن مؤرخى الاسلام لم يضيفوا إلى إمام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال « لامانس » ، بل إنهم — بشهادته — قد ذكروا أنه كرّم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الأنف دقيق الذراعين » دون أن يجدوا فى ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال ! ..[1]

* * *

ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل فى عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ما كانت تجده من شظف العيش ، أو يجىء فى جهازها بفراش وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة أدم حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وجرَّتين ، وشىء من العطر والطيب ...[2]

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها — رضى الله عنها — أن تنفرد بهذا العبء الثقيل[3] ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة

(١) انظر مناقب الإمام على رضى الله عنه فى صحيح البخارى : كتاب المناقب . وباب فضائله من كتاب الفضائل فى صحيح مسلم . و (مجمع الزوائد للهيثمى ، المجلد التاسع) .

(٢) صحيح البخارى ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم ك ٤٨/٨٠ ، والإصابة ١٦٠/٨ .

(٣) طبقات ابن سعد ١٥٩/٨ ، والإصابة ٢٥/٨ من طريقه .

مجهدة ، فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، إذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقى لها من قوة جسدية ، بعد الذى كابدته ــ منذ عامها الخامس ــ من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد ...

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتظر كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها صلى الله عليه وسلم عاد من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

ــ لقد شقوتِ يا فاطمة حتى أسليت صدرى ، وقد جاء الله بسبى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك ...

أجابته وهى تنحى الرحى جانبا فى تعب وكلال : أفعل إن شاء الله ...

ثم لبثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة وقامت فتلفعت بخمارها تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها ﷺ هش لها وسأل :

ــ ما بِك يا بنية ؟

قالت : « جئت لأسلم عليك ! » ...

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله ...

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها تحرجت من أن تطلب من أبيها شيئا ، فقام كرم الله وجهه وصحبها إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وتولى عنهاالسؤال وهى مطرقة من استحياء ...

قال ، عليه الصلاة والسلام :

« لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن . » . .

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الرحيم ، وشغلته نهاره كله ! ...

وجن الليل وكان البرد قاسيا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان إليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، فإذا بالباب يفتح « ويقبل عليهما المصطفى وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين ، إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، وإذا عطيا أقدامهما انكشفت رأساهما » . فهبَّا للقاء الضيف الكريم ، لكنه ﷺ ابتدرهما قائلا : « مكانكما » .

ثم أضاف فى رفق وهو يقدر حالهما : « ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ » .

أجابا معا : « بلى يارسول الله ... »

قال : « كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان دبرَ كلِّ صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا أويتما إلى فراشكما ، تسبحان ثلاثة وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين » . . .[1]

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهى ، ولقنهما هذه الرياضة تغلب المصاعب وتخفف المتاعب ...

ولقد سُمِعَ « الإمام على » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات النبى ﷺ ويقول : « فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! »[1] .

سأله رجل من العراقيين : « ولا ليلة صفين ؟ »

فردّ مؤكدًا : « ولا ليلة صفين ! »[2]

* * *

وتأبى سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا تؤثر هذه الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله عنها فى صميم

---

(١) متفق عليه من حديث الإمام على كرم الله وجهه . والنقل من (اللؤلؤ : ك الذكر والدعاء ، ١٧٣٩) وقوبل على رواية ابن سعد فى الطبقات (٢٥/٨) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ٢٠٩١/٤ ، ورواه ابن سعد ، فى طبقاته (١٩٥/٨) بلفظ مقارب والإصابة ١٥٩/٨ من طريقه .

المعركة منذ طفولتها ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا . وكانت إلى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها ﷺ ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها فى غزواته ومشاهده . وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » إذ رُئِيَتْ هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء ..

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوى ، وهى ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفى على بيت زوجها إشراقا وتبث فيه حيوية وأنسا ، وتلقى البطل إذ يعود إلى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها الذكية ومرحها الحلو ...

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التى كانت تغشاه لفرط نزوعها إلى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت ولقى أهلها والمسلمون من محن وبلاء ، لكنما أعوزها — لكى تنجح فى محاولتها هذه — أن تجد إلى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة أقرب إلى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، ولئن كانت رضى الله عنها فى حاجة إلى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت فى مستهل صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، لقد كان « على » كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة إلى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التى تنفض عنه غبار المعارك التى خاضها منذ كان صبيا ...

فليس يروعنا إذن ، ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سمع الأب المصطفى ﷺ فيهتم ويحاول جهده أن يروضهما على مزيد من الاحتمال ..

حدثوا أنه ﷺ ، رئى ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته فاطمة ، لا يخفى ما يظهر عليه من الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

« وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىَّ ؟ »[1]

وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلابته ، فقالت له :

« والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ » ...

وخرجت ، و « على » فى أثرها ، حتى جاءت أباها فشكت إليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الأب النبيل فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله ...

قال « على » كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته إلى بيتها :

ـــ والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا ![2]

* * *

لكنه كاد أن يأتى ـــ غير متعمد ـــ شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أقسى الألم ...

وأى شيء أبغض إلى الزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة ! ؟

لقد همَّ « على » بالزواج على الزهراء ، وفى حسابه أنه لا حرج عليه من حلال مباح شرعا ، وأنه يجوز على بنات النبى ﷺ ما يجوز على سائر المسلمات فيما أحله الشرع للمسلمين من تعدد الأزواج . ولعله توقع أن

(١-٢) طبقات ابن سعد : ٢٦/٨ ، والإصابة (١٦٠/٨) من طريقه .

لا يُلام على ابتلاء الزهراء بضرة لها ، فلها أسوة بعائشة بنت الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم سلمة بنت زاد الركب . . . ولقد قال النبى عليه الصلاة والسلام ، فى المرأة المخزومية التى سرقت واستشفع له قومها بحِبِّه أسامة بن زيد بن حارثة :

« أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ ! » ثم خطب الناس فقال : « إنما أهْلَكَ الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا علَيه الحد . وايمُ الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعتُ يدها »[1]

* * *

لكن الأمر جرى على غير ما توقع « علىّ » كرم الله وجهه .

لم يكد يبدى رغبته فى خطبة بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، على السيدة فاطمة الزهراء ، حتى غضبت رضى الله عنها وغضب لها أبوها ، عليه الصلاة والسلام . وكان الموقف بالغ الدقة والحرج :

فالنبى عليه الصلاة والسلام يعلم حق « على » فى الزواج ولو على فاطمة بنت محمد ...

ومحمد ، فى أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تروَّع أحبُّ بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية ، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها .

ألا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجاً ، مدى ربع قرن من الزمان ! .. إذن لأعفى الأب النبى من الموقف الصعب ..

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، ومسلم فى كتاب الحدود ، والنقل من (اللؤلؤ والمرجان ٢/٢١٤ : ح ١١٠٠) .

وإنى لأتمثله ﷺ ، يرنو إلى بنته الغالية وهى تترقب البلاء فى خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها وقلقها ، تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره ، وأن يحميها من الخوف الذى يقرح أجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق لياليها ، لكن هل يحرم النّبى ما أحلَّ الله ؟ ..

كلا ! لكن للقضية وجها آخر : إن عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدو الله ؟

أبوها « عمرو أبو الحكم بن هشام » هو « أبو جهل » الذى لم ينس النبى والذين آمنوا معه ، ما لقوا من شدة وطأته وفحش عداوته للإسلام .

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يا معشر قريش ، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فضختُ به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم »[1] ...

وهو القائل مستهزئا بالنبى عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها ، تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه :

﴿ وما جعلنا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جعلنَا عِدَّتهم إلاَّ فتنةً لِلذينَ كفروا ﴾ الآية ٣١ / المدثر[1] ...

ثم هو القائل للأخنس بن شريق ، حين سأله رأيه فيما سمعه من القرآن : « ماذا سمعت ؟ .. تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ،

(١) السيرة : ٣١٩/١ .

(٢) والسيرة : ٣٣٣/١ ، ٣٣٥ .

وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! .. فمتى ندرك هذه ؟ .. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .. »

وهو هو الذى كان إذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، أنَّبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ .. لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وإن كان الذى أسلم تاجرا ، قال : « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به ...

وهو هو ، الذى لقى « حكيم بن حزام بن خويلد » يحمل طعاما يريد به عمته خديجة رضى الله عنها ، فى محنة الحصار ، فتعلق به اللعين وقال : « أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ .. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه ...

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم * كالمُهْلِ يغلى فِى البطون * كغَلْيِ الحميم !** »[1] ...

وهو هو الذى اعترض وفدا من نصارى نجران جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره ، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به ، فلقيهم أبو جهل إثر انصرافهم فقال لهم : « خيَّبكم الله من ركب ! .. بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ؟ ! .. ما نعلم ركبا أحمق منكم ! »[2] ...

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا

(١، ٢) السيرة : ٢/٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ .

جليدا نسيبا ، ثم يُعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعا[1] ...

فلما هاجر ﷺ ، غدا القوم وفيهم أبو جهل ، فوقفوا بباب أبى بكر ، فخرجت إليهم بنته أسماء فقالوا لها :

ـــ أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ ..

أجابت : « لا أدرى والله أين أبى .. »

فرفع « أبو جهل » يده ـــ وكان فاحشا خبيثا ـــ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها ...

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع إليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد إلى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيما » أن يذهب إلى أبى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى إلا القتال ! ..

وكان أحد سبعةٍ ، سُمع النبى ﷺ ، يدعو عليهم يوم بدر .

وظل ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ يقول لأصحابه : اطلبوه .

وقُتل كافرا ملعونا ، وجىء برأسه إلى « محمد » فحمد الله ! ..[1]

واستبقى عليه الصلاة والسلام ، جملَ أبى جهل ، حتى إذا توجه إلى مكة معتمرا بعد أربع سنوات ، ساق الجمل هديا ، ونحره عام الحديبية[2] ...

....

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبى ؟ ..

يأبى الله ورسوله ذلك .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٥ ، ١٧ .

(٢) السيرة الهشامية : ٣ / ٣٣٤ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٦٩ .

خرج ﷺ إلى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب الناس فقال :

« إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فان ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها » ...

ثم ذكر ﷺ صهره أبا العاص — وهو من بنى عبد شمس ، لا من بنى عبد المطلب كعلي — فأثنى عليه فى مصاهرته إياه أحسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدا »[1] .

ولقد ورد هذا الحديث فى الكتب الستة الأمهات ومسند أحمد بن حنبل ، ولكن أحدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة .

فهل يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمّن على قول النبى ﷺ ، وترى فيه آية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى شاء الله أن يملأ به قلب النبى المختار ، فى بيئة وأدت بناتها ؟! ..

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من المسجد إثر سماعه خطبة صهره النبى عليه الصلاة والسلام ، ويأخذ طريقه إلى بيته بطىء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان ؟! ..

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الإسلام ؟ ..

كيف هان عليه — مع جهاده الطويل الباسل المشهود فى سبيل الدعوة

---

(١) متفق عليه من حديث الزهرى عن المسور بن مخرمة ، مرفوعا (والنقل من اللؤلؤ والمرجان : فضائلها رضى الله عنها . ح ١٥٩١) وسنن أبى داود « كتاب ١٢ » وسنن الترمذى « كتاب ٤٦ » وسنن ابن ماجه : ٥٦/٩ ومسند أحمد : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٨ .

المحمدية ـــ .. أن يُروِّع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج مثل هذا مِظنَّة أن يؤوَّل بالرغبة عنها إلى سواها ؟ ..

لقد كان لزواج المصطفى ﷺ من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، وإلا فما باله ﷺ ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها حتى ماتت وهو فى الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟ ..

ألا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره ، وأما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده المشهود ، فيستبدل بالنبى ﷺ ، أبا جهل بن هشام صهرا ! .. وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه ، فى أحب بناته إليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع ، قبل إسلامه ، أبر منه ببنت محمد ، ابن عمه عبدالله بن عبد المطلب ، ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماما ! ..

* * *

وينتهى به المسرى إلى البيت ، حيث يجد « الزهراء » فى وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه إلى جانبها صامتا لا يدرى ماذا يقول ...

وإذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

ـــ هبينى أخطأتُ فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة....

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب : « غفر الله لك يا ابن العم » .

فأقبل عليها مترفقا ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها شعوره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وإنكاره أن يتزوج « على » من بنت أبى جهل مع الزهراء ، وقسَمِه صلى الله عليه وسلم ، ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدا ! . .

واغرورقت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة ! ..

* * *

وبقى سؤال ذو بال :

متى همَّ « على » بالزواج على الزهراء أم أبيها ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا إلى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكنا نطمئن إلى أنها كانت فى الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وإنما يوجه إليه فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعلىّ فى مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يُرُضْ هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول ! ...

وبهذا الاطمئنان ، نميل إلى توقيت الحادثة على وجه التقريب — والله أعلم — بالعام الثانى من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ...

* * *

انقشعت السحابة التى ظللت أفق « الزهراء » حينا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلىٌّ إلى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح فى جو « المدينة » الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شىء من اللين واليسر ..

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وأعين آل البيت ، فوضعت بكرها « الحسن بن على » فى السنة الثالثة من الهجرة[1] ، وسعى البشير إلى أبيها ﷺ بالنبأ السعيد ، فخف إليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الأذان فى مسمعه ، ثم أقبل عليه يتأمله فى غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام ! ..

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده ﷺ على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة فى هذه الفلذة الغالية منه ، فلما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقة « الحسين » فى شهر شعبان سنة أربع من الهجرة[2] ...

وتفتح قلب النبى لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التى يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى الله عنها ...

كان ﷺ ، وقتئذ ــ فى العام الرابع الهجرى ــ فى نحو السابعة والخمسين ، وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع سنين ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الأرملة ، وعائشة بنت أبى بكر الصبية البِكر ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ، وقد دخل بها فى شوال من السنة الرابعة للهجرة ، وكان لها بنون وبنات من زوجها الأول ، « عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة المصطفى برة بنت عبد المطلب » . ومع ذلك ، لم يرزق النبى بولد من إحدى هاتيك الزوجات

(١ ، ٢) طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة : ترجمتا الحسن والحسين ، رضى الله عنهما وانظرهما فى كتاب المناقب ، من صحيح البخارى ، والفضائل من صحيح مسلم .

الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، إلا أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء » ..

فلا عجب أن أقبل ﷺ على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء ..

كما لا عجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه ﷺ « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعِى لى ابنَّى ... فإذا ما جاءا إليه شمَّهما وضمهما » ..

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « أسامة بن زيد رضى الله عنهما » قال :

«طرقت باب النبى ﷺ فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ فكشفه ، فإذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما »[1] .

وكان اسماهما ــ رضى الله عنهما ــ نغمة حلوة فى فم أبى الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد أنسه ومَسْلَاته عمن فقد من الأبناء . .

* * *

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ...

كما كرم الله وجه « على » فجعل فى صلبه نسل خاتم الأنبياء ، فكان له من هذا الشرف عز الأبد . . .

---

(١) وانظر مناقبهما فى (اللؤلؤ والمرجان ، ك الفضائل ، ح ١٥٦٨ ، ١٥٦٩) ..

وعليّ ، أقرب أصهاره إليه مكانا وأمسهم رحما . فى عروقه يجرى الدم الهاشمى النقى ، وعند عبدالمطلب يلتقى نسبه بنسب المصطفى ، فكلاهما له حفيد . . .

وقد كان لمحمد عند أبى طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى إذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم إليه عليا ابن العم أبى طالب ، وأنزله من بيته وفى قلبه منزلة الولد .

وكان « على » يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها إلى حد جعله يسأل المصطفى ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

ــ أيهما أحب إلى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها على ؟ ..

قال ﷺ متلطفا : « فاطمة أحب إلّى منك ، وأنت أعز علّى منها ! »

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، ما نستطيع معه أن نتمثله ﷺ وهو يرنو إلى بيت صهره « على » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فإذا وجد من وقته سعة ، عرَّج على دار الأحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على سِبطيه فيضا من حنانه !

وحدث فى إحدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل أسرع إلى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى « الحسن » من لبنها حتى ارتوى ! ..

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا : « أوَ ما علمتِ أن بكاءه يؤذينى ؟ .. »

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الأبوى من أثر بعيد عميق فى إسعاد « فاطمة » التى أرهقها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شابة ، كما لا أصف هنا مدى ما بعث فى حياتها الزوجية التى عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وأنس وإشراق . فلقد أسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها ﷺ ، وأرضاها أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيِّىء لأبيها الحبيب — بعد أن انتقلت من بيته — هذه المتعة الطيبة التى يجدها فى سبطيه الغاليين ...

ولم يكن على — كرم الله وجهه — أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل أعزّه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبى هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبى الزكى ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبى ، وآل بيته الأكرمين ...

* * *

وتوالى الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى فى العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التى لم ينسها أبوها ، ولا نسيتها أختها « فاطمة » قط ! ..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » طفلة ثانية اختار لها ﷺ اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين ! ..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيى بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتى النبى ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عَزَّ الولد ..

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من نعمة الأبوة ، فلم يفجعه فى الزهراء ولا فى أحد بنيها حتى لحق — ﷺ — بالرفيق الأعلى ...

لقد مات ولداه « القاسم وعبد الله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر ولدَه الثالث « ابراهيم » فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عيناه ﷺ ، لكن الفرحة لم تتم ، إذ ما لبث الهلال أن غرب ، وثكل النبى ﷺ ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثانى ، وأبوه المصطفى قد جاوز الستين من عمره . . .

كذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الأخرى ، فى ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » ...

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنياه بهجة وأنسا وحيوية ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها إلا هذه البنت الحبيبة ، تعوض أباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ...

عاشت « الزهراء » ليظل أبوها ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت »

وعاش ولداها ليظل النبى الإنسان يسعد بترديد اللفظ العذب : « ابنى » ...

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن لبث زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما ..

ووقف التاريخ الإنسانى يرقب مبهورا هذا النبى الإنسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، إلى ما تواترت به الأخبار من حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى خاتما للنبيين عليهم السلام .

وما تزال حتى اليوم ، وغدٍ ، وإلى الأبد ، ترى فيه آية من آيات الله فى صفوة خلق الله !

وهيهات لها أن تنسى مشهده وهو يمشى فى أسواق المدينة حاملا أحد

سِبطيه على كتفه ، حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه إلى جانبه فى رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب إذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

— يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك ...

فقال : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبى ﷺ من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

« صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وأَوْلَادُكُم فِتْنَة ﴾ .. نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » ..

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدميه ﷺ ، يرقصه قائلا : « ترقَّ ، ترق » فما يزال الصبى يترقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! .. فيفتحه ، ويقبله ﷺ وهو يقول : « اللهم إنى أحبه ، فأحبَّه وأحبِبْ من يحبه »[1]

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما فى نفر من صحابته إلى طعام دُعُوا إليه ، فإذا بالحسين فى السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم المصطفى أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بالحسين ، وهو يفر ها هنا ، وها هنا ، فما زال — ﷺ — يضاحكه حتى أخذه ، فوضع إحدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال : « حسين منى وأنا من حسين ... أحب اللهم من أحب حسينا ! »

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ١٨٨٢/٤ .

والناس من حوله خاشعون إجلالا ، يقول قائل منهم : أراه ﷺ يصنع هذا بِسِبْطِه ، فوالله إن لى ولدا وما قبَّلته قط ! ..

فيرد النبى الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يَرحم ، لا يُرحم ! » ...

* * *

ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد أباها صلى الله عليه وسلم وهو ينسخ الظلمات بنور الإسلام ، ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى تتأهب للسفر إلى مكة — قبيل الفتح — وقد ذاد الكرى عن عينيها قربُ الأوبة إلى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها المهاجر ، وتستعيد وإياه ذكريات صباهما الخلىّ الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيَّرها كرُّ الغداة ومر العشى ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لكليهما بالأمس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللاً دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هناك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر مَن رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟

ومثوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بودائعها الغالية ، أم تاهت معالمها بما أجَنَّتْ من رفات الأعزة الراحلين ؟

وإذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض على ـــ كرم الله وجهه ـــ ليرى من الطارق بليلٍ ، وتفتح « الزهراء » عينيها وإن فيهما لبقيةً من خدر الذكرى ، فإذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد « هند بنت عتبة » التى صنعت ما صنعت بشهداء أُحُد . .

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر كيف جاء إلى المدينة لمَّا بلغ قريشًا تأهبُ « محمد » للمسير إلى مكة ، فرأى من قوة الإسلام ، ومن استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته أم المؤمنين « رملة ، أم حبيبة » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهةَ أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبى ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب إلى أبى بكر ، ثم إلى عمر ، يسأله أن يشفع له فأبى عمر قائلا : « أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ .. فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به ! »[1]

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبى طالب :

ـــ يا علىّ ، إنك أمسُّ القوم بى رَحِمًا ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعنَّ كما جئتُ خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله ...

فقال علىّ : « ويحك يا أبا سفيان ! .. والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه ... »

فالتفت « أبو سفيان » إلى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير إلى « الحسن » الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدى أمه :

ـــ يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

---

(١) السيرة : ٣٨/٤ .

ردَّت ، رضى الله عنها : « والله ما بلغ بُنَىّ ذاكَ أن يجير بين الناس ، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ ... »

وقام « أبو سفيان » لينصرف مخذولا ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :

ـــ يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ ، فانصحنى .

قال على : « والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقُمْ فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » ...[2]

قال : « أوَ ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ » .

فصمت رضى الله عنه لحظة ثم قال :

ـــ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك ...

فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار « على » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان عن عجائب القدر وتصاريف الأيام ، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة إلى أم القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش . . .

* * *

وسار ﷺ من المدينة فى عشرة آلاف من المسلمين ميمما شطر البلد الحرام الذى تسلل منه مهاجرًا منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه إلا صاحبه الصديق . . .

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل البيت النبوى ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين ...

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها إلى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ...

---

(١) السيرة : ٣٩/٤ .

وهاجت شجونها للذكرى ، أين رقية ، وأين زينب ؟ .. لقد هاجرتا مثلها من مكة ، لكن إلى غير رجعة أو مآب ...

وهذه هى ، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث ، غير واحدة ، وثوت الأخريان فى ثرى يثرب ...

غير أن الأطياف بقيت معها ، وهى تقترب من أم القرى ، فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب « مرَّ الظهران » حيث عسكر النبى ﷺ بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة ...

ثم لم يكد النهار يولى ، حتى أقبل « أبو سفيان بن حرب » قائد لواء المشركين ، فبات ليلته بباب النبى انتظارا لأمره ﷺ فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا إلى مكة فوقف بحيث يُسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »[1] ...

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام ، ووقف ﷺ على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرَّحل ...

ونظَّم دخول جيشه إلى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عبادة الأنصارى ، فقال ﷺ لعلى : « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها ! »[2]

---

(١) السيرة : ٤/٤٧ — والاستيعاب : أبو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه فى الباب الخاص بابنته « أم حبيبة ، رضى الله عنهما » فى كتاب « نساء النبى » صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

(٢) السيرة : ٤/٤٨ وتاريخ الطبرى ، فتح مكة .

ومن قبل ، كان « على » حامل « العقاب » فى خيبر ، وهى أول راية للرسول ﷺ[1] .

وكذلك حمل « على » لواء رسول الله فى غزوة بنى قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أُحُد[2] .

* * *

دخل المصطفى ﷺ ، يوم الفتح ، من « أذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له قبّة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة » . وصحبته إليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألمّ بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ...

لكن أباها ، عليه الصلاة والسلام ، لم ينس ! .. وهذا هو يعهد إلى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ...

وكان من هؤلاء « الحويرث بن منقذ » وقد تولى قتله زوج الزهراء ...

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصغى إلى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله والله أكبر ...

* * *

ثم أوى ﷺ إلى قبته ، حيث كانت « الزهراء » تنتظره هناك ...

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢ .

وقد حمل « على » بعد ذلك لواء النبى صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ » .

حدثت أم هانىء بنت أبى طالب ــ وكانت زوجة لهبيرة بن أبى وهب المخزومى ــ قالت :

« لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فرَّ إلىَّ رجلان من بنى مخزوم ــ قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة ــ فدخل علىَّ أخى ، على بن أبى طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلىَّ فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانىء ، ماذا جاء بك ؟ .. فأخبرته خبر الرجلين وخبر « على » فقال ﷺ : قد أجرنا من أجرتِ ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما »[1] ...

واستراح ﷺ برهة ريثما اطمأن الناس عقب موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة ، فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب فى الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ .. قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

وأقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الجامع الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان ..

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها الفاتح ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام ..

---

(١) السيرة : ٤ / ٥٤ مع صحيح مسلم ، ك صلاة المسافرين .

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتمثل أمها خديجة وهى تطل من عُلاَها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون ؟ !

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين بيثرب ، تسرى روحاهما إلى البلد العتيق الذى لم يكتب لهما رجعة إليه ، فتطيفان بمن بقى من الأهل والأحباب ، وتشاركان فى فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وطاب لها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين إلى المسجد الحرام ، ليقيموا للمرة الأولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

قال « على » وهو يتهيأ للخروج إلى صلاة الصبح :

ــ أما نمتِ يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ــ بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأنى أشفق إذا نمت ، أن يكون الأمر كله رؤيا منام ...

ثم قامت تصلى ، وأغفت قليلا بعد أن طال عليها السهر . . .

وأصبحت تمنى نفسها بالعودة إلى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا « على » ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة إلى مِلْكِ « عقيل ابن أبى طالب » وقد سأل أسامة بن زيد النبىَّ ﷺ يومئذ : أين تنزل فى دارك بمكة ؟ .

فقال : « وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور ؟ »[1] .

وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الأنصار بعد الفتح ويوم حنين ، وقد ظنوا أن المصطفى مقيم بمكة ، لما رأوا من فرحه ﷺ بمسلمة الفتح ، وحرصه على تأليفهم ، وغبطته بالرجوع إلى مكة بعد طول اغتراب ...

وقال قائلهم : « لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه ! » ..

وأنشد شاعرهم « حسان بن ثابت الأنصارى » يعاتب النبى ﷺ ، أنْ زاد فى عطاء المؤلفة قلوبهم — من مغانم حنين — دون الأنصار :

وأْتِ الرسول فقل : يا خير مؤتمَن للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البشرُ
علام تُدعى « سليم » وهى نازحة قُدَّام قوم همُ آووا وهم نصروا ؟
سماهـُمُ الله أنصارا بنصرهـــمُ دينَ الهدَى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس ألْبٌ علينا فيك ، ليس لنا إلا السيوفَ وأطرافَ القنا وَزَر
فما ونينا ، وما خُنَّا ، وما خبروا منا عثارا وكل الناس قد عثروا ![2]

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمعَ كل من في مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، وأشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت إلى أن أباها ﷺ سوف يجد منه مخرجا ...

لكن أى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت أباها صلى الله عليه وسلم يسأل النقيب « سعد بن عبادة » رضى الله عنه وقد شكا له ما تجد الأنصار :

---

(١) متفق عليه من حديث اسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ : ك الحج ، ح ٨٥٧) وفى الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٩٨ . بلفظ : « وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ » .

(٢) السيرة : ٤ / ١٠٤ .

« فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ »

قال : « يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ... »

فلم تبد على النبى الكريم بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب إليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » خرج إليهم ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجِدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألَّف بين قلوبكم ؟ » ...

أجابوا : « بلى ، الله ورسوله أمَن وأفضل » ...

قال : « ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ » ...

قالوا مشفقين : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. لله ولرسوله المَنُّ والفضل » ...

فما راعهم الا أن قال النبى الكريم ، عليه الصلاة والسلام :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم : أتيتَنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! .. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم ، فى لعاعة — بقلة خضراء ناعمة — من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ... ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ ... فوالذى نفسُ محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصارُ شِعبا لسلكتُ شعب الأنصار ، .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! » ..

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء إيمانهم : رضينا برسول

الله قسما وحظا ![1] ...

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا النبى ﷺ يوشك أن ينصرف راجعا إلى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما ...

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل ! ...

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها فى شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها إلى مدينة الأنصار ، فى أخريات ذى القعدة من العام نفسه بعد قضاء العمرة . . .

لكأنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة عليها السلام فى الليلة الأولى بعد الفتح ، رؤيا منام ...

وقد امتد الحلم الهنىء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تصافح طلعته البهية فى الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم ، وأتيح لها فى تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ، ولد الرسول وأحبابه ، تاركة شئون الدار لخادم جاء بها « على » بعد أن أيسر .

* * *

فى السنة التاسعة للهجرة ، شيعت دار الهجرة ثالثة بنات النبى : « أم كلثوم ، زوج عثمان . رضى الله عنهما ثم شيعت بعدها ، فى السنة العاشرة ، ابراهيم بن محمد ، من مارية القبطية . وتجلدت الزهراء للمصاب ، ولم يبق لأبيها من الولد سواها .

ثم كانت المصيبة الكبرى :

شكا أبو الزهراء ﷺ من مرض ألمَّ به ، فى ليال بقين من صفر فى السنة الحادية عشر للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث

---

(١) السيرة : ٤ / ١٤٢ . والنقل منها . وانظر مناقب الأنصار رضى الله عنهم فى الصحيحين .

أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت ! ...

غير أن « أم أبيها ، الزهراء » لم تكد تتلقى دعوة أبيها صلى الله عليه وسلم ، حتى أجفلت مرتاعة . وأسرعت إلى داره ملبية دعوته ، وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم عنده ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبهَ أحدٍ به سمتا وهديا ــ على ما وصفتها السيدة عائشة ، رضى الله عنهما ــ هشَّ للقائها قائلا : « مرحبا بابنتى » . . .

ثم قبَّلها وأجلسها إلى يمينه وأسرَّ إليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هوَّن عليها بقوله :[1]

« وإنك أول أهل بيتى لحوقا بى » ثم أضاف : « يا فاطمة ألا ترضين أن تكونى سيدةنساء المؤمنين . أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ » ...[1]

فسرَّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت السيدة عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا أقرب إلى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسرَّ به ﷺ إليها ، فقالت أم أبيها :

« ما كنت لأُفشى على رسول الله سرَّه ! » ..[2]

وانصرفت يومئذ إلى دارها ، يساورها قلق مشوب بالخوف . وكان ﷺ لما اشتد به وجعه ، دارعلى نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى إذا بلغ بيت « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتامَّ به وجعه فدعا أزواجه إليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة .

وأقامت « أم أبيها » إلى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال ...

(١ــ٢) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (اللؤلؤ ، ك الفضائل ، باب فضائل الزهراء رضى الله عنها ح ١٥٩٣) .
مع طبقات ابن سعد ، ١٦/٨ .

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه ...

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« واكربى لكربك يا أبتاه » ...

فرد عليها وهو يرنو إليها فى عطف وحنو :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم » [1]...

ثم حمَّ القضاء ، ولحق ﷺ بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد إلى العزاء سبيلا ! ...

* * *

وأذهلها المصاب الفادح ، فما أفاقت من غشيتها إلا وقد تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد يمضى على وفاة رسول الله ﷺ ، غير يومين .

وجمعت كيانها الممزق ، وتحاملت تسعى إلى قبر الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى إذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء ، ثم راحت تشمها وهى تقول متفجعة :

ماذا على مَن شمَّ تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صُبَّت علىَّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عُدنَ لياليا !

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى كمن فرغت من الدنيا ! ..

(١)صحيح البخارى : (باب مرضه ﷺ ، ووفاته) مع فتح البارى ١٠٥/٨ وطبقات ابن سعد ٢/٢ ومسند أحمد : ١٤١/٣ .

وأتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى إذا بلغت دارها استأذن عليها « أنس بن مالك : خادم أبيها النبى » وراح يسألها الصبر الجميل ...

قالت له معاتبة : « كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ .. »

فشهق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يعاود الحديث فى الصبر والعزاء ...

الصبر والعزاء ؟ ... كيف وكل مصاب بعد المصاب فيه لمم ! ؟ ...

* * *

ودخل على أثره زوجُها « على » كرم الله وجهه ، وفى صحبته رجال من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من أمر البيعة ...

وتذاكروا بلاء « على » فى نصرة الإسلام ، ومكانه من رسول الله ﷺ ، وقد آخى النبى ﷺ بينه وبين علىّ قبل الهجرة . وشهد « على » مع النبى عليه الصلاة والسلام مشاهده كلها إلا غزوة تبوك ، مستخلفا إياه على المدينة .

وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أُحُد ، ولواء النبى ﷺ يوم غزوة بنى قريظة ، وحمراء الأسد ، ويومَ حنين ...

وحمل يومَ خيبر ، أول راية للإسلام ... وكان ﷺ قد اتخذها من برد لزوجه عائشة » أم المؤمنين ، وقال : « لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه » فقاموا يرجون لذلك ، أيهم تُعطَى ؟ فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين على ؟ » الحديث ..[1]

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه مرفوعا (اللؤلؤ : ك فضائل الصحابة . ح ١٥٥٧) .

وفى رواية : فتطاول « عمر بن الخطاب » لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها رسول الله ﷺ إليه . فلما كان الغد ، دعا النبى ﷺ « عليا » ودفعها إليه[1] ...

ويُروَى أنه فى يوم الفتح ، كانت الراية مع « سعد بن عبادة الأنصارى » رضى الله عنه، فقال ﷺ لعلى : « أدركْه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها »[2] . . .

وقاد سرايا النبى ﷺ إلى « فدك » فى شعبان من السنة السادسة للهجرة ...

وإلى « الفُلس : صنم طيِّىء » فى السنة التاسعة ...

وإلى « اليمن » فى السنة العاشرة ...

وعاد منها جميعا مظفرا منصورا ...

وعلى « القصواء » ناقة الرسول المباركة ، خرج « على » إلى الحج بعد الفتح بعام[3] ليتلو فى الجمع (سورة براءة) ...

ويوم آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، اصطفى « عليا » أخا .

ويوم خرج إلى « بدر » غازيا ، ومعه أصحابه ، كل ثلاثة على جمل ، اختار عليا وأبا لبابة زميلين ، وقد عرضا عليه ﷺ أن يمشيا ليستريح فى مركبه ، فأبى وقال :

« ما أنتما أقوى على المشى منى ، وما أنا أغنى عن الأجر منكما »[3]

« وتذكر القوم أحاديث النبى ﷺ لعلى ، وفى علىّ : منها قوله عليه الصلاة والسلام ، حين استخلفه على المدينة ، لما خرج إلى تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هٰرونَ من موسىٰ ؟ إلا أنه لا نبىَّ

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٨٠ .
(٢) السيرة : ٤٨/٤ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١٢١/٢ .
(٤) طبقات ابن سعد : ١٤/٢ .

بعدى »[1]

« أنت ولىّ كلّ مؤمن بعدى »[2]

« من كنتُ مولاه ، فعلىٌّ مولاه ؟ »[3]

« لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه الا منافق »[4] .

ثم هو ابن عم النبى ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبو الحسنين ريحانتى المصطفى ، وأول فتىً إسلاما ، وأطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟ ..

كان بنو هاشم يرجون الخلافة له ، لكن البيعة تمت لأبى بكر رضى الله عنه .

وأمسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهى فى عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذى أباه عليها أبوبكر ، وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟ ..

ثم ما لبث علىّ ، أن بايع أبا بكر ، رضى الله عنهما .

وكان قد تخلف عن بيعة السقيفة ، وقال : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ »[5]

وترد الزهراء : « ما صنع أبو الحسن إلا ما ينبغى . . . » . . .

* * *

ثم لا يذكر المؤرخون — فيما قرأت — إلا أن الزهراء قد عافت الدنيا ، فلم تُرَ قط منذ مات أبوها ﷺ ، إلا محزونة باكية ...

---

(١) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، مرفوعا . ورواه الترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد .

(٢) رواه الترمذى والإمام أحمد فى المسند .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند .

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حنبل .

(٥) كان على رضى الله عنه ، هو الذى غسل الجسد الشريف ، انظر طبقات ابن سعد ٦٠/٢ ومسند أحمد : ٢٦٧/١ — والسيرة جـ ٤

وعز العزاء وغُلِب الصبر ، ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل ...

وما أسرع ما لحقت به ! ...

أصبحت يوم الاثنين ، الثانى من شهر رمضان سنة إحدى عشرة ، فعانقت أهلها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت إليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام ، فقالت لها بصوت واهن خفيض :

ـــ يا أمه ، اسكبى لى غسلا ...

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلى فراشى فى وسط البيت » ...

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب ... ثم أغمضت عينيها ونامت !

* * *

وقام « على » فاحتملها باكيا ، ودفنها ليلا ، ثم ودَّعها وعاد محزونا إلى صغاره ، وإلى البيت الذى أوحش من بعد « الزهراء » ...

وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا إلى القبر آخر بنات النبى ﷺ ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال « لم يكن قد عاش له صلى الله عليه وسلم سواها ، ولم تتجاوز منهن واحدة خمسًا وثلاثين سنة »[1] .

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى طيبة جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها ﷺ وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ...

* * *

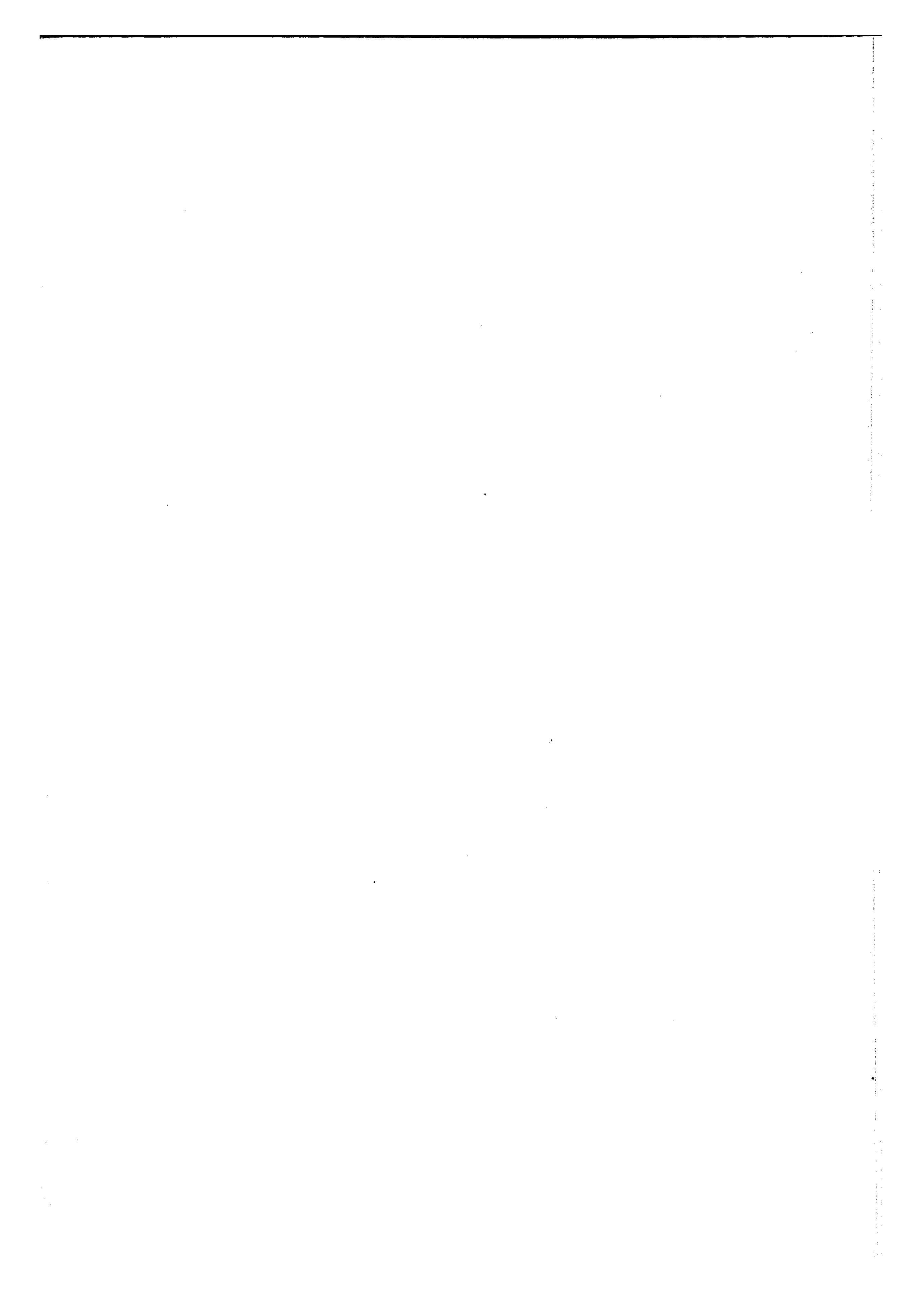
(١) طبقات ابن سعد : ١٨/٨ والاستيعاب والإصابة ، فى ترجمتها رضى الله عنها .
مع جمهرة ابن حزم : ١٤ ط أولى ذخائر .

وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث أن عاد بعد حين إلى الكتاب التاريخى الحافل ، يملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وتمويه الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الإسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين ! ..

وتتغير الأحداث والدُول ، وتبقى « أم أبيها » ملء الحياة ، فى ذريتها الطاهرة المباركة ، آل النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

الكتابُ الرّابع

السَّيدة زينب
عَقيلةُ بنى هاشم



السَّيِّدَة زينب
عَقيلةُ بنى هَاشم
رَضِىَ الله عَنها

إهـــداء

إلى أبى ، العارف بالله ، العالم العامل القدوة ،

فضيلة الأستاذ « الشيخ محمد على عبد الرحمن الحُسَيْنى » .

ذكرتك يا أبى وأنا أكتب كل كلمة فى هذا الكتاب ، فلما فرغت منه شعرت كأنما كنت معى : تكتبه لى وتمليه علىّ ...

ها هو ذا ، أهديه إليك ، تحية برٍّ ووفاء لعهد خلا ، أيام كنت صبية أباهى بك لداتى وأترابى جميعًا ، حين نمر « بمعهد دمياط الدينى — فى جامع البحر » فى طريقنا إلى المدرسة ، فنراك من نافذة المعهد ، فى حلقة من طلاب العلم ، يصغون إلى درسك بكل عقولهم وكل جوارحهم . فإذا عدنا من المدرسة ، ألفيناك فى حلقة أخرى من صحبك ومريديك يأخذون «العهد » عليك ، ويصغون وأصغى معهم إلى حديثك المؤثر عن طريق الوصول إلى الحق ، فأشعر — على صغر السن — أننى أتطاول إلى ذاك الأفق العالى الذى تحلق فيه ، وأستشرف له طامحةً مريدة !

ولم أنسَ يا أبى ، على بُعد العهد وتطاول السنين ، مجلسك فينا تحدثنا عن آل البيت الكرام أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم ، وعلمتنا أن نرعى شرف انتسابنا إليهم ..

* * *

أذكرها يا أبى ليلة من ليالى شهر رجب ، وقد رأيناك تتهيأ للسفر فى غد إلى القاهرة ، وأمنا الغالية — نضر الله وجهها — تترقب ساعة الوضع . فالتمسناك — أنا وشقيقتى الكبرى فاطمة — وأنت فى خلوتك تتهجد ، ورجوناك أن ترجىء سفرك ذاك ، فقد كنا خائفتين ..

قلت لنا :

ـــ لا تخافا ولا تحزنا ، فالله معها ...

ثم أفسحت لنا مكاناً إلى جانبك ، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التى لم تكن تستطيع أن ترجئها ، لأنك تؤدى بها واجباً مفروضاً ، هو المشاركة فى الاحتفال بذكرى « السيدة زينب » .

ومضى وهن من الليل ونحن فى مجلسنا منك ، نسمع قصتها المؤثرة ، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمى :

ـــ إنْ وضعِتها أنثى ، فسميها زينب ...

ثم تركتَها وإيانا ، لرعاية الله ...

ومن تلك الليلة يا أبى ، وعيت اسم « السيدة زينب » وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة ، ثم لم أنسها أبداً ...

* * *

واليوم شاقنى أن أكتب عن « السيدة » ، فلما تهيأت للكتابة ، ألفيتنى أعود إلى أمسى ذاك البعيد ، فأتمثله شاخصاً أمامى ملء الحياة ، وظل هكذا : شاخصاً ، ماثلاً حاضرا ، حتى فرغت من الكتابة ، فوضعت قلمى وأنا أشعر بشىء من الإجهاد ، وغفوت حالمة ، أذكر الماضى الذى ولّى وراح ...

واستمرأت مذاق هذا الشجن ، فكدت أسلم له نفسى ، لولا أنى سمعت نداء طفلتى من بعيد ، فصحوت من إغفاءتى وأنا أردد :

أبقاك الله يا أبى ورضى عنك . .

ورحم الله أمى ...

عائشـــة

مـــــدخل

هذا الكتاب ليس سردًا تاريخيًا بحتاً ، وإن أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية أصيلة ، كما أنه ليس قصة خالصة ، وإن بدا كأنه كذلك ، فى العرض والأداء .

وإنما هو ترجمة لسيدة من بيت النبوة ، قدر لها أن تعيش فى فترة تموج بجليل الأحداث ، وأن تشارك فى تاريخ الدولة الإسلامية مشاركة ذات بال . . .

اقترن اسمها فى تاريخنا ، والتاريخ الإنسانى ، بمأساة فاجعة هى مأساة « كربلاء » . التى أجمع المؤرخون على أنها كانت إحدى المعارك الفاصلة فى تاريخ الشيعة بخاصة ، والتاريخ الإسلامى بعامة ، ثم ذهب بعضهم بعد ذلك ، إلى أنها كانت الجولة الحاسمة التى أصَّلت التشيع ومكَّنت له مذهبا ، يرون أن الدم المسفوح فى تلك المذبحة المشؤومة ، هو الذى صبغ تاريخنا السياسى والمذهبى بتلك الصبغة الدامية التى نعرفها فى « مقاتل الطالبيين » وحركات « الشيعة » .

دور « السيدة زينب » فى المأساة غير مجهول ، بل إن منهم من سماها « بطلة كربلاء » لأنها السيدة الأولى التى ظهرت فى اللحظة الحرجة ، تأسو الكلوم ، وتواسى المحتضرين ، وتثور للضحايا الشهداء الذين نُبِذوا هنالك فى العراء : أشلاء مبعثرة . . .

لكنى أرى دورها الحقيقى قد بدأ بعد المأساة ، إذ كان عليها أن تحمى السبايا من الهاشميات اللاتى فقدن الرجال ، وأن تناضل مستبسلة عن صبى

مريض ـــ هو زين العابدين على بن الحسين ـــ كاد لولاها أن يذبح ، فتفنى بذهابه يومئذ سلالة الإمام . ثم كان عليها بعد ذلك ألا تدع الدم المسفوك يذهب هدراً ..

وما أحسبنى أغلو أو أسرف ، إذا قدَّرت أن موقف السيدة زينب بعد المذبحة ، مما جعل من « كربلاء » مأساة تاريخية . .

* * *

ولم تعش « زينب » رضى الله عنها طويلاً بعد الفاجعة ، لكنها استطاعت فى تلك الفترة القصيرة التى عاشتها ، أن تشعل فى نفوس الشيعة حزناً مستعراً لم يخمد لهيبه حتى اليوم ، وأن ترهق الذين أسلموا آل البيت بوخز الحسرة والندم ، وتجعل التكفير عن خطيئتهم ميراثاً رهيباً مقدساً ، يتوارثونه جيلاً بعد جيل .

وأعود فأقول إن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون صورة لحياة تلك « السيدة » رسمها المؤرخون الثقات من قبلى ، ثم جاء « المنقبيون » فأضافوا إليها ألوانا وظلالًا لها موضعها فى الرواية النقلية ، وعميق إيحائها وصدق دلالتها .

وقد حرصت ما استطعت ، على أصالة المادة التاريخية فى الصورة ، دون أن أهدر هذه الظلال أو أهوِّن من شأنها : لأنها ـــ مهما يكن رأى العلم والتاريخ فيها ـــ عنصر فى صورة « السيدة » كما تمثلها السابقون وكما رأوها ، ولا أرى من حقى أن أغض من أى ظل منها ، إلا إذا كان من حق الدارس النفسى أن يغض من الرؤى والأحلام ...

وكل عملى فى الكتاب ، أنى ألفت بين الألوان التاريخية وهذه الظلال المنقبية ، لأجلو منها صورةً لتلك التى شاركت فى صنع تاريخنا الإسلامى ، وذهبت قصة وعبرة ومثلاً ...

الفصل الأول

فى بيت النبوّة

ـ آبَـــاء وأجــدَاد

ـ ظِـــلال على المهد

ـ الصِّبـَـا الحَزين

آبَاءٌ وأجْدادٌ

كان البيت الكريم ينتظر ساعة الوضع فى لهفة وترقب ، ومن ورائه عشرات الألوف من الصحابة ، يترقبون النبأ السعيد وقلوبهم تحف بالسيدة الوالدة إجلالاً ومحبة ، وألسنتهم تلهج لها بالدعاء الحار ! . .

إنها « الزهراء » بنت النبى ، توشك أن تضع فى بيت النبوة مولوداً جديداً لزوجها الإمام على ، كرم الله وجهه . بعد أن أقرت عينى أبيها المصطفى بسبطيه الحبيبين : الحسن ، والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش ، هو شقيقهما المحسن بن على بن أبى طالب .

وحانت الساعة المرتقبة . . .

وأذيعت البشرى أن « الزهراء » قد وضعت أنثى باركها جدُّها صلى الله عليه وسلم ، واختار لها اسم « زينب » إحياءً لذكرى ابنته الراحلة « زينب » التى كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل ، فوجد المصطفى عليها ، وحزن لفقدها حزناً ثقيلاً ! . .

تلك الراحلة ، هى كبرى بناته ﷺ ، تزوجت ابن خالتها « أبا العاص ابن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس » قبل النبوة ، فلما كان المبعث أسلمت هى ولم يسلم ، على أنه ظل رفيقا بها محباً لها ، وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يفارقها كما فعل ابنا « أبى لهب » زوجا أختيها « رقية ، وأم كلثوم » . حتى كانت غزوة « بدر » وأسر « أبو العاص » فيمن أسر من مقاتلة قريش ، فأرسلت « زينب » ـــ وهى لا تزال بمكة ـــ تفتديه ، وبعثت قلادة كانت أمها « خديجة » ـــ رضى الله عنها ـــ قد أهدتها إليها يوم زواجها بأبى العاص ، فلما رأى المصطفى ﷺ القلادة ، رق قلبه لها وقال لصحبه البدريين :

ـــ إن رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذى لها فافعلوا .

قالوا : نعم يا رسول الله . . .

وأطلق ﷺ أسيره ، على ان يرسل « زينب » إلى المدينة ، فما عاد لها مكان فى بيت « أبى العاص » وقد فرق إسلامها بينها وبينه .

وهاجرت « زينب » إلى المدينة تطوى جوانحها على شجو وشجن ، وبقى « أبو العاص » بمكة ، يغالب شوقه إلى زوجه النائية .

ثم خرج من بعد ذلك فى تجارة إلى الشام ، فأسرتْه حين عودته سرية للمسلمين ، غلبت على القافلة المكية بمن فيها من رجال ومال ، لكن « أبا العاص » تمكن من الإفلات ودخل « المدينة » مستخفياً يلتمس السيدة « زينب » فلما بلغ دارها ، لاذ بها مستجيرًا فرحبت به ثم تمهلت حتى صلى النبى بالناس صلاة الصبح ، فصاحت بأعلى صوتها :

ــ أيها المسلمون ، إنى قد أجرت « أبا العاص بن الربيع » .

وتناهى صوتها إلى أبيها فمس قلبه ، وأقبل على من حوله يسألهم :

ــ هل سمعتم ما سمعت ؟ أجابوا : نعم .

قال : فوالذى نفسى بيده ما علمت بذلك حتى سمعت ما سمعتم !

ثم قال : « يجير على المسلمين أدناهم . . . »

وقام يسير صامتًا ، متمهلًا ، حتى دخل على ابنته « زينب » فقال لها : « أكرمى مثواه ، ولا يخلصُ إليك فإنك لا تحلين له »

ثم انطلق ﷺ ، عائدًا إلى صحبه ، فدعا إليه رجال السرية التى أسرت قافلة قريش وقال :

« إن هذا الرجل من حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالًا ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق . »

قالوا : بل نرده عليه .

وودع « أبو العاص » تلك التى كانت زوجه . . .

وأثنى على ذلك الذى كان صديقه وزوج خالته وصهره . .

وانطلق إلى « مكة » فأدى إلى الناس ما كان فى عهدته من أمانات لهم ، وقفل راجعًا إلى « المدينة » ليبايع صاحبه ، ويتزوج « بزينب » مرة ثانية .

لكن « زينب » ما لبثت أن ماتت متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من « مكة » إلى « المدينة » بعد غزوة « بدر » ذلك أن أحد المشركين لقيها وهى فى الطريق إلى دار الهجرة ، فنخسها فى بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها .

ماتت ، وظل أبوها ﷺ يجد فى قلبه لوعة الحزن ، حتى إذا ما ولدت أختها « الزهراء » أنثاها الأولى ، سماها « زينب » .

* * *

تعالى هتاف « المدينة » فى العام السادس من الهجرة ، للوليدة الغالية « زينب بنت على بن أبى طالب » تلك التى تلاقى فيها أعزُّ ما عرفت قريش والعرب من كريم الأصول ونقى السلالات .

أمها « الزهراء » : أحبُّ بنات المصطفى إليه وأشبههن به فى خُلق وخَلق ، آثرها الله بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، فكتب لها أن تكون ـــ وحدها ـــ الوعاء الطاهر للذرية الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت . . .

* * *

وأبوها « على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، القرشى الهاشمى » ابن عم النبى ﷺ ، وربيبه ، وأول من آمن به صبياً ، وفتى قريش شجاعة وتقى وعلماً .

* * *

وجَدّاها لأمها : « محمد رسول الله » و « خديجة بنت خويلد » : أولى أمهات المؤمنين ، وأقرب نساء النبى إليه وأعزهن عليه حية وميتة ، انفردت بحبه وبيته خمسًا وعشرين سنة ، لا تشاركها فيه امرأة أخرى ، ووقفت إلى جانبه فى سنى الاضطهاد العشر الأولى من المبعث ، تؤازره وترعاه ، وتهوِّن عليه ما يلقى من قريش فى سبيل رسالته .

كانت وحدها إلى جانبه لما آب من غار « حراء » مرتعدًا مقرورًا يتلو ما أُنزل إليه من آيات الوحى الأولى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ولدى « خديجة » ـــ قبل سواها ـــ سكنت نفسه واطمأنت ، وزايله ما عراه من رهبة الوحى ، الأول ، فى ليلة القدر . . . . وهى إلى جانبه مؤمنة

مصدقة ، واثقة راجية ، محبة متفانية ، لا يزعزع ثقتها فيه وإيمانها به أن قريشًا تنكر ما جاء به ، وأن شيوخ قومها قد يظنون به الظنون ويتمهونه بالسحر أو بالجنون . فكانت له سكنًا وملاذًا وصاحبًا ووزيرًا . . .

* * *

ولقد ماتت « خديجة » ومحنة الاضطهاد فى إبانها ، لكنها كانت قد مكَّنت للدعوة وتركت إلى جانب زوجها المصطفى ﷺ صحابة مخلصين ، يؤمنون به ويؤثرون الموت على التخلى عنه ، وكان فقدها فى هذه الفترة العصيبة بدء مرحلة من مراحل الجهاد ، إذ نبا بزوجها المصطفى مكانه بعدها بمكة ، فكانت « الهجرة » التاريخية .

هاجر وفى قلبه ذكرى باقية لتلك الحبيبة الأولى ، . لم تستطع واحدة من أزواجه اللواتى جئن بعدها ــ وفيهن السيدة عائشة ــ أن تطمس هذه الذكرى الحية فى قلب محمد ﷺ ، أو تجرح جلالها : أقبلت « هالة » ــ أخت خديجة ــ ذات يوم لزيارة النبى ﷺ فى « المدينة » ، فلما سمع صوتها فى فناء دُوره ــ وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ــ تأثر لها وشجته الذكرى ، فقالت له « عائشة » بعد انصراف « هالة » :

ــ ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ !

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقال مغضبًا :

« والله ما أبدلنى الله خيرًا منها : آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولدَ دون سائر النساء » .(١)

* * *

(١)مستخلص من ترجمتها ، رضى الله عنها ، فى (كتاب نساء النبى) ﷺ .

وجدّ « زينب » لأبيها ، أبو طالب بن عبد المطلب : عم المصطفى ، ومن كان له بعد أبيه أبا . فلقد مات « عبد الله » و « محمد » جنين فى بطن أمه ، ومات « عبد المطلب » وحفيده غلام فى السابعة أو نحوها ، فكفله عمه « أبو طالب » ، وكان له الأب والحامى والصديق ، لم يتخل عنه لحظة فى سنى المحنة كما فعل عمه « أبو لهب » الذى كان أشد على ابن أخيه « محمد » من المشركين الغرباء ، وكانت زوجه « أم جميل » تحمل إليه الحطب فيقذف به « محمدًا » وهو يسبه ويلعنه . ولقد أبى وأبت امرأته حمالة الحطب ، أن يُظل سقفُ بيتهما ابنتى محمد « رقية وأم كلثوم » اللتين تزوجهما « عتبة وعتيبة ، ابنا أبى لهب » قبل المبعث ، فطلقاهما ليتزوجهما « عثمان بن عفان » ذو النورين الواحدة بعد وفاة أختها .

كلا ، لم يتخلِ « أبو طالب » عن ابن أخيه كما فعل « أبو لهب » ولم يسلمه إلى أشراف قريش عندما ألحوا فى طلبه ، وإنه ليصغى إلى « محمد » يقول :

« والله يا عمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » .

فيتناول الشيخ يد ولده فى حنو وتأثر وهو يقول :

ـــ اذهب وقل ما أحببتَ ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

وصدق وعده . . ظل يحميه إبان المحنة ، غير مكترث لإنذار قريش أن تنفى الهاشميين جميعاً إذا لم يسلموا ابنهم « محمداً » ليقتل .

وإلى شِعب « أبى طالب » أوى ﷺ وزوجه وأصحابه وعشيرته ، طوال المدّة التى حاصرهم فيها القرشيون وحاولوا القضاء عليهم جوعاً . ثم مات « أبو طالب » بعد أن ماتت « خديجة » بقليل ، ففقد صلى الله عليه وسلم بموتهما أحب اثنين إليه وأقدرهم على تأييده ومنعه ، فكانت الهجرة . . .

* * *

وجدة زينب لأبيها : « فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف » زوجة العم أبي طالب ، وأول هاشمية تزوجت هاشمياً وولدت له ، أدركت النبي ﷺ فأسلمت وحسن إسلامها ، وأوصت إليه حين حضرتْها الوفاة فقبل وصيتها ، وصلى عليها ، ونزل فى لحدها ، وأحسن الثناء عليها . رووا فى ترجمتها عن « ابن عباس » رضى الله عنهما ، أنه قال : « لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه ، ونزل معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة . فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبرّ بى منها . . . »

* * *

وجدُّ « زينب » الأعلى لأبويها على وفاطمة ، « عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى القرشى » : أمين الكعبة وصاحب السقاية والرفادة ، انتقل إليه هذا الشرف عن آبائه وأجداده كابراً عن كابر ، فما كان لأحد من غير بنى قصىّ ، لمئات سنين ، أن يتولى حراسة الكعبة وسقاية الحجيج .

منعه الله من « أبرهة » حين دهم مكة فى جيش من أصحاب الفيل ، فجعل الله تعالى كيدهم فى تضليل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

* * *

ظِلالٌ على المهْدِ

تلك هى الوليدة التى استقبلتها مدينة جدِّها ﷺ فى العام السادس للهجرة ، وهو العام الذى شهد استقرار الأمر للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، وخروجه على ناقته القصواء ـــ التى حملته من « مكة » قبل ست سنين ، مهاجرا مع صاحبه الصديق ـــ فى أربع عشرة مائة من المهاجرين والأنصار ، فى ملابس الإحرام ، يريدون العمرة ، ومكة وقتئذ معقل الأعداء من قريش ، ثم يعودون ظافرين بصلح « الحديبية » مع قريش ، فكان فتحا مبينًا .

* * *

وبدا كأن كل شيء يَعِدُ الوليدة بحياة سعيدة ، وأقبل المهنئون من بنى هاشم والصحابة ، يباركون هذه الزهرة المتفتحة فى بيت النبوة ، تنشر فى المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح فى طلعتها المشرقة ووجهها الوضاء ، ملامح آباء وأجداد لها كرام .

لكنهم فوجئوا ـــ لو صدقت الأخبار ـــ بظلال حزينة على المهد الجميل ! ظلال ربما لا يكون لأكثرها مكان عند المؤرخين المدرسيين ، لكن لها مكانها فى المنهج النقلى ، وتفسيرها الوجدانى .

فى الخبر أن نبوءة ذاعت عند مولد الطفلة ، تشير إلى دورها الفاجع فى مأساة « كربلاء » ، وتُحدث بظهر الغيب عما ينتظرها فى غدها من محن وآلام .

كانت المأساة معروفة فيما يقولون ، قبل موعدها بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ففى (مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١ / ٨٥) أن جبريل عليه السلام أخبر « محمداً » ﷺ بمصرع الحسين وآل بيته فى كربلاء .

ونقل « ابن الأثير » فى (الكامل : ٤ / ٣٨) أن النبى ﷺ أفضى بذلك إلى « أم سلمة » رضى الله عنها ، فلما قتل « الحسين » عليه السلام ، أعلمت الناسَ بقتله .

ويفهم من تأريخه لأحداث سنتى ٦٠ ــ ٦١ هـ ، أن الخبر كان متداولا ، بصورة أو بأخرى . فلقد ذكر أن « زهير بن القين البَجلى » ــ وهو عثمانىُّ الهوى ــ خرج من « مكة » بعد أن حج عام ٦٠ ، فصادف خروجُه مسير « الإمام الحسين » إلى العراق ، فكان « زهير » يساير « الحسين » إلا أنه لاينزل معه ، فاستدعاه « الحسين » يوماً فشقَّ عليه ذلك ، ثم أجابه ، فلما خرج من عنده أقبل على أصحابه فقال : « من أحبَّ منكم أن يتبعنى وإلا فإنه آخر العهد » .

ثم راح يروى لهم قصة قديمة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم . قال « زهير » إنه خرج مع جماعة من المسلمين فى غزوة لهم فظفروا وأصابوا غنائم فرحوا بها ، وكان معهم « سلمان الفارسى » فأشار إلى أن « الحسين » سيقاتل يوماً ويُقتَل ، ثم قال سلمانُ لأصحابِه : « إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم منَ الغنائم » .

قال ابن الأثير : وتوجّه زهير ــ بعد أن حدَّث أصحابه بحديث سلمان الفارسى ــ فودع أهله ، وطلق زوجته مخافة أن يلحقها أذى ، ولزم الحسين حتى قتل معه » .

وكان « الإمام الحسين » ــ فيما يُروَى ــ يعلم منذ طفولته بما قدر له ، كما كان دور أخته « زينب » حديث القوم منذ ولدت . فهم يذكرون أن « سلمان الفارسى » أقبل على « على بن أبى طالب » يهنئه بوليدته ، فألقاه واجماً حزيناً ، يتحدث عما سوف تلقى ابنته بعده . . .

وبكى « على » : الفارس الشجاع ، ذو اللواء المنصور ، الملقب بأسد الإسلام !

* * *

أكانت هذه المرويات جميعاً من مخترعات الرواة ومبتدعات السمار ؟ .

أكانت من إضافات المنقبيين وتصورات المتحدثين عن الكرامات ؟ .

أكانت من رؤى الحالمين المغرقين فى الخيال ؟

ذلك ما قرره « رونالدسون » فى كتابه (عقيدة الشيعة) ، و « لامنس » فى (فاطمة وبنات محمد) .

وأما رواتها المسلمون فما يشك أكثرهم فى أن هذه المرويات صادقة لا ريب فيها ، وليس الأقدمون وحدهم هم الذين اطمأنوا إلى صدق هذه المرويات ، بل إن من كتَّاب العصر أيضا من لا يقل عنهم إيمانًا بتلك الظلال التى أحاطت بمولد « زينب » . منهم الكاتب الهندى المسلم « محمد الحاج سالمين » إذ يصف فى الفصل الأول من كتابه (سيدة زينب Sayyidah Zeinab) كيف استُقبِلت الوليدة بالدموع والهموم ، ثم يمضى ـــ بعد أن ينقل بعض المرويات عن النبوءة ـــ فيتمثل « النبى العظيم وقد انحنى على بنت الزهراء يقبلها بقلب حزين وعينين دامعتين ، عالماً بتلك الأيام السود التى تنتظرها وراء الحجب » .

ويمضى « سالمين » فيتساءل : « ترى إلى أى مدى كان حزنه ﷺ حين رأى بظهر الغيب تلك المذبحة الشنعاء التى تنتظر سِبطَه الغالى ! وكم اهتز قلبه الرقيق الحانى وهو يطالع فى وجه الوليدة الحلوة ، صورة المصير المنتظر ؟ ! » .

ولا نحيل أن يكون شىء من هذه الشائعة قد شاع ، ثم هى اليوم ـــ بعدما كانت ـــ ظلال على الصورة المعروضة يُلْقِى مثلها على مهد الوليدة ، كآبة ووجوماً ، ويثير لها أعمق عواطف الرحمة والرثاء .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا ، أن « الزهراء » رضى الله عنها لم تكن أيام الحمل مشرقة مطمئنة ، فلقد كانت تعتادها من حين إلى حين ، نوبات من القلق والاكتئاب ، وهى نوبات قديمة غير طارئة ، لعلها بدأت بموت أمها السيدة « خديجة » رضى الله عنها ، ثم أخذت تزداد فى بطء ، منذ جاءت السيدة « عائشة » بيت المصطفى وشغلت مكانَ الأم الراحلة ، وهو المكان الذى تُرِكَ بضع سنين لفاطمة ، الابنة الأثيرة المحببة .

وليس ببعيد أن يكون لحالة الحمل أثر فى اشتداد ما كانت « فاطمة » تعانى من ذلك ، مع ما تجد لفقد الأم . . .

* * *

ونرمق « زينب » وهى تدرج فى ساحة البيت الشريف ، محوطة برعاية خاصة من جدها ﷺ ، وعطفٍ سابغ من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة فى حضانة « الزهراء » تتلقى عنها الدروس الأولى فى الحياة ، فإذا جاوزت دور الحضانة ألفت أباها الفارس أمير البيان ، وأخويها الشقيقين ، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام رضى الله عنهم .

ولم تظفر صبية من لداتها ــ فيما نحسب ــ بمثل ما ظفرت هى به فى تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضى « زينب » فى صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة سعيدة ، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوءة الأليمة : قيل أنها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ، ثم استطرد ــ متأثراً بذكائها المرهف ــ يلمح إلى ما ينتظرها فى مستقبل أيامها من دور ذى خطر ، ولشد ما كانت دهشته حين قالت له « زينب » فى جد رصين :

ــ أعرف ذلك يا أبى . . . أخبرتنى به أمى .

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً .

* * *

وأرانى قد تناولت الحديث عن صبا « زينب » لألمح امتداد هاتيك الظلال الحائمة حول مهدها . فلأترك هذا إلى حين ، ولأعد إلى طفولتها الباكرة ، فأراها تستقبل من الأحداث الكبرى ظلال الواقع ، ولما تزل طفلةً فى الخامسة من عمرها !

....

الصِّبَا الحَزين

لم تكن « زينب » جاوزت الخامسة ، حين لبّى جدها ﷺ نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر حيث قبض فى بيت أم المؤمنين « السيدة عائشة » . بعد أن فتح « مكة » وطهّر البيت الحرام من الأوثان ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وخُتم الوحى . . .

ولعل الطفلة تابعت المشهد الرهيب لتشييع جدها العزيز إلى مثواه وإن لم تدرك فى حداثتها الغضة ، مغزى تلك الرحلة الأليمة المحتومة ، أو تفهم مدار ذلك الحوار بين الصديقين الصاحبين : « عمر وأبى بكر » ، يصيح أولهما :

ـــ إن محمداً لم يمت ، ووالله ليرجعّن كما رجع موسى !

ويحاول أبو بكر أن يرده عن قالته ، ثم لما رأى إصراره عليها صاح فى الجمع الحاشد :

ـــ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم يتلو الآية المحكمة :

﴿ ومَا محمدٌ إلّا رسولٌ قد خلتْ من قبلهِ الرسلُ ، أفئن ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابِكم ، ومن ينقلبْ عَلَى عَقبيْه فلن يَضُرَّ اللّهَ شيْئًا ، وسَيجزِى اللّهُ الشاكرِينَ ﴾ .

أجل ، لا أقول إن بنت الخامسة أدركت مغزى هذا أو ذاك ، ولكنها رأت ـــ دون شك ـــ مشاهد الذهول والحزن والجزع ، وأصغت إلى عويل الباكيات وصراخ الحزانى . ومن يدرى ما الذى كان يدور بخلد الصغيرة الذكية وهى تلقى جدها الكبير صامتاً فى تلك المناحة المفجعة ، ساكناً والدنيا من حوله ضاجة صاخبة ، هائجة مائجة ، ثائرة فائرة ، كأنما قد لفَّها إعصار ؟ !

أى خوف غامض قد غزا قلبها الخلىّ إذ ذاك ، وروّع نفسَها الساذجة الآمنة ؟

أى طائف من الحزن المبهم قد طاف بها فى عامها الخامس فأسمعها صدى الموت ، وأراها موكب الرحيل ؟ .

إنى لأتمثلها واقفة هناك ، تشهد جدها فى ضجعة الموت ، وترى رأسه يسقط فى حجر « عائشة » فتضعه فى رفق على وسادة ، وتسبل عليه ثيابه ، وتغمض عينيه ، وتقبل الجبين العزيز ، ثم تنطلق إلى الرحبة فيرتفع الصياح والعويل ، متنقلاً من حجرة « السيدة عائشة » إلى دور النبى ، ومنتشراً من بعد ذلك إلى « أُحد » ، و « قباء » و « بدر » إلى أم القرى فما وراءهما من الجزيرة العربية .

ويُغسل الجسد الزكى ويطيّب بالمسك ، ويكفن بأثواب ثلاثة ، ثم يؤذن للناس فيدخلون جماعات ليودعوا أعزّ راحل . . .

أتمثلها هناك . . . تحدق فى القوم وهم يحفرون حفرة عميقة فى بيت الحبيبة عائشة ، ثم يأتى ثلاثة من الصحابة ــ تعرف فيهم زينب أباها علياً ــ فيُدْلون الجسد فى الحفرة مترفقين ، ويبنون لبناتٍ فوقه ! . . .

أتمثلها كذلك ، وهى تلوذ بحضن أمها « الزهراء » تلتمس مأمناً من خوف وفزع ، فإذا الأم حزينة ولهى . . .

وتنعطف الطفلة إلى أبيها ، فتراه أشد ما كان حزنا وغماً .

* * *

حدث هذا بمرأى من الصبية أو مسمع ، وما أحسبها نسيت مع الأيام ، مشهداً أليماً طالعته فى صباها حينذاك ، يوم حاول « عمر بن الخطاب رضى الله عنه » أن يدخل بيت « الزهراء » كى يحمل « علياً » على البيعة « لأبى بكر رضى الله عنه » خشية تفرق الكلمة وتمزق الشمل ، فلم تأذن له أم أبيها رضى الله عنها . .

ومضى « عمر » محزوناً يسأل « أبا بكر » أن ينطلق معه إلى « فاطمة » ليسترضياها .

وانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا « علياً » فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما أخذا مجلسيهما وتكلم « أبو بكر » قال :

ـــ يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلىّ من قرابتى ، وإنك أحبُّ إلىّ من عائشة ابنتى ، ولوددتُ يوم مات أبوك أنى متُّ ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أنى سمعته ﷺ وآله يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

فأدارت « فاطمة » إليهما وجهها الشاحب الحزين وسألت :

ـــ أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ وآله تعرفانه وتعملان به ؟

قالا معاً : « نعم » .

فقالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : « رضى فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحبَّ فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ » .

قالا : « نعم سمعناه من رسول الله ﷺ وآله » .

وعادت فأشاحت بوجهها الحزين .

وخرج الزائران يبكيان !..

حتى إذا لقيا القوم ، سألهم « أبو بكر » أن يقيلوه من البيعة فأبوا ...

* * *

وتمضى الأيام التى أعقبت وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كئيبة مثقلة بالأحزان و « زينب » جالسة إلى فراش أمها العليلة بادية اللهفة والخوف والإشفاق .

وغشيت البيتَ سحبٌ من الوجوم والانقباض « فما يذكر التاريخ أن أم أبيها الزهراء ضحكتْ بعد وفاته حتى لحقت به » ، وما يعرف أنها غادرت مخدعها إلا إلى قبر أبيها تبكيه ، وتأخذ بيدها حفنة من تراب القبر فتجعلها على عينيها ووجهها وهى تنشج :

ماذا على من شمّ تربة « أحمد »   ألا يشمَّ مدَى الزمانِ غَوَاليا
صُبَّتْ علىَّ مصائب لو أنها   صُبَّتْ على الأيامِ عُدْنَ لياليا

فيبكى الناس لبكائها .

وجرؤ « أنس بن مالك » يومًا فاستأذن على « فاطمة » رضى الله عنهما ، ومضى يتوسل إليها أن تترفق بنفسها ، وأن تلوذ بالصبر الجميل على المصاب الجليل ، فتجيبه سائلة :

ـــ كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟

فيبكى « أنس » بكاء شديدًا ، وينصرف عنها متفجعًا .

وضربوا بها المثل فى الحزن ، وعدوها من البكائين الخمسة أو الستة فى التاريخ : بكى « آدم » ندمًا ، وبكى « نوح » قومَه ، وبكى « يعقوب » ابنَه « يوسف » ، وبكى « يحيى » خوفَ النار ، وبكت « فاطمة » أباها .

وسيأتى حفيدها بعدها فيأخذ مكانه إلى جانبها فى هذه السلسلة الأليمة للبكائين ، ويضاف اسمُه إلى أسمائهم فيقال : « ... وبكى علىٌّ زينُ العابدين أباه الحسين » .

* * *

ثم أدركتها رحمة الله فلحقت بأبيها بعد قليل : قيل بعد ستة أشهر ، وقيل بل ثلاثة ، وقيل أقل من ذاك .

وتكرر المشهد أمام « زينب » .

ولكنها فى هذه المرة كانت أنضج إدراكًا وأرهف حسًا ، وفقدُ الأم جدير بأن ينضج الوعىَ ويذيق الطفولة مرارة الحزن .

لم يعد خوفها غامضًا ولا حزنها مبهمًا . فهى تعرف أن أمها ترحل إلى غير عودة إلى الحياة الدنيا ، وهذه هى ــ ابنتها زينب ــ تحدق فى القوم وهم يودعون جثمان أمها « الزهراء » فى ثرى « طِيبة » بجوار أبيها عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التحية ...

وتصغى « زينب » يومئذ إلى أبيها ، وقد تمهل عند قبر « الزهراء » يندبها مودعًا :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضعَ تعزٍّ !

(إنا لله وإنا إليه راجعون) فلقد استُرجعت الوديعةُ وأُخذَت الرهينةُ ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارَكَ التى أنت بها مقيم . والسلام عليكما سلامَ مودِّع لا قالٍ ولا سئم ! فإن أنصرفْ فلاَ عنْ ملالةٍ ، وإنْ أُقم فلا عن سوءِ ظنٍّ بما وعد الله الصابرين » .

* * *

وتعوَد « زينب » إلى الدار ــ وفيها أخواها ، وأختها الشقيقة الصغرى أم كلثوم ــ فتلقى الدار من أمها قفرًا .

وتفقدها إذا جنَّ الليل وإذا طلع النهار ، فلا تجد إلا الوحشة والفراغ ...

ويحدثها قلبها أن قد فقدت أعزَّ وأجمل ما فى الحياة ، فتحس لذلك ألمًا مرهقًا يحاول أبوها أن يخففه عنها بفيض من رعايته .

وقد وفدت على دار « على بن أبى طالب » ــ على فترات بعد وفاة « الزهراء » زوجات أخريات ولدن له البنين والبنات :

« أم البنين بنت خزام بن خالد العامرية » ولدت لعلى : العباس ، وجعفرًا ، وعبد الله ، وعثمان .

وليلى بنت مسعود بن خالد النهشلى الدارمية ، ولدت له : عبيد الله ، وأبا بكر .

وأسماء بنت عميس الخثعمية : ولدت له :محمدا الأصغر ويحيى .

والصهباء بنت ربيعة التغلبية ، ولدت له : عمر ، ورقية .

وأمامة بنت أبى العاص بن الربيع ـ أمها زينب بنت الرسول ﷺ ـ ولدت له : محمدًا الأوسط .

وخولة بنت جعفر الحنفية ، ولدت له : محمدًا الأكبر المعروف بابن الحنفية .

وأم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية ، ولدت له : أم الحسن ورملة الكبرى .

ومخبأة بنت امرىء القيس بن عدى الكلبية ، ولدت له : بنتًا ماتت صغيرة .

وفدت هؤلاء الزوجات[1] ، لكن مكان « الزهراء » ظل شاغرًا فى بيت زوجها الإمام « على » وأما فى قلوب أبنائها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ، فهو أبدًا شاغر ...

وتريد الرواية أن تنفرد « زينب » من دون هؤلاء الأشقاء ، بوصية من أمها « الزهراء » على فراش الموت وهى : « أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أُمًّا » .

ولم تنس « زينب » هذه الوصية .

وإذا استطعنا أن نتناسى إلى حين ، أحزان تلك الصبية التى رُوِّع عامها الخامس بشهود مأساة الموت مرتين ، فى أعز الناس عليها وأحبهم إليها ، وأن نكف عن التحديق فى تلك الظلال التى حامت على مهدها ، والأحزان التى

---

(١) من نسب قريش . قابل على جمهرة الأنساب لابن حزم ، وانظر فى (المحبر : ٥٥) أصهار الإمام على كرم الله وجهه .

أرهقت صباها ، ألفينا جانبًا آخر من الصورة مشرقًا ، حيث تبدو « زينب » فى بيت أبيها ذات مكانة أكبر من سنها : أنضجتها الأحداث ، وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة ، فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم ، أمًّا لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وإيثار ، وإن أعوزتها التجربة والاختبار .

وما بالغريب أن تشغل « زينب » مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها إذا لم نقس زمانها بزماننا ومكانها بمكاننا ، فنزعم أن هذه سن اللهو واللعب ! تلك الحياة البدوية التى تنضجها شمس الصحراء بحرارتها اللافحة ، وتهبها من حدة اليقظة وامتداد البصر ودقة الحس وسرعة الإدراك ، ما لا يتاح للفتاة فى زماننا هذا الناعم المترف .

ولماذا نبعد ، وإن من أمهاتنا وجداتنا من حملن أعباء الزوجية والأمومة وهن فى العاشرة أو بعدها بقليل ، على حين نرى — نحن بناتهن — أن سن الخامسة والعشرين هى الملائمة لحمل مثل هذه الأعباء ؟ !

لقد تزوجت أختها الصغرى « أم كلثوم » وهى فى حداثتها الغضة قبل البلوغ ، أميرَ المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، وتزوجت السيدة « عائشة بنت أبى بكر » قبل العاشرة ، ولم يرَ القوم فى مثل هذا ما يثير دهشة أو عجبًا ، وإن رآها أكثر الغربيين فى يومنا هذا ، أعجوبة الأعاجيب . وإنما قلت : أكثر الغربيين ، لأن فيهم قلة ، استطاعت أن تعقل هواها فقدرت الزمان والمكان ...

الفصل الثانى

عقيلة بنى هَاشِــم

ــ الزوجــة
ــ الأبنَــاء
ــ البَيــت

عقيلة بنى هَاشِــــم

اختار « الإمام على كرم الله وجهه » لابنته حين بلغت مبلغ الزواج ، مَن رآه جديرًا بها حسبًا ونسبًا . وقد أقبل عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش ، ذوى الشرف والثراء ، فكان « عبد الله بن جعفر » أحق هؤلاء جميعاً بزهرة آل البيت وعقيلة بنى هاشم .

* * *

أبوه جعفر بن أبى طالب : ذو الجناحين وأبو المساكين ، شقيق « على » وحبيب « النبى » الذى قال فيه « أبو هريرة » : « ما ركب أحد المطايا ... ولا احتذى النعالَ أحدٌ بعد رسول الله ﷺ وآلهِ ، أفضل من جعفر بن أبى طالب » .

هاجر بدينه إلى الحبشة إبان الاضطهاد ، ثم رجع مع بقية من كان بالحبشة من المهاجرين وصادف وصوله إلى « المدينة » فتح « خيبر » فالتزمه الرسول ﷺ معانقًا وجعل يقبله بين عينيه ويقول : « ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحًا : بقدوم جعفر ، أم بفتح خيبر » ؟

وسُمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « الناس من شجر شتى ، وأنا وجعفر من شجرة واحدة » .

وخرج ، رضى الله عنه ، مع الجيش الذى توجه إلى مؤتة ، من بلاد الروم فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد جعل النبى ﷺ لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، « فإن أصيب زيدٌ فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس » .

ومضى جند الإسلام حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم جموع « هرقل » فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ، ودارت المعركة طاحنة : قاتل « زيد » رضى الله عنه ، براية ﷺ حتى مزقته رماح القوم ، فأخذها « جعفر » وقاتل بها حتى قطعت يمناه فأخذها بيساره وقاتل حتى قطعت يسراه ، فاحتضن الراية حتى استشهد ، رضى الله عنه[1] .

وأم عبد الله بن جعفر ، « أسماء بنت عميس » : أخت « ميمونة أم المؤمنين » و« سلمى » زوج حمزة بن عبد المطلب ، و« لبابة » زوج العباس ابن عبد المطلب .

تزوجها « جعفر » فكانت أم أولاده جميعا ، فلما قُتِل تزوجها « أبو بكر » فولدت له محمداً ، ثم توفى عنها فخلف عليها « على بن أبى طالب » فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر . وفى رواية « الواقدى » أنها ولدت له عوناً ويحيى .

* * *

وُلِدَ « عبدُ الله بن جعفر » بأرض الحبشة ، لما هاجر أبواه إليها ، فكان أول من ولد بها من المسلمين . وينقل « ابن حجر » فى (ترجمة عبد الله بالإصابة) أن النبى ﷺ قال فيه : « وأما عبد الله فيشبه خُلقى وخَلقى » ثم أخذ بيمينه فقال : « اللهم اخلف جعفراً فى أهله ، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه ـــ قالها ثلاث مرات ـــ وأنا وليُّهم فى الدنيا والآخرة »

وأسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر قال : لقد رأيتنى وقثم وعبد الله ـــ ابنى العباس والزبير رضى الله عنهم ـــ ونحن صبيان نلعب إذ مرّ رسول الله ﷺ فقال : « ارفعوا هذا إلىَّ » فحملنى أمامه . وقال لقثم : « ارفعوا هذا إلىَّ ، فحمله وراءه ، ثم مسح على رأسى ثلاثا ، كلما مسح قال : اللهم اخلف جعفرًا فى ولده .» .

---

(١) السيرة الهشامية : ٤ / ١٥ ، وطبقات ابن سعد ، غزوة مؤتة . وترجمة جعفر رضى الله عنه فى الإصابة ، ومناقبه فى (مجمع الزوائد للهيثمى : ٩ / ٢٧١) مع (نسب قريش ، وجمهرة الأنساب) .

وفى الصحيحين : قال ابنُ الزبير لابن جعفر رضى الله عنهم : أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابنُ عباس ؟ قال : نعم ، فحملنا وتركك »[1]

كان « عبد الله » سيداً شهماً كريماً عفًّا ، سمى قطب السخاء ، لا يبيع معروفاً ولا يرد سائلاً ؛ عن « محمد بن سيرين » أن رجلاً من التجار جلب سكراً إلى المدينة فكسد عليه فبلغ خبره « عبد الله بن جعفر » فأمر قهرمانه أن يشتريه ويهبه للناس .

ووجه إليه « يزيد بن معاوية » مالاً جليلاً هدية ، فلما تلقى عبد الله المال ، فرقه فى أهل « المدينة » ولم يدخل داره منه شيئًا ، فذلك قول « عبد الله ابن قيس الرقيات » :

وما كنت إلا كالأغر « ابنِ جعفر » رأى المالَ لا يبقى ، فأبقى له ذكرا

وقول « الشماخ ، معقل بن ضرار » :

إنك يا ابنَ جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارقٍ إذا أتى
وُربَّ ضيفٍ طرق الحَىَّ سرى صادف زاداً ، وحديثاً ما اشتهى

وروى « ابن قتيبة » فى (عيون الأخبار) أن « معاوية » لما قدم « المدينة » منصرفًا من « مكة » بعث بهداياه وصِلَاته إلى « الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر » فى عدد من أشراف قريش . ثم أوصى رسله أن يتريثوا حتى يروا ما يفعل كل رجل بهديته ، فلما خرج الرسل قال معاوية لمن حوله :

ــ إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم : أما « الحسن » فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ويهب ما بقى من حَضَرَه ، ولا ينتظر غائباً .

وأما « الحسين » فيبدأ بأيتام من قُتِلَ فى صفين ، فإن بقى شىء نحر به

---

(1) متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر ، رضى الله عنهما : والنقل من (اللؤلؤ والمرجان : ك فضائل الصحابة : ح ١٥٧٢)

الجزر وسقى به اللبن . وأما « عبد الله بن جعفر » فيقول لمولاه : يا بديح ، اقضِ به دينى ، فإن بقى شىء فأنفذ به عِدَاتى .

وأما فلان ...

قالوا : وعاد الرسل فحدثوا بما رأوا وما سمعوا ، فكان الأمر كما قال « معاوية » .

ولقد أسرف « عبد الله بن جعفر » على نفسه فى الجود ، لا يبالى أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه[1] ذكره ابن حبيب فى (أجواد الإسلام) وخصه بذكر ماله فى الجود من « أحاديث كثيرة عجيبة » ملأت صفحاتٍ من كتابه (المحبَّر) ، وختمها بقوله : « وأحاديثه فى الجود أكثر من أن تستقصى »[2] .

* * *

أثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت « زينب بنت الزهراء » لعبد الله بن جعفر أربعة بنين : علياً ، ومحمداً ، وعوناً الأكبر ، وعباساً ، كما ولدت له فتاتين ، إحداهما « أم كلثوم » التى أراد « معاوية » بدهائه السياسى ، أن يزوجها من ابنه « يزيد » كسباً للهاشميين ، فترك « عبد الله » أمر ابنته لخالها « الإمام الحسين » الذى اختار لها « القاسم بن محمد بن جعفر بن أبى طالب » . حفيد ذى الجناحين .

و لم يفرق الزواج بين « زينب » وأبيها وإخوتها ، فقد بلغ من تعلق « الإمام على » بابنته وابن أخيه ، أن أبقاهما معه ، حتى إذا ولى أمر المسلمين وانتقل إلى الكوفة ، انتقلا معه فعاشا فى دار الخلافة ، موضع رعاية أمير المؤمنين وإعزازه ، ووقف عبد الله بجانب عمه فى نضاله ، فكان أميرًا من أمراء جيشه فى « صفين » .

وعرف الناس مكانة « عبد الله » من بيت النبوة ، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة إلى أمير المؤمنين ، وإلى ولديه الحسن ، والحسين ، فلا يُرَدُّ له طلبٌ ولاَ يَخِيبُ فيه رجاء .

---

(١) وانظر مناقب عبد الله بن جعفر رضى الله عنه فى (مجمع الزوائد : ٩ / ٢٧٥) .

(٢) المحبر (فصل أجواد الإسلام) ١٤٧ ــ ١٥٠ .

فى ترجمته رضى الله عنه بالإصابة عن « محمد بن سيرين » أن دهقانًا من أهل السواد كلم « ابن جعفر » فى أن يكلم « عليًا » فى حاجة ، فكلمه ، فقضاها ، فبعث إليه الدهقان أربعين ألفًا فردّها قائلًا : إنا لا نبيع معروفًا .

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى (مقاتل الطالبيين) أنه لما مات « الحسن ابن على » أراد آل البيت أن يدفنوه مع رسول الله ﷺ كما أوصى قبل وفاته ، « فركب بنو أمية فى السلاح ، وجعل مروان بن الحكم يقول :

★ يا رب هيجا هى خير من دعه ★

أيدفن عثمان فى أقصى البقيع ، ويدفن الحسن فى بيت رسول الله ﷺ ؟ لا يكون ذلك ابَداً ، وأنا أحمل السيف » .

وأبى « الحسين » أن يدفن أخاه إلا مع جده ، فكادت الفتنة تقع ، لولا ، كلمة من « عبد الله بن جعفر » لابن عمه « الحسين » قال :

« عزمتُ عليكَ بحقى ألا تكلم بكلمة » .

ومضى بجثمان ابن عمه « الحسن » إلى البقيع ، وانصرف « مروان بن الحكم » .

* * *

كيف كانت « زينب » تبدو فى ريعان شبابها ؟ ...

تُمِسكُ المراجع التاريخية عن وصف صورتها لنا فى تلك الفترة ، إذ هى فى خدرها محجبة لا نكاد نلمحها إلا من وراء ستار ، غير أنها سوف تخرج من خدرها بعد عشرات سنين ، فى محنة كربلاء . فيصفها من رآها وقتئذ رأى العين فيقول فيما نقل « الطبرى » :

« ... وكأنى أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس طالعة ... فسألت عنها ، فقالوا : هذه زينب بنت على » .

ويصفها أنصاريٌّ رآها عقب وصولها إلى مصر ، بعد مصرع الحسين رضى الله عنهما ، فيقول :

« ... فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر » .

كانت « السيدة » يومئذ فى الخامسة والخمسين من عمرها : غريبة متعبة ، مفجوعة ثكلى . فكيف بها إبان الشباب قبل أن تأكلها السنون وتطحنها الأحزان وتجرعها كأس الثكل حتى الثمالة ؟

وأما شخصيتها ، فيبدو أننا سوف ننتظر ـــ هنا أيضاً ـــ ريثما تكشف الأحداث عن قوة جنانها وثبات فؤادها ، وتبديها لنا فى أنبل صورة من الشجاعة والإباء والترفع .

وسيبدى المؤرخون إعجابهم بموقفها المشهور من « يزيد بن معاوية » ويدون لها ابن الأثير فى (أسد الغابة) وابن حجر فى (الإصابة) ما اتصلت به الرواية من قوة برهانها وقوة حجتها وموفور شجاعتها وعقلها .

وسوف يسمعها أهل عصرها فى كربلاء ، وفى مجلس والى « الكوفة » وفى حضرة « يزيد بن معاوية » ، فتبهرهم بلاغتها ، ويشهدون لها بسحر البيان .

روى « الجاحظ » فى (البيان والتبيين) عن « خزيمة الأسدى » قال : « دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين ... فلم أر خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين ، على بن أبى طالب » .

* * *

هذه هى « زينب » كما رأيناها بعد كربلاء ، وكما بَدَتْ لنا منها ملامح فى إبان شبابها ، حيث نسمع أنها كانت تشبه أمها لطفاً ورقة ، وتشبه أباها علماً وتقى .

وكان لها ـــ فيما تقول بعض الروايات ـــ مجلس علمى حافل ، تقصده جماعة من النساء اللواتى يردن التفقه فى الدين .

وهكذا اجتمع لها مالم يجتمع لسواها من نساء جيلها ، فكانت « عقيلةَ

بنى هاشم » يروى عنها « ابن عباس » رضى الله عنهما فيقول : « حدثتنى عقيلتنا زينب بنت على »[1] .

وغلب عليها هذا اللقب ، فكان يقال « العقيلة » فيُعرف أنها هى ، ويعتز أبناؤها بهذا ، فيعرفون (ببنى العقيلة)[2] .

* * *

(١ ، ٢) الاصفهانى : (مقاتل الطالبيين) ٩١ .

الفصل الثالث

بطَـــلة كربَــلاء

- نذر العاصفة
- رَحِيـــــــل
- دَليـــل الركب
- محاوَلة .. وإصرار
- نحوَ وَادِى المؤت
- يَـــوم الطـــفّ

نذرُ العَاصِفَة

لم نكن لنلقى بأنفسنا فى غمار الأحداث السياسية العنيفة التى شهدها (البيت العلوى) لو أن « العقيلة » أقامت بعيدة عن ميدان الأحداث وبقيت فى الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لأعباء الزوجية والأمومة .

أما وقد ساقتها الظروف إلى صميم الدوامة الهادرة التى تلف الدولة الإسلامية فى عنف ، فنحن مضطرون إلى أن نمضى فنرقب النذر التى آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء .

وقد تمر فترة طويلة تغيب « زينب » خلالها فى غمرة الأحداث هذه ، بل قد نفقد أثرها أحيانًا فى ضجة الدوى الراعد الذى كان يصم الآذان ، ويدير الرؤوس ، لكنا سنجدها أخيرًا بعد أن تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء) .

ومن هنا يبدو عذرنا إذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظانٌّ أنها لا تمس « زينب » إلا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب ، ومكانها من البيت الهاشمى ، على حين نرى فى كل هذه المعارك ، مقدمات لها خطرها فى توجيه حياة « زينب » وأثرها فى إعدادها لدورها المقدور ...

* * *

قدر « لزينب » أن ترى مجرى الحوادث عن كثب : شهدت الأمر ينتقل من « أبى بكر » إلى « عمر » ثم إلى « عثمان » عام ٣٥ هـ ، لتبدأ المعركة الطاحنة ، معركة الفتنة التى لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا .

سمعت أصداء صوت « عائشة أم المؤمنين » وكانت بمكة تريد عُمرة — وهى تحض على المطالبة بدم عثمان الشهيد ، وتصيح فى الناس : « إن الغوغاء

من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة ، وقد سفكوا الدم الحرام فى الشهر الحرام ، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . . . » [1]

ثم تخرج « عائشة » على الجمل من المدينة ، قائدة لمن خرجوا يقاتلون الإمام « على ، أمير المؤمنين » .

وما كان « على » قاتِلَ « عثمان » أو المحرض عليه أو الراضى به ، ولا كانت « عائشة » راضية عن « عثمان » أو ولية دمه المسفوك ، بل تكلمت فيه قبل مصرعه بما أنكرت منه .

ومن المؤرخين من يذهب إلى أنها ما كانت لتثور ، لو أن الأمر لم ينتقل إلى « على بن أبى طالب » . روى « المدائنى » أنه لما قتل « عثمان » كانت « عائشة » بمكة ، وبلغها النبأ وهى خارجة ، فقالت وهى لا تشك فى أن « طلحة بن عبيد الله التيمى » صاحب الأمر : « إيه يا صاحب الإصبع — وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت إصبعه دفاعًا عن الرسول ﷺ يوم أُحد — إيه أبا شبل ، إيه ابن عم ! لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يباع له حثوَ الإبل » .

ثم لما عرفت « عائشة » بعد أن قضت العمرة بما تم من البيعة « لعلى » ، أمرت بردِّ ركائبها إلى مكة وهى تقول : قتلوا ابن عفان مظلومًا ...

سألها سائل : ألم أسمعك تقولين وذكرها ببعض ما قالت . .

وروى « الطبرى » فى تاريخه أنه لما قتل « عثمان » تساقط الهُرَّابُ إلى « مكة » و « عائشة » هناك تريد العمرة ، فأخبروها أن قد قتل « عثمان رضى الله عنه » فقالت ما معناه

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥ / ٦٥ باختصار .

ــ هذا غب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح .

حتى إذا قضت عمرتها وخرجت ، لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث ، يقال له « عبيد بن أبى سلمة » المعروف « بابن أم كلاب » ، سألته عما وراءه ، فأصم ودمدم . . .

فلما استحثته قال : « قتل عثمان » وسكت .

قالت : « ثم صنعوا ماذا » ؟ فقال :

ــ أخذها أهل « المدينة » بالإجماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز : اجتمعوا على « على بن أبى طالب » .

فقالت : ردونى ، ردونى »

ورجعت إلى مكة وهى تقول كلمتها : قتل والله « عثمان » مظلومًا . والله لأطلبن بدمه ...

لعل أم المؤمنين السيدة عائشة ، لم تنس أنه زوج الزهراء بنت « السيدة خديجة » الودود الولود التى شغلت من قلب زوجها ، فى حياتها وبعد الممات ، مكانًا لم تستطع « عائشة » بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، أن تزحزحها عنه .

أو لعلها لم تغفر لـ « على » موقفه فى فرية الإفك ، فقد كان ممن أشار على الرسول ــ ﷺ وآله ــ بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقال للنبى عليه الصلاة والسلام : « سل الخادم وخَوِّفها . . »

وقيل كثير وكثير . . . أصغَتْ إليه « عائشة » ووعَتْه ، ولعلها لم تستطع أن تتناساه !

* * *

كانت « زينب » حين شبت الفتنة ، فى الثلاثين من عمرها ، تعيش مع

زوجها وبنيها فى دار الخلافة ، وترقب عن كثب وميض تلك الفتنة ، وتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة « الجمل » ليلقى « معاوية » فى جيش الشام « بصفين » ثم يفرغ منه ليلقى الخوارج فى « النهروان » وهكذا على مدى خمس سنين طوال .

ولا يذكر التاريخ هنا « لزينب » مشاركة فعلية فى الملحمة ، وإنما انفردت « عائشة » بدور البطولة فى المأساة المعروفة فى التاريخ باسم موقعة « الجمل » الذى ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع المعارضة الثائرة ، وكانت هى القائدة العليا للجيش : تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء ، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار مصدرة بالعبارة التالية :

« من عائشة ابنة أبى بكر ، أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ﷺ وآله ، إلى ابنها الخالص فلان . . . أما بعد فإن أتاك كتابى هذا فاقدم فانصرنا . . »

ولباها من لبى ، ورد عليها من ردّ . .

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم فى سخاء ...

فلما فصل جيشها من « مكة » كانت عدته ثلاثة آلاف سارت بهم حتى دخلت « البصرة » ، ووقفت تخطب فى الجمع المحتشد هناك تحرض على قتلة عثمان :

« ... كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا ... فننظر فى ذلك فنجده بريئًا نقيًا وفيًا ، ونجدهم فجرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا تِرَةٍ ولا عذر ... » .

فهاج الناس وماجوا ، فأُسكِتَ لها الناسُ ، فقالت منذرة بعواقب مصرع أمير المؤمنين ، ذى النورين :

« إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غيَّر وبدّلَ ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة

حتى قُتل مظلومًا تائبًا ... قتلوه محرمًا ، ذبحًا كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشًا رمت غرضها بنبالها ، وأدمتْ أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئًا ولا سلكت به سبيلاً قاصدًا . أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، ولَيُسلَّطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب .

« أيها الناس ، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل دمَه ، مصصتموه كما يماص الثوب الرحيض ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابن أبى طالب بغير مشورة من الجماعة ، ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ؟

« ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولايدخل فيهم من شرك فى دم عثمان » .

....

وتصدى لها « الأحنف بن قيس » يقول : إنى سائلك ومغلظ لك فى المسألة ، فلا تجِدى علىّ . فما زال يسألها حتى قال : ألا تخبريننى يا أم المؤمنين ، أللحرب قدمت أم للصلح ؟ » .

أجابت وهى تكظم غيظها : بل للصلح .

فقال لها : « والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ، ما اصطلحوا على يديك ، فكيف والسيوف على عواتقهم ؟ » .

فلم تدر بم تجيب ، واكتفت بأن تقول فى ألم : « لقد استغرق حلمَ الأحنفِ هجاؤه إياى ، إلى الله أشكو عقوق أبنائى » .

* * *

وكان ما كان ، وعقر « الجمل » وكادت « أم المؤمنين السيدة عائشة » رضى الله عنها ، تُصاب لولا أن أنقذها أمير المؤمنين كرم الله وجهه ونادى مناديه :

« ألا يجهز على جريح ، ولا يتبع مُوَلٍّ ، ولا يطعن فى وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » .

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يرجع البصر فى جثث القتلى وقد بلغوا نحوًا من عشرة آلاف : كله مسلمون ، وفيهم الصحابة من آل البيت ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية . رضى الله عنهم

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث ، ورفع يديه إلى السماء ينشد فى ضراعة وابتهال :

إليك أشكو عُجَرِى وبُجَرِى

ومعشراً أغشوا علىَّ بصرى

قتلت منهم مُضَرِى بِمُضَرى

شفيت نفسى وقتلت معشرى

ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة . (١)

وأعيدت السيدة « عائشة » رضى الله عنها إلى « المدينة » بعد أن انفردت ببطولة الملحمة ، لم تترك لامرأة سواها مكاناً إلى جانبها ، اللهم إلا أن تكون كلمة عابرة أو مشهداً ثانوياً ليس بذى بال :

ودَّت أم المؤمنين « أم سلمة » أن تخرج لتنصر « الإمام علياً » لكنها كرهت أن تُبتَلَى بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « علياً »وقدمت إليه ابنها « عمر » قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنكَ لا تقبلُه منى ،

---

(١) الطبرى : ٦ / ٢٣١ حوادث سنة ست وثلاثين للهجرة ، ما كان من توجع « الإمام على » على قتلى يوم الجمل .

لخرجت معك . وهذا ابنى عمر ـــ والله لهو أعز علىّ من نفسى ـــ يخرج معك فيشهد مشاهدك » .

وأتت « السيدة عائشة » فقالت لها :

« أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ ... الله من وراء هذه الأمة !

* * *

لكن السيدة « عائشة » مضت فى طريقها ، وتخلفت أمهات المؤمنين عنها ـــ وكن قد خرجن معها إلى مكة ـــ مؤثرات أن يرجعن إلى « المدينة » إلا « حفصة بنت عمر » فإنها قالت : « رأيى لرأى عائشة تبع » .

وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة . فحال أخوها « عبد الله بن عمر » بينها وبين الخروج فأرسلت إلى عائشة معتذرة عن القعود . فقالت عائشة : يغفر الله لعبد الله بن عمر .» (١)

* * *

وأما السيدة « زينب » بنت الإمام على ، فلم نلمح لها أثرًا و لم نسمع لها صوتًا . وكأن القدر كان يدخرها لموقف من نوع آخر ، عندما يحين أوان ظهورها فى « كربلاء » بعد ربع قرن من يوم الجمل .

لكنها مع ذلك كانت هناك فى دار الخلافة ، حيث مركز الأحداث ، وقطب رحاها ! ترمق أباها أمير المؤمنين فى حب وقلق ، وهو يخوض المعركة تلو المعركة ، ويفرغ من موقعة « الجمل » ليلقى « معاوية » فى « صفين » ثم « الخوارج » فى « النهروان » ؛ وهكذا على مدى خمس سنوات ، لم يهدأ فيها يومًا . حتى كانت تلك الليلة المشئومة ، لتسع عشرة خلون من شهر رمضان

(١) تاريخ الطبرى : ٥ / ١٦٧ (سنة ٣٦ هـ) .

سنة ٤٠ هـ وقد خرج الإمام فى الفجر يصلى بالناس فى المسجد الأعظم بالكوفة ، و « زينب » فى الدار ما تدرى إلا وضجة تعلو آتيةً من ناحية المسجد ، مبددة أصداء الأذان الذى ارتفع منذ لحظات من مآذن الكوفة : حىَّ على الصلاة ، حىَّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر . . .

وأمسكت « زينب » قلبها فى ذعر مبهم ، وأصغت فى وجوم وقلق إلى الضجة وهى تقترب من دار الخلافة شيئاً فشيئاً ، حتى إذا بلغت ساحة الدار ميزت « زينب » صيحات مروعة ، تعلن ملء الفضاء : أن قد طُعِنَ أمير المؤمنين ....

جمعت « زينب » كيانها الموشك على التداعى ، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولاً على الأعناق ، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة ، من سيف « عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، الخارجى » :

وأكبت عليه تقبله وتغسل جرحه بدموعها ، وأختها « أم كلثوم إلى جانبها تصيح بالقاتل وقد جىء به مكتوف اليدين : أى عدو الله ، لا بأس على أبى ، والله مخزيك » .(١)

وسمعت « زينب » فيما سمعت من العُوَّاد ، خبرَ « ابن ملجم » : كان ثالث ثلاثة من الخوارج ، ائتمروا « بعلى ومعاوية وعمرو » ثأراً لإخوانهم قتلى « النهروان » وحسماً لذاك البلاء الذى استشرى منذ يوم التحكيم .(٢)

وقد خرج « ابن ملجم » من « مكة » وسار حتى قدم « الكوفة » فزار رجلاً من أصحابه من « تيم الرباب » فصادف عنده « قطام بنت أبى الأخضر » الخارجية ، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، سنة ٣٨ هـ وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها . فلما رآها « ابن ملجم » أخذت قلبه ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ / ٧٥ — ٧٧ ، ومقاتل الطالبيين ٣٦ .

(٢) انظر فى (تاريخ الطبرى : ٦ / ٨٧ سنة ٤٠ هـ خبر الرجلين اللذين خرجا لقتل عمرو بن العاص ومعاوية .

وأراد أن يخطبها فسألته : ما الذى تسمى لى من الصداق ؟

أجاب : احتكمى ما بدا لك .

فقالت فى عزم وصرامة :

« أنا محتكمة عليك : ثلاثة آلاف درهم ، وعبدًا ، وقينة ، وقتلَ علىّ بن أبى طالب » !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

لك جميع ما سألتِ . فأما قتلى « عليا » فأنى لى بذلك ؟

قالت على الفور :

ــ تلتمس غرته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسى وهناك العيشُ معى . . .

فنظر إليها متأملاً ثم قال : أما والله ما أقدمنى هذا المصير ــ وقد كنتُ هارباً منه لا آمن مع أهله ــ إلا ما سألِتِنى من قتل « على » فلكِ ما سألتِ ! ..

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياماً ثم أتاها مع صاحبيه فى الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم ... فكان ما كان .[1]

قال ابن أبى مياس المرادى :

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة   كمهر « قطام » من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينــة   وضرب « علىّ » بالحسام المصمم
ولا مهر أغلى من علىّ وإن علا   ولا فتك إلا دون فتكِ ابنِ ملجم

* * *

تكاثر العواد يقفون بباب أمير المؤمنين ضارعين داعين ، فلما لم يؤذن لهم فى الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الإمام : قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فوالله لقد كان الله فى صدرك عظيماً ...

(١) تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير : سنة ٤٠ هـ ومعهما جمهرة الأنساب لابن حزم : ١٨٩ ، ومقاتل الطالبيين ٣٢ .

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من « أثير بن عمرو ابن هانىء ». وكان متطبباً يعالج الجراحات ، أصابه « خالد بن الوليد » مع أربعين غلاماً فى « عين التمر » فسباهم .

ونظر « أثير » إلى جرح الأمير ، فدعا برئة حارة وانتزع عرقاً منها فأدخله فى الجرح ثم استخرجه ، فإذا عليه بياض الدماغ ، فقال له يائسا :

ــ يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك .

فدعا الإمام ولديه « الحسن والحسين » وتهيأ لكتابة وصيته ...[٢]

ومن تلك اللحظة ، لم تدع « زينب » فراش أبيها ...

كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل .

وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين !

طُعِنَ فى فجر الجمعة ، فمكث أقل من يومين ، وتوفى ليلة الأحد ، لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان عام ٤٠ هـ وهو ابن ثلاث وستين على أرجح الأقوال .

وكانت خلافته خمس سنين .

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية « معاوية » .

وترك العقيلة « زينب » لتشهد آل البيت وهم يصلون النار التى أشعلتها فتنة الثأر « لعثمان » رضى الله عنه .

* * *

وأما « السيدة عائشة » فيقال إنها حين أتاها النعى ، تمثلت بقول الشاعر :[١]

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قرّ عينًا بالإياب المسافر

(٢) انظرها فى : تاريخ الطبرى : ٦ / ٨٥ ، وابن الأثير ٣ / ١١٩ ومقاتل الطالبيين : ٣٨ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣ / ٤٠

ثم سألت : من قتله ؟ .

فقيل لها : رجل من مراد .

وسمعتها « زينب بنت أم سلمة » رضى الله عنهما فسألتها منكرة :

ــــ ألعلى تقولين هذا ؟

قالت : إنى أنسى ، فإذا نسيت فذكرونى . ثم أنشدت :

ما زال إهداءُ القصائد بيننا ... باسم الصديقِ ، وكثرةِ الألقاب

حتى تُرِكْتَ كأنَّ قولَك فيهمُ ... فى كلِّ مجتمع طنينُ ذبابِ

وفى رواية أن الذى جاءها بنعيه ، « سفيان بن أبى أمية » .

* * *

ولكنها لم تلق عصاها و لم تستقر بها النوى ، فإن مقتل « الإمام على » كرم الله وجهه لم يكن سوى حلقة من سلسلة الفواجع التى ألمت بآل البيت ، ودفعت بهم طعاماً لنار الفتنة العمياء . . .

ثكلت « زينب » أباها .

وجاء دور شقيقها « الحسن »

بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

« ... لقد قُبِضَ فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلَّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع منها خادماً لأهله » .[1]

ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه . . .

وانتهى هذا الدور ــــ دور الحسن ــــ بعد عشر سنين . .

حاول فى أولها أن يقف لخصمه الداهية « معاوية » ، فخذله أهل الكوفة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩١ ، ومقاتل الطالبيين : ٥١ .

فكان أنْ تنازل عن الخلافة « لمعاوية » بعد أن شدَّ بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام بغلته وطعنته فى فخذه ! فازداد لهم بغضاً ومنهم رعباً ، وولى عنهم وهو يقول : « يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى » .[1]

ومرّضت « زينب » أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها إلى حين ، وظنت أن نزول « الحسن » عن حقه منجيه من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف القتلة !

ولكن « معاوية » كان يريد الخلافة ملكاً أموياً ، ولن يستطيع أن يأخذ البيعة لابنه « يزيد » والحسن بن على حى يتنفس ! ..

ولم يكن عهده « للحسن » أن يلى الأمر من بعده ، هو الذى يشغله ويهمه ، بل اليقين بأن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلاً من « الحسن بن على » سبط النبى صلى الله عليه وسلم .

وإن معاوية ليذكر تماما ، يوم خطب فى الناس ــ بعد أن تنازل له الحسن ــ فذكر « علياً » فنال منه ، ونال من « الحسن » فقام « الحسين » ليرد عليه فأخذ « الحسن » بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبى على ، وأنت معاوية وأبوك صخر . وأمى فاطمة وأمك هند ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدك حرب ، وجدتى خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً » .

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٥ ، مع الإصابة ٢ / ١٣ .

وارتفع صوت يقول : ونحن نقول : آمين !

وردد آخرون : ونحن أيضاً نقول آمين !

أيمكن أن يحقق « معاوية » مأربه و « الحسن » ملء قلوب هؤلاء الناس وإن خذلته سيوفهم رهبة من « معاوية » ؟!

قالوا : وانصرف « الحسن » بعد تنازله عن الخلافة إلى « المدينة » فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد « معاوية » البيعة لابنه « يزيد » فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر « الحسن بن على » فيشاع أنه مات مسموماً . وأن الذى تولى ذلك من « الحسن » ، زوجته « جعدة بنت الأشعث بن قيس الكِندية »[1]

فخلف عليها رجل من « آل طلحة » فأولدها ، فكان إذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كلام ، عيروهم وقالوا : يا بنى مسمة الأزواج ...[2]

* * *

وشيعت « زينب » أخاها ، ثم آبت إلى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها بالبقيع . وقد صلّى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة . وفى الخبر أن الإمام الحسين قدمه للصلاة على أخيه ، رضى الله عنهما ، وقال : لولا أنها سُنة ، ما قدمتُك .

وجاء الدور على الإمام الحسين ...

---

(١) الاستيعاب ، ترجمة الحسن رضى الله عنه ، من طريق « عمر بن شبَّة وأبى بكر بن أبى خيثمة وعلى هامش ترجمة الإمام الحسن بالاستيعاب نقلا من هوامش (الاستيعاب) ما نصه : نسبة السم إلى معاوية غير صحيحة ، لما فى (تاريخ ابن خلدون) : ما ينقل من أن معاوية دس له السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث . فهو من أحاديث الشيعة . وحاشا لمعاوية مثل ذلك .

(٢) مقاتل الطالبيين : ٧٣ .

الهجـــرة

قال أبو عمر ابن عبد البر : وكان معاوية قد أشار بالبيعة إلى يزيد ، ابنه ، فى حياة الحسن وعرض بها ، ولكنه لم يكشفها ولا عزم عليها إلا بعد موت الحسن . وروينا من وجوه أن الحسن بن على لما حضرته الوفاة قال للحسين : يا أخى ، إن أبانا رحمه الله تعالى لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استشرف لهذا الأمر ورجا أن يكون صاحبه ، فصرفه الله عنه ووليها أبو بكر . فلما حضرت أبا بكر الوفاة تشوف لها أيضا فصُرِفَتْ عنه إلى عمر . فلما احتضر عمر جعلها شورى بين ستةٍ هو أحدهم فصرفت عنه إلى عثمان . فلما هلك عثمان ، بُويع ثم نوزع حتى جرد السيف فى طلبها فما صفا له شىء منها . وإنى والله ما أرى أن يجمع الله فينا ، أهلَ البيت ، النبوة والخلافة . فلا أعرفن ما استخفك أهل الكوفة فأخرجوك »[1]

* * *

جاء دور « الحسين » فتهيأت « زينب » لترعى أخاها وهو يرى الأمر يخرج من بيت « النبى » إلى بيت « أمية » ملكاً موروثاً .

ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة « الحسن » ست سنوات ، حتى دعا « معاوية » جهراً إلى البيعة لابنه « يزيد » من بعده ، فاستوثق له الناس راضين أو مكرهين ، غير خمسة نفر لم يكن فيهم من هو أحق بالغضب لهذه البيعة من « الحسين بن على » ولد « الزهراء » وسبط النبى ﷺ .

وعاش « معاوية » أربع سنوات بعد أخذه الناس بالبيعة لابنه ، والإمامُ

(١) الاستيعاب ، ترجمة الإمام الحسن . وفى أسد الغابة : « فلا يستخفنك أهل الكوفة فيخرجوك » .

« الحسين » عند موقفه ، لا يرضى أن يعترف بيزيد ولى عهدٍ للأمة . .

أفأنكروا على غذىِّ النبوة ، حقه فى الخلافة ، وهو التقى النقى العالم الفقيه ، لكى يرثها فتى من بنى أمية خليع رقيق الدين ، صاحب لهو وشراب ؟ أيورثه أبوه الخلافة ملكًا عضودًا هرقليًا ، وفى المسلمين صحابة أجلاء ، منهم الإمام « الحسين » ولد أم أبيها الزهراء ، وحفيد الطاهرة رضى الله عنهم جميعًا ؟

يأبى الإسلام ذلك ، ويأباه « الإمام الحسين » .

وإن « معاوية » لَيعرف هذا حق المعرفة ، ويعرف مَنِ « الحسين » ومَنْ « يزيد » ، فكانت وصيته الأخيرة لولى عهده :

« إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ...

« وإنى لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير » .[1]

ويمضى « معاوية » فينظر فى أولئك الثلاثة ، ويقيس مدى خطرهم على وارثه وولى عهده فلا يرى فيهم من هو أخطر على « يزيد » من « الحسين » فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ وآله ، ومن ثم فهو يوصى ولى عهده بأن يدع « ابنَ عمر لعبادته فإنه رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قِبَلَ يزيد » وأن يأخذ « ابن الزبير » بالشدة . . . وأما « الحسين » فإن « معاوية » يلوذ بالأمل . ويدعو ليزيد : « أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ... ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه » .

* * *

(١) وصية معاوية لابنه-يزيد ـــ وكان غائبا ـــ كتبت قبل وفاة معاوية ، مستهل سنة ستين ، وأمير الكوفة النعمان بن بشير الأنصارى ، وأمير البصرة عبيد الله بن زياد ، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص (تاريخ الطبرى : سنة ٦٠ هـ) .

استقبلت » زينب « مع بنى هاشم ، خلافة « يزيد بن معاوية » فى شهر رجب سنة ٦٠ هـ .

وما كان ليزيد حلم أبيه ، أو رزانته ، أو دهاؤه السياسى .

لم يكفه أنه ورث الخلافة عن أبيه ، فكان أول وارث لها عرفه الإسلام ، ولم يشأ أن يدع « الإمام الحسين » معتكفاً فى « المدينة » كما فعل « معاوية » من قبل ، بل أصرَّ على أن يأخذ بيعة الحسين والذين امتنعوا بالحجاز وأبوا أن يجيبوا معاوية إلى بيعة ابنه يزيد .

كان همه الأول أن يفرغ من هؤلاء ، فكتب إلى أمير « المدينة » ـــ الوليد ابن عتبة بن أبى سفيان ـــ غداة موت معاوية : « أن خُذْ حسيناً ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، أخذاً شديداً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ... والسلام . »[1]

وكبر الأمر على « الوليد » فاستشار « مروان بن الحكم » ـــ وكان قدم المدينة ـــ فكانت مشورته : « أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول فى الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية ، وثب كل امرىء منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه[2] ...»

وجاء « الإمام الحسين » فى رهط من شيعته ومواليه ، فأبقاهم بباب « الوليد » على أهبة ، ودخل إلى الأمير وعنده « مروان بن الحكم » . فدعاه الوليد إلى البيعة ، فقال رضى الله عنه :

(١ ـــ ٢) الاستيعاب ، ونحوه فى تاريخ الطبرى : سنة ٦٠ هـ .

ـــ إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ،لا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية !..

قال الوليد : أجل .

قال الحسين : فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتَهم إلى البيعة ، دعوتَنا مع الناس فكان أمراً واحداً . » فقال له ، وكان يحب العافية : فانصرفْ على اسم الله حتى تأتينا مع الجماعة .

وهمَّ « الحسين » بالانصراف ، لكن « مروان بن الحكم » انبعث يقول للوليد محذراً :

ـــ والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه . احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه .

فوثب عند ذلك « الإمام الحسين » وهو يسأل فى إنكار :

ـــ أنت تقتلنى أم هو ؟ كذبت والله وأثمت ...

ثم خرج ... و « مروان » يقول للوليد مؤنباً :

ـــ عصيتَنى ؟ لا والله ، لا يمكنك من مثلها من نفسه أبداً ...

فرد عليه الوليد :

ـــ وبِّخْ غيرى يا مروان ، إنك اخترتَ لى التى فيها هلاكُ دينى ، واللّهِ ما أحب أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه ، من مال الدنيا ومُلكها ، وأنى قتلتُ « حسيناً » . سبحان الله ! أقتل « حسيناً » أن قال : لا أبايع ؟ والله إنى لأظن أن امرأً يحاسَب بدم حسين ، خفيف الميزان عند الله يوم القيامة . »[1]

* * *

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩٠ (سنة ٦٠ هـ) والنقل منه ، والكامل لابن الأثير : ٤ / ٥ .

خرج « الإمام الحسين » حتى أتى منزله فألقى إلى أهله النبأ ، وأسرَّ إليهم بعزمه على الرحيل . . .

ورنت « مدينة الرسول » فى الليلة التالية ، إلى ابن الزهراء يتسلل بأهله منها ، حذراً يترقب تحت جنح الظلام ، قبل أن يبزغ القمر فينم عنهم ... لم يكد يترك منهم بالمدينة غير أخيه « محمد بن الحنفية » فإنه قال للحسين :

ـــ يا أخى ، أنت أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك . تنح بمن معك عن « يزيد بن معاوية » وعن الأمصار ما استطعت . ثم ابعث رسلك إلى الناس فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ، ولم تذهب به مروءتك وفضلك ، فإنى أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتى جماعة من الناس فيختلفوا فيما بينهم فمنهم طائفة معك وطائفة عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة هدفاً ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً ، أضيعُها دماً وأذلها أهلاً .

قال الحسين : فإنى ذاهب يا أخى ...[1]

قال محمد : فانزل « مكة » فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نَبَتْ ، لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير اليه أمر الناس ويفرق لك الرأى ، فإنك أصوب ما تكون رأيا حين تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلَ منها حين تستدبرها استدبارا .

فودعه « الحسين » وهو يقول متأثراً : يا أخى قد نصحت وأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً وموفقاً إن شاء الله .

* * *

(١) تاريخ الطبرى : ٦٠ / ١٩١ ، وفى رواية ابن الأثير (٤ / ٧) : « فأين أذهب يا أخى ؟ » .

وفى الطريق إلى « مكة » جاز أهل البيت بالمواقع التى شهدت جدهم ﷺ حين خرج من « مكة » مهاجراً منذ ستين عاماً !

ولَفَّهم الليل ، وأسدل عليهم ستراً ، وساد الصمت فلم يعد يسمع سوى وقع أخفاف الإبل تسير حثيثاً على الرمال .

ولم يكن ثمة حداء ولا غناء ، وإنما هو « الحسين » يتلو هامساً قوله تعالى :

﴿ **ربِّ نَجِّنِى منَ القوم الظالمين** ﴾ .

فيؤمن رهطه وهم يُلقون على مدينة جدهم ومغانى صباهم وشبابهم نظرةَ وداع ، فيرتد إليهم البصر خاشعاً دون أن يميز من معالم « المدينة » فى هذا الظلام الدامس ، سوى هامات النخيل ...

ولو قدر للنساء أن ينظرن إلى ما وراء ستار الغد ، لملأن سمع الليل عويلاً ونواحاً ، فإن الإمام الحسين ، وآله وصحبه ، يخرجون الليلة من المدينة إلى غير مآب ...

* * *

ومضت ساعات والركب يُجِدُّ المسير ويشق الظلام ، حتى إذا أوغلوا فى الصحراء وأوغل الليل ، بزغ القمر وأطل عليهم فإذا فيهم مع « الحسين » بنوه وإخوته ، وبنو أخيه ، وجُلّ أهل بيته ...

وفى جانب ، كانت « عقيلة بنى هاشم » تسير مع جماعة النساء ، تنتظر بزوغ نور القمر ، كيما يبدد الوحشة التى رانت عليها وعلى الدنيا من حولها ...!

وأجهدهم السير أياماً وليالىَ ذات عدد ، حتى شارفوا « مكة » فتلا « الإمام الحسين » قول الله عز وجل :

﴿ **ولما توجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قال عَسَىٰ رَبِّى أن يَهدِيَنِ سَواءَ السبيلِ** ﴾ .

ولم يقيموا إلا ريثما تلقوا رسل أهل « الكوفة » مبايعين إمامهم

« الحسين » ، وجاءته كتب القوم تترى : « أن قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى ، فاقدم علينا » .

والنعمان بن بشير الأنصارى ، وقتئذ ، أمير الكوفة .

وبدأ أهل البيت يتهيأون للسفر من جديد ...

* * *

دَليــل الركب

تهيئوا للسفر ، لكنهم لم يشدوا الرحال قبل أن يبعثوا إلى « الكوفة » دليلاً منهم ، يستوثق من الأمر هناك .

وقد اختار « الإمام الحسين » ابن عمه « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » لهذه المهمة ، فخرج « مسلم » حتى أتى « المدينة » فأخذ منها دليلين ، فمرا به فى البرية فأصابهم عطش فمات أحد الدليلين ـــ وقيل مات الاثنان ـــ وانقبضت لذلك نفس « مسلم » فكتب إلى « الحسين » :

« ... إنى أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلّا الطريق واشتد بهما العطش فماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكانٍ يدعى المضيق من بطن الخبيث ، وقد تطيرت ، فإن رأيت أعفيتنى وبعثت غيرى » .

وكان جواب الإمام : أن امضِ إلى « الكوفة » قدماً .

وامتثل مسلم فسار حتى بلغ « الكوفة » ونزل على رجل من شيعتهم هناك . فأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب « الحسين » ، فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة ، حتى بايعه من القوم اثنا عشر ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك ، فعجل بإيفاد رسول يحمل البشرى إلى « الإمام الحسين » المنتظر « بمكة » .

* * *

كان أمير « الكوفة » حين دخلها « مسلم » « النعمان بن بشير الأنصارى » رضى الله عنه . وقد نقم عليه « يزيد بن معاوية » أنه ترك أمر الشيعة يفلت من

يده ، وأنه نام عن « مسلم » حتى ضم بضعة عشر ألفاً إلى لواء « الحسين » .

وبادر « يزيد » فعزل « النعمان » واستبدل به « عبيد الله بن زياد » واليه على « البصرة » ، وكتب إليه أن يطلب « مسلم بن عقيل » ويقتله . فبدأ « ابن زياد » « بهانىء بن عزوة المرادى » — وكان « مسلم » قد انتقل إلى داره — فحبسه ريثما يقتله ، وشاع الأمر فصاحت نسوة مراد :

« يا عِترتاه ! يا ثكلاه ! »

فثار « مسلم » مغضباً ، ونادى بشعاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل « الكوفة » سار بهم يريد إنقاذ « هانىء » عنوة .

ثم كان موقف أهل « الكوفة » بعد ذلك عجباً : روى « الطبرى » فى (تاريخه) و « أبو الفرج الأصبهانى » فى (مقاتل الطالبيين) أن المرأة منهم كانت تأتى ابنها فتقول : « انصرف ، الناس يكفونك » ويجىء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول : « غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب ؟ انصرف » .

فما زالوا يتفرقون عن « مسلم » وينصرفون حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون رجلاً ، صلّى بهم وخرج نحو أبواب « كندة » فما بلغها إلا ومعه عشرة ، ثم جاوزها وإذ هو ليس معه منهم إنسان ! »

فمضى متلززاً فى أزقة « الكوفة » لا يدرى أين يذهب ، حتى أتى دار امرأةٍ عجوز ، كانت قائمة بالباب تنتظر ولدها الذى خرج مع الناس . فسلّم عليها « ابن عقيل » فردت السلام ثم سألها أن تسقيه فأخرجت إليه ماء فشرب ثم لم يبرح مكانه ، فاسترابت فى أمره وسألته أن ينصرف إلى أهله بعد أن شرب ، وكررت عليه مثل هذا ثلاث مرات حتى قال لها : يا أمة الله ، والله ما لى فى هذا المصر من أهل ، فهل لك فى معروفٍ وأجرٍ لعلى أكافئك به بعد اليوم ؟

فسألتْ : يا عبد الله ، وما ذاك ؟

أجاب : أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وخذلونى .

فأدخلته بيتا فى دارها وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ، وأخفت أمره

إلا عن ولدها ، فما أصبح الصبح إلا وقد وشى به (الطبرى : سنة ٦٠ هـ) .

وحوصر « مسلم » فقاتل وحده مستبسلاً ، ضد ستين رجلاً مسلحاً من شرطة « ابن زياد » أو سبعين ، فلما أعياهم أمره ، أخذوا يلهبون النار فى القصب ويلقونها عليه ، وإذ ذاك خرج إليهم يقتحم صفوفهم مقاتلاً بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث :

« لك الأمان فلا تقتل نفسك » .

فأبى إلا أن يمضى فى قتالهم وهو يرتجز :

أقسمتُ لا أُقْتَلُ إلا حُرًّا

وإن رأيتُ الموت شيئاً نكرا

كل امرىء يوماً يلاقى شَرًّا

أخاف أن أُكذَبَ أو أُغَرّا

فقال له محمد بن الأشعث : إنك لا تكذب ولا تخدع . القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك .

وكان « مسلم » قد أُثخِنَ بالجراح ، فأسند ظهره إلى الحائط والقومُ من حوله يؤكدون له الأمان .

وأُتى له ببغلة فحُمِلَ عليها ، وانتزعوا سلاحَه ، فداخلتْه ريبةٌ من أمانِ القوم ![1]

* * *

وجىء به إلى « ابن زياد » فأمر به فأُصْعِدَ إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه وألقيت جثته من علٍ إلى الناس ، وصُلِبَ صاحبه « هانئ بن عروة المرادى » فى السوق .

---

(١) مستخلص بتضمين من تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٠ ، مقابلا على (ابن الأثير : ٤ / ١١ ، ومقاتل الطالبيين : ١٠٤) .

ونقل « الطبرى » أيضاً عمن شهد مصرع « هانئ بن عروة » بعد قتل « مسلم » أنهم أخرجوه حتى انتهوا به إلى مكان من السوق ، كان يباع فيه الغنم ، وهو مكتوف اليدين ، فجعل يقول : « وامذحجاه ولا مذحج لى اليوم ! وامذحجاه وأين منى مذحج ؟ ! »

فلما رأى أن أحداً لا ينصره ، جذب يده فنزعها من الكتاف ، ثم قال : « أما من عصًا أو سكينٍ أو حجر ، أو عظم ، يجاحش به رجل عن نفسه ؟ » . قال الراوى :

« ووثبوا إليه فشدوه وثاقاً ؛ ثم قيل له : « امدد عنقك » . فأبى أن يجود بها راضياً ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد بالسيف فلم يصنع سيفه شيئاً ... ثم ضربه أخرى فقتله » والناس يتفرجون !

قال عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما :

فإن كنتِ لا تدرين ما الموتُ فانظرى   إلى «هانىءٍ» فى السوق ، و«ابنِ عقيل»
إلى بطلٍ قد هشم السيفُ وجهَه   وآخر يهوى. من طمار قتيلِ
ترىْ جسداً قد غيَّر الموتُ لونَه   ونضحَ دمٍ قد سالَ كلَّ مسيلِ !
فإن أنتمُ لم تثأروا بأخيكُمُ   فكونوا بَغايَا أُرضِيَتْ بقليلِ[1]

* * *

حدث كل هذا ، وآل البيت فى « مكة » يقرأون كتاب دليلهم « مسلم » بأخذ البيعة « للحسين » واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم إياه ...

وتحرك « الحسين » يريد الخروج بأهله متعجلاً ، قبل أن تبلغه رسالة أخرى — شفوية — من الدليل الراحل :

ذلك أن « مسلم بن عقيل » لما يئس من نفسه دمعت عيناه ، فقال له قائل :

---

(١) الطبرى : ٦/١٩٦ والبيتان الأول والثالث فى ترجمة عقيل عند ابن سعد ، ولم يسم قائلهما . (٤/٤٢) وانظر (مقاتل الطالبيين) : ١٠٨ .

ــ إن من يطلب مثل الذى تطلب ، إذا نزل به مثلُ الذى بك ، لم يبك !

قال : إنى والله ما لنفسى أبكى ولا لها من القتل أرثى ... ولكن أبكى لأهلى المقبلين إلىَّ ... أبكى لحسين وآل حسين .

ثم أقبل على « محمد بن الأشعث » ــ وهو الذى أعطاه الأمان من ابن زياد ــ فقال :

ــ يا عبد الله ، إنى أراك والله ستعجز عن أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يبلغ « حسيناً » خبراً على لسانى ؟ فإنى لا أراه إلا وقد خرج إليكم مقبلاً ، أو هو خارج غداً هو وأهل بيته ، وإن ما ترى من جزعى لذلك .

وأما نص الرسالة ــ فيما نقل المؤرخون ــ فهو أن يمضى الرسول فيقول « للحسين » : إن ابن عقيل بعثنى إليك وهو فى أيدى القوم أسير لا يرى أن تمشى حتى تقتل . وهو يقول : « ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل . إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لمكذوب رأى » [(١)]

وقد أقسم « ابن الأشعث » لمسلم أنه باعث إلى « الحسين » بالرسالة ...

لكن « الحسين » لم ينتظر ...

بل اكتفى بالكتاب الأول ، ومضى ... فما كان أصدق ما تمثل به يوم هاجر من « المدينة » من قول « ابن مفرغ » :

* والمنايا يرصدننى أن أحيدا *

* * *

(١) الطبرى : ٦ / ٢١١ والمقاتل : ١٠٥ .

محاولة وإصْـــرار

أصبحت « مكة » ذات يوم وقد شاع فيها أن « الحسين » يوشك أن يخرج بآله منها ، يريدون العراق . فأشفق بنو هاشم على « آل البيت » من تلك الرحلة التى لا يدرون عقباها ، وانطلق منهم من انطلق ، يتوسل إلى « الإمام الحسين » ألا يخرج ، فإن كان فاعلاً فليترك أهله بمكة ، فإنه لا يدرى علام يقدم !

جاءه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » فقال له : إنى أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنك مستنصحى قلتها ... وإلا كففت عما أريد » . فقال له : « قل فوالله ما أستغشك وما أظنك بشىء من الهوى » . قال له : « بلغنى انك تريد العراق ، وإنى مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصرَه ، ومن أنت أحبُّ إليه ممن يقاتلك معه » .[1]

وأتاه « عبد الله بن عباس » فقال له : يا ابن عم ، قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبيّن لى ما أنت صانع .

قال « الحسين » :

ــ إنى قد أجمعت العزم على المسير فى أحد يوميَّ هذين إن شاء الله تعالى .

فتساءل «ابن عباس » منكراً :

---

(١) مقاتل الطالبيين : ١٠٩ .

ـــ فإنى أعيذك بالله من ذلك . أخبرنى رحمك الله ، هل تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ إن كانوا قد فعلوا ذلك فسرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يُسْتنفَروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .

ردَّ « الحسين » فى إيجاز :

ـــ إنى أستخير الله وأنظر ما يكون ...

* * *

وخرج « ابن عباس » فلقيه « ابن الزبير » وكان لا يزال ممتنعاً « بمكة » لا يبايع « يزيد » ، فكأن « ابن العباس » أحس أن خروج الحسين يُخلى موضعه بالحجاز لابن الزبير .

فلما كان المساء عاد « ابن عباس » إلى « الحسين » فقال له فى إلحاح وتوسل :

ـــ يا ابن عم إنى أتصبر ولا أصبر ! إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ! أقم بهذا البلد الحرام فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم .

لكن « الحسين » لم يرجع عن عزمه ، وإذ ذاك توسل إليه « ابن عباس » :

ـــ فإن كنت سائراً فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل « عثمان » ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

وأبى « الحسين » إلا إصراراً ...

فلم يبق « لابن عباس » إلا أن يقول محتداً :

ـــ لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك

وناصيتك حتى يجتمع عليَّ وعليك الناس ، أطعتنى ، لفعلت ذلك .

ثم خرج مغيظًا وهو ينشد :

يــا لك مــن قــنبرة بمعمــرِ
خلا لك الجو ، فبيضى واصفرى
ونقرى مـا شئت أن تنقــرى
هذا الحسين خارجاً فاستبشرى[1]

* * *

دنا موعد خروج « الحسين » والقوم ينظرون إليّه فى جزع وإشفاق ، ثم كانت المحاولة الأخيرة لرده عن السفر .

وكان صاحب هذه المحاولة « عبد الله بن جعفر » زوج السيدة « زينب » التى أجمعت أمرها على أن ترحل هي وأولادها ، مع أخيها الإمام ، مهما تكن العواقب ...

وهنا نلحظ ــ للمرة الأولى ــ أن « عبد الله » يقيم بعيداً عن « الحسين » ، ويلفتنا أنه لما أراد صرف ابن عمه عن الهجرة لم يذهب إليه بنفسه كما فعل « ابن عباس » وإنما آثر أن يبدأ فيبعث إليه كتاباً مع ولديه محمد وعون .

هل كان « عبد الله بن جعفر » مريضاً لا يقوى على الذهاب إلى « الحسين » ؟

كلا ، فإن نص كتابه كما حفظته لنا كتب التاريخ ، ينفى أن يكون به مرض ، وهذا هو الكتاب ، نقلاً عن « الطبرى وابن الأثير » ــ وقد أرسله مع ابنيه عون ، ومحمد :

« أما بعد ، فإنى أسألك بالله إلا انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل

(١) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦ ، وابن الأثير : ١٧/٤ مع مقاتل الطالبيين : ١١٠ .

بيتك ، إن هلكت اليوم طفىء نور الأرض ، فإنك علَم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنى فى أثر الكتاب والسلام »[1]

فهل كان « عبد الله » يجد فى نفسه شيئاً من « الحسين » ؟

كلا ، فإنه كما نقرأ فى كتابه ، يرى الحسين « نور الأرض وعلم المهتدين ورجاء المؤمنين » .

ففيم احتجابه إذن وايثاره أن يكتب إلى « الحسين » بدلاً من المبادرة بالذهاب إليه ؟

لعل الأمر أيسر من أن نقف عنده ، فغير بعيد أن يكون « عبد الله » مشغولًا ببعض شأنه فكتب معجلًا على أن يمضى إليه على أثر كتابه ، وغير بعيد أن يكون قد آثر أن يبدأ محاولته مع الأمير قبل أن يذهب إلى « الحسين » .

ذلك أنه قام فعلا على أثر الكتاب ، لكنه لم يمض إلى « الحسين » من فوره بل مضى إلى « عمرو بن سعيد بن العاص » أمير مكة ليزيد بن معاوية فكلمه .

وجلسا يتدبران الأمر ، فكان رأى « ابن جعفر » أن يكتب الأمير إلى « الحسين » كتاباً يؤمنه ، ويمنيه فيه البرَّ والصلة « وتوثق له وتسأله الرجوعَ عما اعتزمه من الرحيل . » . . فقال « عمرو » ملبياً : اكتب ما شئت وأْتنى به حتى أختمه .

فكتب « عبد الله بن جعفر » ما شاء على لسان الأمير ، وسأله أن يبعث به — بعد أن يختمه — مع أخيه « يحيى بن سعيد » (فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ويعلم أنه الجد منك) .[2]

---

(١) اسنده الطبرى عن الامام على بن الحسين ، رضى الله عنهما ، والنقل منه ، مقابلا على المقاتل : ٩١ .

(٢) الطبرى : ٦ / ٢١٩ ، وفيه نص الكتاب الذى حمله عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد بن العاص ، إلى الإمام الحسين .

ففعل الأمير ، ومضى « يحيى » فى صحبة « عبد الله بن جعفر » إلى « الإمام الحسين » بالكتاب المختوم .

ورد « الحسين » رداً جميلاً ، لكنه مضى فى طريقه لا يلوى على شيء ، فزار البيت الحرام مودعاً وهو يقول : « وقد غسلتُ يدى من الحياة ، وعزمتُ على تنفيذ أمر الله » .

* * *

ولا نستطيع أن نمضى معه ، دون وقفة هنا لمعرفة ماذا كان بين « عبد الله بن جعفر » وزوجته « السيدة زينب » ؟

ذلك أننا لن نراهما معاً منذ اليوم ...

وقد شغلتنا تلك الأحداث الصاخبة عن العقيلة الهاشمية ، فاندفعنا نرقب تلك الغيوم التى خيمت على بيتها والفواجع التى ألمت به ، بحيث يعذر من يظن أننا نسينا « زينب » .

وما نسيناها ، وإنما شُغِلْنا بالذى كان يشغلها .

والآن نقترب منها ، فنراها فى صحبة أخيها دون زوجها .

وسنظل حتى آخر يوم من حياة « زينب » نراها هكذا ، كأنها استبدلت بمكانها فى بيت « عبد الله بن جعفر » مكاناً لها آخر ، فى بيت أخيها الإمام « الحسين » .

سنراها تمضى فى صحبة أخيها ، ويبقى الزوج بالحجاز .

وحتى بعد مقتل « الحسين » لا تعود « زينب » إلى موضعها فى دار الزوج ، بل تقيم بالمدينة فترة قصيرة ترحل بعدها إلى « مصر » فتدفن فى ثرى الكنانة ــ على أرجع الأقوال ــ فى شهر رجب سنة ٦٢ هـ . وبقى « عبد الله بن جعفر » بالحجاز ، ما نعلم أنه غادره حتى مات بمكة عام ٨٠ هـ ، وهو

المعروف بعام الجحاف ، إذ دهم « مكة » سيل جحف الحاج وذهب بالإبل ..

* * *

هل كان شيء بين الزوجين ؟ قلما تعرضت لذلك كتب التاريخ والتراجم .

وكان يمكن أن نكتفى بصحبة « السيدة زينب » فى رحلتها ، لو أنا لم نلتفت إلى أنها تظل من وقتئذ إلى آخر يوم من حياتها ، فى صحبة آلها ، لا تفارقهم أبداً ، ولا تشغل عنهم بزوج أو ولد .

ويلح علىَّ السؤال : أى شيء كان بين الزوجين ؟

فى كتاب (السيدة زينب وأخبار الزينبات ، للعبيدلى النسابة) كلمة عابرة سيقت عرضاً ، أثناء الحديث عن « زينب ـــ الوسطى ـــ بنت الإمام على بن أبى طالب » وتُكْنَى بأم كلثوم ، التى تزوجها « عمر بن الخطاب » صبية صغيرة :

« ولما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تزوجت بعده محمد بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ، فتزوجها عبد الله بن جعفر ، وكان زواجه بها بعد طلاقه لأختها زينب الكبرى ، فماتت عنده » .

وراجعت ترجمة « عبد الله بن جعفر » فشَحَّت الأخبار عن طلاقه « لزينب العقيلة » وزواجه من أختها « أم كلثوم » . سوى أن أبا محمد ابن حزم ، قال فى ولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .« . . .وتزوجت زينب بنت على من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، عبدَ الله بن جعفر بن أبى طالب ... وتزوج أمَّ كلثوم بنتَ على بن أبى طالب ، بنتَ بنتِ رسول الله ﷺ ، عمرُ ابن الخطاب فولدت له زيداً لم يعقب ، ورقية . ثم خلف عليها بعد عمر رضى الله عنه ، عونُ بن جعفر بن أبى طالب ثم خلف عليها محمد بن جعفر بن

أبى طالب ، ثم خلف عليها بعده عبدُ الله بن جعفر ، بعد طلاقه لأختها زينب »[1] .

وجاء فى ترجمة « أم كلثوم » بنت على بالإصابة : خطبها عمر ، فذكر له أبوها علىٌّ صِغرها فقيل لعمر : إنه ردَّك . فعاوده فزوجه إياها فولدت له ابنه زيدا ورقية وماتت وولدُها زيد بن عمر ، فى يوم واحد . وفى ترجمتها بالاستيعاب ، من طريق (الذرية الطاهرة للدولابى ، والإخوة للدارقطنى) أن عون بن جعفر تزوجها بعد عمر فمات عنها ، فتزوجها أخوه محمد ، فمات عنها فتزوجها أخوه عبد الله بن جعفر . وذكر ابن سعد أنها كانت تقول : إنى لأستحيى من أم بنى جعفر » . وروى أن عمر لما خطبها إلى أبيها على ، قال له : زوجنيها فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من كرامتها ما أرصد ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل نسب وسبب سينقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى »[2] .

فمتى طُلِّقت زينب العقيلة !

لا نملك أن نقطع فى هذا بيقين ، وإنما نرجح أن الطلاق كان بعد وفاة « الإمام على » وقبل خروج الإمام الحسين من الحجاز .

ذلك لأن « أم كلثوم » ظلت عند « محمد بن جعفر » حتى آخر حياته ، وفى الخبر أن محمداً شهد « صفين » يقاتل بالجموح ، تحت راية أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ، و « أم كلثوم » قد توفيت عند « عبد الله بن جعفر » فيما يقول الخبر « بغوطة دمشق ، عقب محنة أخيها الحسين » .

وإذن تكون « زينب العقيلة » قد طلقت قبل هذا ، وسافرت مع أخيها بعد أن حُلَّ عقد الزواج ، والله أعلم .

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم : ٣٣ ط أولى ذخائر ، مع ترجمتها ، عليها السلام ، فى الإصابة .
(٢) الطبقات الكبرى : ٨ / ٤٦٣ (أم كلثوم بنت على بن أبى طالب) .

ذاك ما استطعت الآن أن أصل إليه فى محاولتى جلاء هذه النقطة الدقيقة الغامضة من حياة « السيدة زينب » الزوجية .

ولم أقف على خبر عن أسباب الطلاق ، وإنما أنصرف إلى « زينب » فأراها متفانية فى حبِّ أخيها وبنى أخيها رضى الله عنهم .

وأرى « عبد الله بن جعفر » — فى الوقت نفسه — يؤيد « الحسين » ويؤازره ، وإن تخلف عن الرحيل معه إلى الكوفة .

ولقد ظل يوقره أبدا ، ويجاهد ليمنعه مما يخاف عليه منه ، فلما صمم « الإمام الحسين » على رحلة الموت بعث عبد الله ببنيه مع الإمام ، وإنه ليعلم أن الرحلة قد تودى بهم جميعاً ...

وكان قلبه مع « الحسين » ، وسوف نراه بعد مصرعه يجلس ليتلقى العزاء فيه ، وكل سلواه أن ولديه « محمداً وعوناً » قد استشهدا معه كما روى « الطبرى » فى (تاريخه) . وفى رواية ، أن الذين استشهدوا من أبناء « عبد الله » مع « الحسين » ثلاثة : محمد ، وعون ، وعبيد الله ...

* * *

نحو وَادِى المَوت

فصل الركب من « مكة » فى طريقه إلى « الكوفة » فى أمسية شاحبة راكدة الهواء ، ووجمت الجبال المشرفة على البلد الحرام حين رأت « آل محمد » يخرجون منها إلى غير ملاذٍ آمن . . .

وقد اعترضهم فى أول الطريق رسل « عمرو بن سعيد بن العاص : أمير الحجاز » وحاولوا أن يردوهم إلى مكة ، وتضارب الفريقان بالسياط ، ثم تخلى الرسل ، واستأنف الركب المسير .

وكان سراهم حثيثًا فى بادئ الأمر ، وقد هون عليهم مشقة المسرى أن هناك بالعراق بضعة عشر ألفًا ينتظرون مقدم ابن بنت النبى ، كما انتظر الأنصار منذ ستين عامًا مقدم جدهم المهاجر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وتلفّتت « زينب » — وكانت فى مقدمة النساء — وراءها مرة ومرتين ، ترنو إلى الربوع الغالية ، وفى قلبها شجن !

لقد هاجرت إلى « العراق » من قبل ، يوم كان لها أب ، ملء الدنيا ، واليوم هذه هى تسير إلى العراق مرة أخرى ، مثقلة بمتاعب أعوام زادت على العشرين ، ثكلت فيها أباها ، وأخاها الحسن ، وأدبر صباها ، والشباب !..

اغرورقت بالدموع مقلتاها ، وهى تلقى نظرة ملؤها الرحمة والحب والحزن على الركب الذى يغذ السير : هؤلاء هم كل آلها : أخوها وبنوها ، وبنو أخويها ، وبنو عمها .... هؤلاء هم آل النبى ، وزهرة بنى هاشم ، وزينة قريش ، ينزحون عن ديارهم إلى مصير مجهول ، لكنه محتوم !

ترى ما ذاك المصير ؟ ..

لم تنتظر « زينب » طويلاً لتعلم ...

ذلك أن الركب لم يكد يقطع مرحلتين من الطريق أو ثلاثاً ، حتى لقيه أعرابيان من بنى أسد ، فبدا « للحسين » أن يسألهما عما تركاه وراءهما بالكوفة ، وفى حسابه أن يصفا له حشداً مهيئاً لاستقباله ، معيداً ذكرى مشهد استقبال جده المصطفى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فى دار هجرته . . .

ولكن ما أسرع ما تبدد الحلم وتلاشى الصدى !

قال الأعرابيان :

ـــ يرحمك الله ، إن عندنا خبراً ، فإن شئت حدثنا علانية ، وإن شئت سراً .

فنظر « الحسين » إلى أصحابه وقال : ما دون هؤلاء سر !

قالا : يا ابن رسول الله ، إن قلوب الناس معك ، وسيوفهم عليك ، فارجع ...

ثم أخبراه بقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل » وصاحبه « هانئ بن عروة » ، فغشى القوم وجوم حزين لم يطل ... ثم أعولت النساء وضجّ الجمع بالبكاء .

وكانت مناحة فى العراء ...

وحين خفتت ضجة النواح ، أراد « الإمام الحسين » أن يرجع بآله فوثب عند ذلك « بنو عقيل » وهم يصيحون :

ـــ لا نرجع والله أبداً حتى ندرك ثأرنا ، أو نذوق ما ذاق أخونا ونقتل بأجمعنا ! فنظر « الحسين » إلى الأعرابيين اللذين نصحا له بالرجوع ، وقال فى جد وأسى :

ـــ لا خير فى العيش بعد هؤلاء .[1]

وأمّن القدر على ما قاله « بنو عقيل » !

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ . ومقاتل الطالبين : ١١٠ .

لم يرجعوا ، بل قتلوا أجمعين ...

* * *

ولم يعجل الركب بالسفر هذه المرة :

انتظروا نهارهم كله ، وأكثر ليلهم ، حتى إذا كان السحر أمر « الحسين » فتيانه وغلمانه أن يكثروا من الماء ، فاستقوا وأكثروا .

ثم هموا باستئناف المسير ...

وكان الشطر الباقى من الرحلة قصيراً :

لم يعد ثمت شكّ فى المصير الرهيب الذى ينتظر الركب وشيكاً ، وأبى « الإمام الحسين » إلا أن يكشف لمن لحق به من الأعراب عن جلية الأمر ، فلعلهم ما تبعوه إلا لظنهم أنه يأتى بلدًا قد استقامت له طاعة أهله .

قال :

« ... أما بعد : أتانا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة ... وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام » .

أو قال : « فهو حل من بيعتنا » [1] .

فتفرق عنه الأعراب يميناً وشمالاً ، حتى بقى فى أهله وأصحابه الذين جاءوا معه من الحجاز .

وتحركت القافلة من جديد : واجمة مسيَّرة ، كأنما تدفعها نحو حتفها قوة لا تقاوم ولا تدفع .

وتوالت النذر ...

فما انتصف عليهم النهار وهم يسيرون فى الفلاة ، حتى أتاهم من ينعى

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ . ومقاتل الطالبين : ١١٠ .

إليهم « عبد الله بن بقطر : أخا الحسين من الرضاعة » ويأتيهم بخبره ، وكان الإمام قد سيره إلى ابن عمه « مسلم بن عقيل » قبل أن يعلم بمقتله ، فسيق « ابن بقطر » إلى « عبيد الله بن زياد » فأمره أن يصعد فوق القصر ويلعن « الحسين » ثم ينزل حتى يرى فيه رأيه .

وصعد « عبد الله بن بقطر فأعلم الناس بقدوم الحسين ، ولعن ابنَ زياد وأباه ، فألقاه ابن زياد من أعلى القصر فتكسرت عظامه وبقى به رمق ، حتى جاء من ذبحه ليريحه . »

لم يبك الراحلون هذه المرة ، كما بكوا عندما نعى إليهم « مسلم » ، بل أصغوا إلى النبأ حيارى مطرقين ، ثم مضوا فى طريقهم لا ينثنون .

ولاح لهم على البعد ما ظنه أحدهم نخلاً ، فكبروا ، يمنون أنفسهم براحة قصيرة ، قبل المعركة المرتقبة .

سأل « الحسين » أصحابه : ما هذا التكبير ؟

أجابوا : رأينا النخيل ...

فارتفع صوتُ آخرين ، ممن لهم بالطريق معرفة سابقة :

ــ ما بهذا الموضع والله نخل ، ولا نحسبكم ترون إلا هوادى الخيل وأطراف الرماح .

ففكر « الحسين » لحظة ثم قال : وأنا والله أرى ذلك ...

وعاد الصمت الثقيل يلف الراحلين ، فما عادت الصحراء تسمع سوى تنهد النساء ورغاء الإبل ...

وبدا كأن شبح الموت يجثم على هذه الجماعة البشرية الحزينة ، السائرة فى بطء ولكن فى عزم وتصميم ، نحو نهايتها المفجعة ، كأنما ترصدها المنايا أن تحيدا ...

وكان حر الظهيرة مرهقًا ، فمال « الإمام الحسين » بأصحابه إلى جبل (ذى جشم) فأناخوا رواحلهم . . .

وأطبق على الجو غيم كثيف ، تكشف عن « الحر بن يزيد » فى ألف فارس من عسكر « عبيد الله بن زياد : أمير الكوفة » جاء يبلغ الحسين رسالة الطاغية : إنى أمرت أن انطلق بك إلى ابن زياد ، أو أجعجع بك فلا أتركك تزول من مكانك .

قال الحسين : إذن أقاتلك ، فاحذر أن تشقى بقتلى ، ثكلتك أمك !

فكظم « الحر » غضبه وقال :

« أما والله لو غيرك من العرب يقولها ، ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائناً من كان ، ولكن والله ما لى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بخير الذكر ... »

وتحرك « الحسين » يريد السير ، فتصدى له « الحر » يسايره ويمنعه من التحرك ، فسأله « الحسين » عما يريد به ، قال :

« إنى لم أؤمر بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا تدخلك الكوفة ، ولا تردك إلى المدينة ، حتى أكتب إلى ابن زياد ، وتكتب أنت إلى « يزيد » إن أردت ، فلعل الله يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك . »

فتياسر « الحسين » عن طريق « القادسية » ونثر ما معه من كتب أهل « الكوفة » ، ثم نظر إلى هؤلاء الذين جاءوا فى جيش « ابن زياد » وقال :

« ... وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم ، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى ، فلعمرى لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم بن عقيل ، والمغرور من اغترّ بكم ... ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم والسلام . »

فقال له « الحر بن يزيد » : إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن ![1]

---

(١) الحر بن يزيد ، بن ناجية اليربوعى التميمى ، انظر نسبه فى بنى يربوع بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ومشهده مع الإمام الحسين ، فى (جمهرة الأنساب لابن حزم) .

فقال له « الحسين » : أبالموت تخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ؟ وأنشد ، رضى الله عنه :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى   إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً
فإن عشت لم أندم وإن مت لم أُلَمْ   كفى بك ذلا أن تعيش وترغما !

فلما سمع « الحر » قوله أطرق خاشعاً متأثراً يدعو الله أن يعفيه من قتال « الحسين » .

وكان قد بعث إلى « ابن زياد » يسأله : هل يأذن « للحسين » وآله فى الرجوع من حيث جاءوا ؟ وإنه ليرجو أن يجيب بنعم !

* * *

وشاع نبأ قدوم « الحسين » بين أهل الكوفة » فأقبل من أهلها أربعة نفر — أربعة فحسب ! — يريدون أن يكونوا معه ، فتصدى لهم « الحر » يمنعهم ، ثم كف عنهم لما قال له « الحسين » :

— لأمنعنَّهم مما أمنع منه نفسى !

وأقبل « الحسين » عليهم يسألهم أن يخبروه خبر الناس خلفهم ، فقال قائلهم :

— أما أشراف الناس فقد أُعْظِمَتْ رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ! وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ثم حدثوه عما لقى رسوله إلى الكوفة ، فلم يملك دمعته ، وقرأ :

﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا** ﴾ اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك » .

ثم أطرق صامتاً ...

وباتوا جميعاً ينتظرون .

* * *

فلما كان الصبح وصلى « الحسين » الغداة ، تحرك ثم أخذ يتياسر بأصحابه و« والحر بن يزيد » يردهم إلى « الكوفة » رداً شديداً ، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى « نينوى » فإذا راكب مقبل من « الكوفة » يحمل إلى « الحر » أمر « ابن زياد » :

« أما بعد فجعجعْ بالحسين حين يبلغك كتابى ، فلا تنزله إلا بالعراء ، فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى . والسلام » .

وحيل بينهم وبين الماء ، فباتوا على ظمأ ...

وفى الصبح لا حت لهم طلائع جيش « الكوفة » : أربعة آلاف مقاتل ، يقودهم « عمر بن سعد بن أبى وقاص » فلما شارفوا مكان « الحسين » بعث « عمر » إليه رسولاً يسأله : ما الذى جاء به ؟

ردَّ « الحسين » : كتب إلَىَّ أهلُ مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فأما إذ كرهونى فإنى أنصرف عنهم .

فكتب « عمر » إلى « ابن زياد » يعرفه ذلك ، فلما قرأ « ابن زياد »الكتاب أنشد :

آلآن إذ عَلِقَتْ مخالبُنا بـه يرجو النجاة ، ولات حين مناص !

ثم كتب إلى « عمر » يأمره أن يعرض على « الحسين » : بيعة يزيد « فإذا فعل ذلك رأينا رأينَا » وأن يمنعه الماء ومن معه . فأرسل « عمر » خمسمائة فارس نزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وصحبه وبين الماء .

فلما اشتد عليهم العطش ، أمر « الحسين » أخاه « العباس بن على » فسار

فى عشرين راجلاً وثلاثين فارساً ـــ هم ثلثا صحبه تقريباً ـــ فدنوا من الماء وقاتلوا عليه حتى ملأوا القرب وعادوا ...

* * *

وبدا أن الموقف يزداد دقة وحرجاً ، فبعث « الإمام الحسين » رسوله إلى القوم ، يسألهم أن يختاروا له واحدة من ثلاث :

أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء ، أو يمضوا به إلى « يزيد بن معاويه » ، أو يسيروا به إلى أى ثغرٍ من ثغور المسلمين ، فيكون رجلاً من أهله ، له ما لهم وعليه ما عليهم .

فبعث « عمربن سعد » بالرسالة إلى « ابن زياد » ومضى الوقت ثقيلاً مرهقاً فى انتظار جواب الأمير .

ثم وصل إلى « عمر » الجواب المنتظر مع « شمر بن ذى الجوشن » :

« أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندى شافعاً .

« انظر ، فإن نزل حسين وأصحابه على حكمى واستسلموا فابعث بهم إلىَّ سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنه عاق شاق ، قاطع ظلوم ... فإن أنت قضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزلْ جندنا وخلِّ بين شمر وبين العسكر والسلام » .

بطـــلة كربَــلاء

ونادى « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » فى جيشه ، ثم زحف نحو « الحسين » قبل الغروب ، و« الحسين » جالس حينذاك أمام خيمته ، محتبياً بسيفه ، وقد أخذته إغفاءة قصيرة من أثر الإجهاد ، وأخته « زينب » إلى جانبه ترعاه يقظى لا تنام .

وسمعت « زينب » ضجة الجيش الزاحف عن كثب ، فدنت فى رفق من أخيها فقالت : يا أخى ، أما سمعت الأصوات قد اقتربت ؟ .

فرفع « الحسين » رأسه فقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقال لى : إنك تروح إلينا . . .

فلطمت الأخت وجهها وصاحت : يا ويلتاه ...

فقال لها الحسين :

ـــ ليس لك الويل يا أُخَيَّة ! اسكنى يرحمك الله .

واتجه إلى أخيه « العباس » فطلب إليه أن يمضى فيستطلع خبر الزاحفين ، فلما عرف أنه القتال ، بعث ثانية يسألهم أن ينصرفوا هذه العشية « لعلنا نصلّى لربنا الليلة وندعوه ونستغفره ، فإذا أصبحنا التقينا إذا شاء الله ، فإما التسليم وإما القتال » .

واستشار « عمر » أصحابه فى أمر التأجيل ، فقال منهم قائل :

ـــ سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغى لك أن تجيبهم إليها .

وأُجِّلُوا إلى غد ...

وانثنى « الحسين » إلى أصحابه ، فقال بعد أن أحسن الثناء على ربه :

« أما بعد فإنى لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابى ، ولا أهلَ بيتٍ أبرّ ولا أوصلَ من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعاً عنى خيراً ...

« ألا وإنى قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا فى حَلٍّ ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً — أى مركباً — وليأخذ كل رجل منكم برجل من أهل بيتى ، ثم تفرّقوا فى البلاد حتى يفرج الله ، فإن القوم يطلبوننى ، ولو أصابونى لهوا عن طلب غيرى » .

قالوا جميعاً : معاذ الله والشهر الحرام ! فماذا نقول للناس إذا رجعنا اليهم ؟ أنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل وذريعة للرماح وجزراً للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله ، بل نحيا بحياتك ونموت معك » .

ثم سأله سائلهم :

« أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ، والله لو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

فبكى الإمام تأثراً ، وبكوا عليه !

وجاوبتهم دموع أخرى من الخيام ، حيث « السيدة زينب » ومن معها من نساء البيت الكريم ، يصغين فى هم وقلق .

ثم أوى الجمع إلى المضاجع ...

وأطبق على « كربلاء » صمت ثقيل مرهق ، مزقته صيحة تنبعث من فسطاط « الحسين » وإذا امرأة تصرخ من أعماق قلب متصدع :

« واثكلاه ! واحزناه ! ليت الموت أعدمنى الحياة ! اليوم مات رسول الله ، وأمى فاطمة الزهراء ، وأبى على ، وأخى الحسن ! يا بقية الماضين وثمال الباقين ... » .

إنها « السيدة زينب » عقيلة بنى هاشم !

يصف « على بن الحسين » ـــ الذى أنقذته عمته « زينب » من المذبحة ـــ ذلك المشهد فيقول :

« إنى والله لجالس فى تلك العشية التى قُتِلَ أبى صبيحتَها ، وعمتى « زينب » تمرضنى ، إذ اعتزل أبى أصحابه فى خباء له وعنده « مولى أبى ذر الغفارى » يعالج سيفه ويصلحه ، وأبى يقول :

يا دهرُ أُفٍّ لك من خليلِ !
كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيلِ
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حى ، سالكُ السبيلِ

وأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها فعرفت ما أراد ، فخنقتنى عبرتى فرددت دمعى ... فأما عمتى « زينب » فإنها سمعْت ما سمعتُ ... فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس حتى انتهت إليه فصاحت : « واثكلاه ... ليت الموت أعدمنى الحياة » .

فنظر إليها « الحسين » عليه السلام ملياً ثم قال لها :

ـــ يا أخية ، لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت : بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ، نفسى فداك !

فرد غصته وترقرقت عيناه وقال : لو تُرك القَطا ليلا لنام ...

قالت : يا ويلتا ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أقرح لقلبى وأشدُّ على نفسى !

وخرجتْ مغشيًا عليها ، فقام إليها « الحسين » فصب على وجهها الماء وقال لها :

ـــ يا أخية ، اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه . أبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

فلما أفاقت من غشيتها ، قال لها :

ـــ يا أخية ، إنى أقسم عليك فأبرى قسمى : لا تشقى علىَّ جيبًا ، ولا تخمشى علىَّ وجهًا ، ولا تدعى علىَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

قال « على بن الحسين » : ثم جاء بها حتى أجلسها عندى ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأن يكونوا بين البيوت إلا الوجه الذى يأتيهم منه عدوهم »[1] .

ولو علمت « زينب » ماذا كان ينتظرها وقومها غداة تلك العشية ، لادخرت دموعها إلى غد !

* * *

وكانت ليلة ليلاء . . . أمضاها أكثرهم مسهدين يحدقون فى شبح الموت الذى كان جاثمًا بالوصيد ، يتربّص بهم مطلعَ النهار .

وراحت « زينب » ترسل عينيها فى جمود شارد إلى الظلام المخيم على ساحة كربلاء ، فإذا ارتد إليها وعيها قامت فطافت بمضاجع بنيها وإخوتها ، تتزود لفراق طويل .

* * *

وتنفس الصبح ، وتلاقى الجيشان !

ولكن أى جيشين ؟ !

---

(١) تاريخ الطبرى (٦ / ٢٣٩ ـــ ٢٤٠) والنقل منه ، مقابلا على ابن الأثير ٤ / ٢٤ ، والمقاتل : ١١٣ .

« عمر بن سعد » فى أربعة آلاف من جيش أمير الكوفة ، كامل العدة شاكى السلاح . . .

ومن ورائهم الدولة والسلطان .

و « الحسين » يرقب هاتيك الآلاف وهى تزحف نحو أصحابه السبعين ، فلما دنوا منه دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته : أن اسمعوا قولى ولا تعجلونى ثم اقضوا إلىَّ ولا تنظرون . ﴿ **إنَّ وليِّىَ الله الذى نَزَّلَ الكتابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ .

وتناهى صوته إلى أزواجه وأخواته وبناته ، فصحن وبكين ، وارتفعت أصواتهن حتى بلغته ، فأرسل إليهن ابنيه عليًا والعباس وقال لهما : « أسكتاهن ، فلعمرى ليكثرن بكاؤهن » فلما ذهبا لِيُسكتاهن ، قال : « لا يبعد الله ابن عباس[1] »

لقد تذكر وقتئذ ابن عمه « عبد الله بن عباس » وخيل إليه أنه يسمع صدى صوته آتيا من بعيد ، يلح عليه ألا يخرج إلى الكوفة : « فإن كنت سائرًا فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فإنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » .

ولم ينقطع الصدى حتى سكتت الصائحات الباكيات .

فلما سكتن ، عاد فالتفت إلى جيش الكوفة ، وقال بعد أن حمد الله :

« أما بعد ، فانسبونى فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا : هل يصلح ويحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ، وابنَ وصيِّه وابنِ عمه وأوْلى المؤمنين بالله ؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة عمى ؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله ﷺ قال لى ولأخى ــ أنتما سيدا شباب أهل الجنة وقرة عين

(١) الطبرى : ٦ / ٢٤٢ .

أهل السنّة ؟ أما فى هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمى ؟ » .

فما سُمِعَ أبلغ منه ، قال ، فيما روى الطبرى :

« فإن كنتم فى شك مما أقول ، أو تشكون فى أنى ابن بنت نبيكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابنُ بنتِ نبىٍّ غيرى » .

فلم يجبه منهم مجيب .

واستطرد يسأل :

« أتطلبون بقتيلٍ منكم قتلته ، أو بمال استهلكته ، أو بقصاص من جراحة » ؟

فسكتوا لا يحيرون جوابًا . . .

هنالك أخذ « الإمام الحسين » يتفرس فى رؤوس جيش الكوفة وينادى : يا فلان . . . ويا فلان . . . ويا فلان . . . ألم تكتبوا إلى : أنْ قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام ، وإنما تقدم على جندٍ لك مجند فأقبل ؟ . . .

فتمزقت كلماته بددًا ، لم يكن يصغى إليها من القوم سوى « الحر بن يزيد » فإنه قام إلى قائده « عمر بن سعد » يسأله :

ـــ أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟

أجابه « عمر » : أى والله ، قتالًا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدى .

قال « الحر ، بن يزيد بن ناجية اليربوعى » : أفما لكم فى واحدة من الخصال الثلاث التى عرض عليكم رضى ؟

قال « عمر » : والله لو كان الأمر إلىَّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

فلم يزد « الحر » .

وانثنى يدنو نحو « الحسين » قليلا قليلا وقد أخذته رعدة ، ولمحه رجل من قومه فقال :

ـــ والله إن أمرك لمريب ! والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل لى : من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك !

فقال له الحر : إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحُرقت !

ثم ضرب فرسه فلحق « بالحسين » وقال له :

« جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان ، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضتَ عليهم أبدًا . . . ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك الذى سألتهم ، ما ركبتها منك ، وإنى قد جئتك تائبًا ربى مما كان منى ، مواسيًا لك بنفسى حتى أموت بين يديك » .

ثم التفت إلى معسكر أصحابه فقال :

« يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ! أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ؟ وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، وأحطتم به ومنعتموه من التوجه فى بلاد الله العريضة ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًا ! ومنعتموه ومن معه من ماء « الفرات » الجارى الذى يشربه اليهودى والنصرانى والمجوسى ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهو وأهله قد صرعهم العطش ؟ ! بئس ما خلفتم محمدًا فى ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا . . . » .

فكان جوابهم أن رموه بالنبل ، ورجع هو حتى وقف أمام « الحسين » فناضل عنه حتى استشهد . . .

ودارت المعركة بين الآلاف والعشرات ! وجعل أصحاب « الحسين »

يتقدمون رجلاً بعد رجل ، « فقاتلوهم حتى انتصف النهار ، أشد قتال خلقه الله » .

وقام — رضى الله عنه — فصلى بمن بقى معه صلاة الخوف ظهراً ، وعادوا إلى القتال ، ثم لما علموا أنهم لا يقدرون أن يمنعوا إمامهم ، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه ، حتى فنوا جميعاً ولم يبق غير أهل بيته ، فتقدموا مستبسلين .

وكان أول قتيل منهم ، « على الأكبر بن الحسين » : أخذ يشد على الناس وهو يرتجز :

أنا على بن الحسين بن على
نحن ، وبيتِ الله ، أولى بالنبى
أضربكم بالسيف حتى يلتوى
ضرب غلام هاشمىٍّ علوى
ولا أزال اليوم أحمى عن أبى
تالله لا يحكم فينا « ابنُ الدعِى »[1]

وكان يكر على الكوفيين ، ثم يرجع إلى أبيه يقول : يا أباه العطش !

فيقول له « الحسين » :

— اصبر بنى ، فإنك لا تمسى حتى يسقيك رسول الله ﷺ وآله بكأسه !

فعاد الشاب يشد على العسكر الكرّة بعد الكرّة حتى رُمِىَ بسهم فوقع فى حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلب فى دمه ، فتلقاه أبوه وهو يقول بصوت ثاكل :

— قتل الله قوماً قتلوك يا بنى ! ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله ! على الدنيا بعدك العفاء ...

---

(1) الطبرى : ٦ / ٢٥٦ ، ابن الأثير : ٤ / ٣٣ ، مع نسب قريش : ٥٧ ، ومقاتل الطالبيين ١١٤ . و « ابن الدعىّ » هو عبيد الله بن زياد . أبوه « زياد بن سُمية » من دهاة العرب ، استلحقه أبو سفيان بن حرب بنسبه ، فهو « زياد بن أبيه » .

قال حميد بن مسلم : من شهود اليوم المشئوم : وكأنى أنظر إلى امرأة خرجتْ من خيام النساء كأنها الشمس طالعة ، تنادى فى جزع :

يا حبيباه ! يا ابن أخاه ...

فسألتُ عنها فقالوا : هذه زينب بنت على بن أبى طالب .

جاءت « زينب » حتى انكبت على الفتى الشهيد ، فجاءها « أخوها الحسين » فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط ، ثم عاد إلى ولده وقد أقبل فتيانه إليه فقال : احملوا أخاكم .

فحملوه من مصرعه ذلك ، ثم جاء به حتى وضعه بين يدى فسطاطه (١)

* * *

وأحاط القوم « بالحسين » فأقبل « القاسم بن الحسن بن على » — وهو يومئذ غلام — يجرى نحو عمه ، فجرت « زينب » إليه تريد أن تمنعه ، لكن الغلام أفلت منها حين رأى مجرماً يهوى بالسيف إلى عمِّه . ومد « القاسم » يده ليتقى ضربة السيف وهو يصيح بالمجرم :

« يا ابن الخبيثة أتقتل عمى » ؟

فقطع السيف يده ، وبقيت معلقة بخيط من الجلد .

صرخ الغلام الشهيد وهو يفحص برجليه :

— يا أماه !

فأجابته « زينب » من بعيد : لَبَّيْكَ .

وهرعت إليه ، فإذا « الحسين » واقف عند رأسه يقول :

« عزَّ واللَّهِ علي عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته » .

ثم احتمله حتى ألقاه مع ابنه على ، بين عينى « زينب » .

وأخذت « زينب » تتلقى هذا المحتضر من آلها أو ذاك ، فلا يكاد يلفظ النفس الأخير حتى تحتضن أشلاء آخر . . .

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى : ٧٠ ، مع مقاتل الطالبيين : ١١٥ .

وكان فيمن حُمِلَ إليها ، ولدها عون بن عبد الله بن جعفر وأخواه محمد وعبيد الله ، وإخوتها : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد الأصغر ، وأبو بكر ، وابنا أخيها الحسين : على ، وعبد الله ، وابنا أخيها الحسن : أبو بكر والقاسم ، وبنو عمها عقيل : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله و... و... !

والرحَى دائرة فى جنون ، لا تريد أن تكف وعلى أرض كربلاء من الطالبيين حى يتنفس !

وحين قاربت المعركة نهايتها ، اندفع عشرة رجال من جيش « ابن زياد » إلى فسطاط « الحسين » الذى فيه عياله ومتاعه لينهبوه ، فردتهم صيحة الإمام الذى كان يقاتل وحده :

« ويلكم إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً فى الدنيا ، فرحلى لكم عن ساعة مباح » .

* * *

وأبيح الرحل بعد ساعة ...

ويا لها من ساعة رهيبة ، جعل « الحسين » يقاتل فيها وحده بعد أن قتل عنه ولده وأهل بيته وأصحابه ، فلم يبق منهم أحد ...

قال من رآه يقاتل الجمع رابط الجأش : « فو الله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة ، وكأنى أنظر إلى قرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهى تقول :

« ليت السماء انطبقت على الأرض »

فلما دنا « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » من « حسين » قالت : « يا عمر ابن سعد ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر » ؟ فكأنى أنظر إلى دموع « عمر » وهى تسيل على خديه ولحيته ، ثم أشاح بوجهه عنها ...

أجل « زينب » حتى اللحظة الأخيرة ، وفى كل لحظة ...

« زينب » دون سواها من الزوجات والأمهات والأخوات اللواتى شهدن « كربلاء » !

وبقى « الحسين » وحده ، « فما رُئى مكسور قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشاً منه ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً » .

ووقفت أخته « زينب » غير بعيد تملأ عينيها منه قبل أن يمضى ، حتى إذا أثخنته الجراح وأوشك أن يهوى ، خانها جلدها فلم تعد تقوى على النظر إليه ، فأغمضت عينيها وأصغت بملء جوارحها إلى صيحته الأخيرة فى الألوف المجتمعة عليه :

« أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبداً من عباد الله ، اللّهُ أسخط عليكم لقتله منى . وايمُ اللهِ إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون . أما والله لو قتلتمونى لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم » .

فكأنما زلزل الأرض تحت أقدام المنتصرين .

ومكث ، رضى الله عنه ، طويلاً من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، لكنهم مضوا عنه واحداً فى أثر واحد ، لا يكاد يهم به الرجل منهم حتى يضعف ويرعد .

* * *

ثم قضى الله أمره ، وكانت النهاية المحتومة !

قتل الحسين ، « وكان بجثته حين قتل ، ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة .

ضربت كتفه اليسرى بالسيف فقطعت ...

وأجهزتْ ضربة أخرى على الشهيد ...

وتقدم ثالث فاحتز رأسه !

وكفت الرحى المجنونة بعد أن لم يبق من آل البيت من تطحنه !

ورُدَّت السيوف إلى أغمادها حين لم يعد هناك منهم ، من تذبحه .

وتركت جثث الشهداء بالعراء ...

« ومال الناس على الخيل والإبلِ فانتهبوها ، ومالوا على نساء « الحسين » وثقله ومتاعه ، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبَها عن ظهرها حتى تُغلَبَ عليه فيُذهَب به منها » بلفظ الطبرى ...

وجعلت الخيل تطأ جثث الشهداء !

* * *

وغربت شمس العاشر من المحرم سنة إحدى وستين ، وأرض « كربلاء » غارقة فى الدماء ، قد تبعثرت فيها أكرم الأشلاء ، ولاح القمر من وراء الغيوم خابى الضوء شاحبه .

وعلى ذلك الضوء الشاحب بدت « زينب » فى نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل ، عاكفات على تلك الأشلاء ، يلتمسن فيها ذراع ولدٍ حبيب ، أو كتف زوج عزيز أو قدم أخ غال .

وغير بعيد منهن ، كان عسكر « ابن زياد » يسمرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب .

وسُمِعتْ أصوات من هناك ، تقول لـ « شمر بن الجوشن » الذى احتز رأس الإمام الشهيد :

« قتلت الحسين بن على . . . ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله . قتلتَ أعظم العرب خطراً ... أراد أن يزيل ملك هؤلاء فأْتِ أمراءك واطلب جزاءك منهم ، فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم فى قتله كان قليلاً » .

فكان جوابه أن وقف بباب فسطاط « عمر بن سعد بن أبى وقاص » ثم نادى بأعلى صوته :

أَوْقِرْ ركابى فضةً وذهَبا

إنى قتلتُ السيد المحجبا

قتلتُ خيرَ الناس أُمًّا وأبا
وخيرَهم ، إذ يُنسبون ، نَسَبا

فقال عمر بن سعد : أشهد أنك لمَجنونٌ ما صحوتَ قط ! أدخلوه علىَّ ، فلما أُدخِلَ حذفه بالقضيب ثم قال : يا مجنون ، أتتكلم بمثل هذا الكلام ؟ لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك ...[1]

* * *

وقيل انتهت القصة ...

قصة ثلاثة وسبعين شهيدًا ثبتوا يومئذ ساعاتٍ ذات عدد أمام أربعة آلاف .

حتى قُتِلوا عن آخرهم !

وسيمر حينٌ قبل أن تكون لهم قبور تجمع ما تناثر من أشلائهم ، ويقف بها الرائى منشداً :

وقفتُ على أجداثِهم ومجالهم	فكاد الحشى ينفضُّ والعينُ ساجِمَه
لعمرى لقد كانوا مصاليتَ فى الوغى	سراعاً إلى الهيْجا ، حماة خضارمه
تأسَّوا على نصرِ ابنِ بنت نبيهم	بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
وما أن رأى الراءون أفضلَ منهم	لدى الموتِ سادات وزهراً قماقمه

ولم يبق من أشخاص القصة الذين ظهروا على المسرح الدامى سوى « السيدة زينب » التى لم تكد تغيب عنا لحظة طول المشهد الفاجع ، والتى ذهبت وحدها فى التاريخ بدور : « بطلة كربلاء » منذ سمعت الصيحة الأولى ، إلى موقفها إلى جانب أخيها وقد أغفى ، وهى يقظى لا تنام !

وكانت إلى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيد تبكيه .

وهى التى شوهدت إلى جانب « الحسين » ـــ رضى الله عنهما ـــ منذ بدأ القتال حتى انتهى ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦١ ، ومقاتل الطالبيين : ١١٩

الفصل الرابع

بَعْد المأسَاة

ـ موكب الأسرىٰ

ـ أوبَة الركب

ـ الرحلة الأخيرَة

ـ طالبَة الثأر

ـ الصَّدَى الباقي ...

مَوْكبُ الأسْـــرَى

كر نفر من الجيش راجعاً إلى الكوفة ، موقراً بحمله الرهيب من رؤوس الشهداء .

وكان الليل قد أوغل ، وقصرُ « ابن زياد » قد أغلق .

قالوا : فذهب « حوْلى بن يزيد » حامل رأس الإمام الشهيد ، إلى منزله فوضع الرأس فى مكان منه ودخل فراشه فقال لامرأته : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك فى الدار !

فصاحت مرتاعة :

ــ ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ والله لا يجمعنى وإياك بيت أبدًا !

وانطلقت من الدار خارجة تعدو فى ذعر ...[1]

* * *

وسيق موكب الأسرى والسبايا ...

كان فيهم صَبِيَّانِ للحسن بن على ، رضى الله عنه ، استصغرا فتركا بلا ذبح ، وأخ لهما ثالث ، ارتث جريحاً فحمل مع الركب .

وفتى مريض من أبناء الحسين ، هو « على الأصغر ، زين العابدين » أنقذته عمته « السيدة زينب » بشق النفس ، فكان كل من بقى من سلالة شهيدها الغالى .

ومع « زينب العقيلة » سيقت « فاطمة و سكينة بنتا الحسين » وبقية نساء بنى هاشم : سبايا أسيرات .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦١/٦ ، والمقاتل : ١١٩ .

وجاز الركب بساحة المعركة حيث الأشلاء مبعثرة فى الدماء ، فيروى الطبرى بإسناده عن قرة بن قيس التميمى ، قال : فما نسيتُ من الأشياء لا أنسى قول « زينب ابنة فاطمة » حين مرت بأخيهاالحسين صريعا : « يا محمداه يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ! هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا » . قال قرة : فأبكتْ كل عدو وصديق[1] .

* * *

ودخل الموكب « الكوفة » .

ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوى ، فى طريقهن إلى « عبيد الله بن زياد » وقد لبست العقيلة أرذل ثيابها، وتنكرت[2] .

وسُمِعَتْ آهةٌ من هنا ، وشهقةٌ من هناك ، وكلمةٌ من هنالك : رثاءً وعزاء ...

ورُئِيَتْ نساء « الكوفة » قياماً يندبن متهتكات الجيوب .

وبكى الباكون على الكريمات من بيت النبوة .

فلم تطق « السيدة زينب » على ذلك صبراً .

لم تطق أن ترى أهل « الكوفة » يبكون وهم الذين خذلوا أباها وأخاها « الحسين » ، وأسلموا ابن عمها « مسلم بن عقيل » ونادّوا أخاها « الحسين » فلما جاءهم ملبيًا باعوا سيوفهم ليزيد .

وذكرت قول أبيها « على » كرم الله وجهه فى أهل « الكوفة » وشكواه منهم ، ثم أرسلتْ بصرها بعيدًا ، حيث جثث الشهداء من أهلها ممزقة منبوذة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦٢/٦ .
(٢) الكامل لابن الأثير : ٣٣/٤ .

بالعراء ، حتى استقرت عيناها أخيراً على أولئك الباكين ، فأشارت إليهم أن اسكتوا .

فطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً ، على حين مضت هى تقول :

« أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة ! إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ، ألا ساء ما تزرون .

« أى والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشَنَارها ، فلن تَرْحَضوها بغسل أبداً . وكيف تَرْحَضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ! ..

أتعجبون لو أمطرت دماً ؟ ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، أنْ سَخِطَ الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون ...

« أتدرون أى كبد فريتم ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ؟ ﴿ **لقد جئتم شَيئاً إدًّا * تكادُ السمٰواتُ يتفطَّرْنَ مِنهُ وتَنْشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا** ﴾ .

قال من سمعها : « ... فلم أر والله خَفِرةً أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضج الناس بالبكاء ، وذهلوا ، وسقط ما فى أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء » .

ثم لوت رأسها عنهم ، ومضت قدماً ، إلى حيث أريد لها أن تمضى ، هى والسبايا من آل البيت الكريم .

مضت حتى بلغت دار الإمارة ، فأحست شجا فى حلقها !

إنها تعرف كل قطعة فى هذى الدار ، فلقد كانت دارها ، أيام كان أبوها « على » أمير المؤمنين . ملء الدنيا والحياة ...

وترنحت الدموع فى مقلتيها ، لكنها أبت عليها أن تذل ، وجمعت شجاعتها وهى تجتاز الساحة الكبرى حيث رأت ـــ منذ أكثر من عشرين عاماً ـــ ولدها عوناً يحبو لاهياً ، ورأت شقيقيها الحسن والحسين ملء القلوب والأبصار .

ووضعت يمناها على ما بقى من قلبها خشية أن يتصدع ، حين أشرفت على القاعة الكبرى ورأت « عبيد الله بن زياد » جالساً حيث تعود أبوها أن يجلس : يستقبل الوفود ، ويجتمع بالرسل والأمراء والولاة ...

إنها تدخلها اليوم أسيرة يتيمة ثكلى ، قد فقدت أباها ، وولدها وشقيقيها ، وبقية آلها .

ودَّت إذ ذاك لو أنها نفست عن أشجانها بدمعة . . . لكنها كرهت أن تلقى الطاغية ذليلة باكية .

لم تكن قط كما هى اليوم ، بحاجة إلى أن تلوذ بكل كبريائها وقوتها ، وعزة بيتها ، وشرف آلها ، وعراقة نسبها ، لكى تقف الموقف الجدير بالسيدة عقيلة بنى هاشم .

وهى أشد حاجة إلى ذاك ، لتؤدى دورها الذى ينتظرها ، بعد أن اجتاح الإعصار كل من كان لها من الرجال ...

وتقدمت العقيلة فى مهابة تحف بها نساؤها ، فأخذت مجلسها دون أن تلقى بالاً إلى الأمير الطاغية .

وأخذتها عيناه وهى تجلس بادية الترفع ، قبل أن يؤذن لها فى الجلوس ، فسألها : « من هذه الجالسة ؟ »

فلم تكلمه . قال ذلك ثلاثا ، كل ذلك لا تكلمه .

وأجابت إحدى إمائها :

ـــ هذه زينب ابنة فاطمة .

قال لها « ابن زياد » وقد غاظه ما كان منها : « الحمد لله الذى فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم » .

فردت عليه ونظراتها تقطر احتقاراً : « الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه ﷺ وآله ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » .

قال : كيف رأيتِ صنع الله بأهلِ بيتك ؟

أجابت وما يزايلها ترفعها :

« كُتِبَ عليهم القتلُ فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده . »

صغر الطاغية وتضاءل ، وإن قال فى اشتفاء وغضب :

ــ قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك . . .

فردتْ عبرتها وهى تقول : لعمرى لقد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت .

فقال فى غيظ : هذه سجاعة ، لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً[1] .

فقالت فى رزانة صارمة : ما للمرأة والسجاعة ؟ إن لى عن السجاعة لشغلاً .

فرد عنها بصره ، وعاد يتأمل فى وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على « على الأصغر بن الحسين » فأنكر بقاء فتًى منهم حياً وسأله : ما اسمك ؟

قال : أنا على بن الحسين .

فعجب « ابن زياد » وتساءل : أَوَ لم يقتل اللهُ علىَّ بنَ الحسين ؟

فسكت علىّ .

وعاد « ابن زياد » يستحثه : ما لك لا تتكلم ؟

قال : قدكان لى أخ يقال له أيضاً « على » فقتله الناس .

---

(١) وقع فى طبعة الحسينية ، الأولى من تاريخ الطبرى : [هذه شجاعة ... شجاعاً] ٦/٢٦٣ .

قال « ابن زياد » إن الله قد قتله ! ..

فأمسك علىّ لا يرد ، ثم تلاَ ، حين استحثه « ابن زياد » :

﴿ اللَّهُ يتوفَّى الأنفسَ حينَ مَوْتِها ﴾ . . ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أن تموتَ إلاَّ بإِذْنِ اللّهِ ﴾ .

فصاح الطاغية : أنت والله منهم ، ويحك !

ثم التفت إلى رجاله فقال :

ــ انظروا هل أدرك ؟ والله إنى لأحسبه رجلاً !

« ثم أمر به أن يقتل ، فاعتنقته عمته « زينب » وهى تقول :

ــ يا ابن زياد ، حسبك منا ! أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحداً ؟

ثم آلت عليه : لَيدعَنَّ الغلام ، أو فليقتلْها معه ...

فنظر إليها « ابن زياد » ساعة ، ثم نظر إلى القوم فقال :

« عجباً للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه : دعوا الغلام ينطلق مع نسائه .. »

وأمر « ابن زياد » برأس « الحسين » فطيف به فى الكوفة محمولاً على خشبة ثم أمر أن يوطأ صدرُه وظهره وجنبه ، فأُجْرِيت الخيل عليه ثم جعل الغل فى يدى « على زين العابدين » ورقبته ...[1]

* * *

وسيق الموكب مرة أخرى إلى دمشق ...

رأس الحسين ، ورؤوس السبعين من آله وصحبه ، والأسرى من الصبية

---

(١) ينظر (نسب قريش : ٥٨) مع الطبرى : ٢٦١/٦ ، ومقاتل الطالبيين : ١١٩ .

فى الأغلال ، والسبايا من نساء البيت النبوى محمولات على الأقتاب فى حراسة بعض رجال « ابن زياد » الأشداء .

لم يتكلم « على بن الحسين » طوال الطريق .

ولم تتكلم عمته « زينب » .

كانت المحنة الخانقة قد ألجمت لسانيهما فانطوى « ابن الحسين » على نفسه صامتاً يحدق فى الأغلال .

وراحت « زينب » ترمق رؤوس الشهداء من آلها واجمة صامتة !

حتى إذا بلغوا « دمشق » سير بهم تواً إلى حضرة « يزيد بن معاوية » وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء .

وكان « يزيد » قد دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله .

ووضِعت رأس « الحسين » بين يديه ، ومعه قضيب ينكت به ثغره ، فالتفت إلى أصحابه يقول :

« هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المُرّى :

أبى قومُنا أن ينصفونا فأنصفتْ قواضبُ فى أيماننا تقطر الدمَا

يفلقن هَاماً من رجالٍ أعزة علينا ، وهم كانوا أعَقَّ وأظلما !

فأنشد « يحيى بن الحكم » ، أخو مروان بن الحكم الأموى :

لَهَامٌ بجَنْبِ الطفِّ أدنى قرابةً من ابنِ زيادِ العبدِ ذى الحسَبِ الوغْلِ

سُمَيَّةُ أمسى نسلها عددَ الحصى وليس لآل المصطفى اليومَ من نسلِ

فضرب « يزيد » فى صدر يحيى وقال : اسكتْ[1] .

ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى رأس الشهيد :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦٥ — ٢٦٧ ، والكامل لابن الأثير : ٤/٣٥ — ٣٧ ، والمقاتل : ١١٩ — ١٢٠ .

« أتدرون من أين أُتِيَ هذا ؟ قال : أبى عليٌّ خير من أبيه ، وفاطمة أمي خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما قوله : أبوه خير من أبى فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله : أمي خير من أمه ، فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمي . وأما قوله : جدى رسول الله خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلًا أو ندًا . ولكنه — أى الحسين — أتى من قبل فقهه ، ولم يقرأ : ﴿ **قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلْكِ تُؤْتِى الملكَ مَن تشاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّن تشاءُ ، وتُعِزُّ من تشاءُ وتُذِلُّ من تشاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنكَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ** ﴾[1] .

فقال له « أبو برزة الأسلمى » رضى الله عنه : « أتنكتُ بقضيبك فى ثغر الحسين ؟ لقد أخذ قضيبُك فى ثغره مأخذاً ربما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشفه .. أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابنُ زيادٍ شفيعُك ، ويجيء هذا ومحمدٌ شفيعه ! ثم قام ، فولَّى . فقال يزيد : واللّهِ يا حسَيْنُ لو كنتُ أنا صاحبَكَ ما قتلتك »[2] .

« ثم أمر فأُدخِلَ نساءالحسين عليه ، والرأسُ بين يديه ، فجعلت فاطمة وسكينة ، ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا رأس أبيهما ، وجعل يزيد يتطاول ليسترها عنهما . فلما رأت النساء الرأسَ صِحْنَ ، فصاح نساء يزيد فى قصره وولولتْ بناتُ معاوية . فقالت فاطمة بنت الحسين : بنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ .

فقال : يا ابنةَ أخى ، أنا لهذا كنتُ أكره[3] .

وجعل أهل المجلس ينظرون إلى بنات البيت الهاشمى ، وقد كن — حتى أمس القريب — عزيزات منيعات مصونات !

وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن ، فغضوا من أبصارهم تهيبا إلا رجلاً من أهل الشام ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق فى فاطمة بنت الحسين — وكانت شابة

---

(١) الطبرى ، وابن الأثير . والآية من سورة آل عمران : ٢٦ .

(٢—٣) الطبرى ، وابن الأثير . ومقاتل الطالبيين .

وضيئة ــ بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل إلى « يزيد » فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، هب لى هذه !

فأخذت فاطمة بثياب عمتها « زينب » مذعورة ترتجف .

قالت السيدة وهى تحتضن بنت أخيها الشهيد :

ــ كذبتَ والله ولؤمت ! ما ذلك لكَ ولا له :

فغضب يزيد وقال : إن ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت !

قالت :

ــ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

فاستثاره قولها غضباً وتساءل منكراً :

ــ إياى تستقبلين بهذا ؟

ردَّت ، فى عناد :

ــ بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت يا يزيد ، أنت وأبوك وجدك !

قال محنقاً : كذبتِ ...

فهزت رأسها استخفافاً وهى تقول : أنت أمير مسلط ، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك ....

فلم يجب ...

وساد القاعة وجوم ثقيل ، ثم عاد الشامى يملأ عينيه من « فاطمة » ويقول :

ــ يا أمير المؤمنين ، هب لى هذه الجارية !

فصاح به أميره :

ــ اغربْ ، وهبكَ الله حتفاً قاضيا ! (الطبرى : ٦/٢٦٥)

* * *

ثم كان المشهد الرهيب :

كشف « يزيد » عن رؤوس الشهداء ، وعاد يعبث بقضيب فى يده ، بثنايا الحسين الإمام وهو يتمثل بأبيات « عبد الله بن الزبعرى ، شاعر قريش » يوم أحد :

ليت أشياخى « ببدر » شهدوا جزع « الخزرج » من وقع الأسلْ
لأهلّوا ، واستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا « يزيد » لا تشل !

فبكت نساء هاشم إلا العقيلة فإنها انتفضت تصيح فى يزيد :

صدق الله يا يزيد : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِأَـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم ١٠)

« أظننت يا يزيد أنه حين أُخِذَ علينا بأطرافِ الأرض وأكنافِ السماء فأصبحنا نُسَاق كما تساق الأسارَى ، أَّن بنا هواناً على الله ، وأن بك عليه كرامةً ؟ وتوهمتَ أنَّ هذا لعظيمِ خطرِك ، فشمختَ بأنفك ، ونظرت فى عِطْفَيْكَ جذلانَ فَرِحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك ؟ إن الله إنْ أمهلك فهو قوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾
(آل عمران ١٧٨)

« أمِن العدل يا ابن الطلقاء ، تخديرُك بناتك وإماءَك ، وَسوْقُك بنات رسولِ الله ﷺ وآله كالأسارى قد هُتِكَتْ ستورُهن ، وأصْحَلَتْ أصواتُهن ، مكتئباتٍ تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لا يُراقبْنَ ولا يؤوَين ، يتشوفهن القريبُ والبعيد ليس معهن قريبٌ من رجالهن ؟ ...

« أتقول : * ليت أشياخى ببدر شهدوا * غيرَ متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا « أبى عبد الله » بمخصرتك ؟ ولم لا وقد نكأت القرحة واستأصلتَ الشأفة بإهراقكَ هذه الدماءَ الطاهرة ، دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟

« ولَتَرِدَنَّ على الله وشيكاً موردَهم ، وعند ذلك تود لو كنتَ أبكمَ أعمى .

« أيزيدُ واللّهِ ما فريتَ إلا فى جِلْدِك ، ولا حَززْتَ إلا فى لحمك ! وستَرِدُ على رسولِ الله ﷺ وآله برغمك ، ولتَجدنَّ عِترتَه ولحمته من حوله فى حظيرةِ القُدس ، يومَ يجمع الله شملَهم من الشعث : ﴿ **وَلَا تَحسبنَّ ٱلذينَ قُتِلُوا فِى سبيلِ اللّهِ أمواتًا ، بَلْ أحيَاءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقُون** ﴾ .

« وستعلم أنت وَمن بوأك ومكَّنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكَم ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك : أينا شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً .

« فلئن اتخذتّنا فى هذه الحياة مغنماً ، لتجدنَّنا عليكَ مغرماً ، حين لا تجد إلاما قدمت يداك . تستصرخ بابن مرجانة — عبيد الله بن زياد — ويستصرخ بك ، وتتعاوى واتباعُك عند الميزان وقد وجدتَ أفضلَ زادٍ تزودت به : قتلَ ذرية محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

« فواللّهِ ما اتّقيتُ غيرَ الله ، وما شكوتُ إلا لله ، فِكدْ كيدَك ، واسْعَ سعيَكَ ، وناصبْ جهدك ، فواللّهِ لا يُرحَضْ عنك عارُ ما أتيت إلينا أبداً »

وسكتت ، فأطرق « يزيد » وأطرق كل من كان معه ، كأن على رؤوسهم الطير ...

* * *

وفى خبرٍ أن « هند بنت عبد الله بن عامر : زوجة يزيد » سمعت بما يدور فى مجلس زوجها ،فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت : « يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله ؟

قال : نعم ، فأعْوِلى عليه وحُدِّى ...

* * *

وضاق « يزيد » بمرأى « زينب » وروّعه ما سمع منها ، فأشاح عنها بوجهه وهو يشير إليها وإلى النساء معها أن يخرجن إلى داره .

وأمر بـ « على بن الحسين » فأدخل مغلولاً فقال :

ـــ لو رآنا رسول الله ﷺ وآله مغلولين لفك عنا .

قال « يزيد » وما يزال صوت « زينب » يدوى فى أذنيه : صدقتَ .

وأمر بفك الغل عنه ، ثم قرّبه إليه وهو يقول كالمعتذر :

ـــ إيه يا على بن الحسين ! أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما رأيت .

فكان جواب « على » أن تلا قوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ ، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ .

فهم « يزيد » بأن يتلو الآية :

﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** . . . ﴾ لكنه ما لبث أن سكت ، فقد كان صراخ النسوة يسمع من بعيد ، فاجعاً مؤثراً ، عالى الصدى .

ولم تكن بنات هاشم وحدهن الباكيات ، بل واستهنْ نساء بنى أمية بدموعهن .

فلم تبق من آل معاوية امرأة إلااستقبلتهن تبكى وتنوح على « الحسين » .

وأقيمت المناحُة ثلاثةَ أيام وِصالاً ، ثم أمر « يزيد » فَجُهِّزْنَ للسفرِ إلى « المدينة » فى صحبة حارس أمين ، معه خيل وأعوان ...

وقيل إن « يزيد » دعا « علياً » فقال له مودعاً :

« لعن اللّهُ ابنَ مرجانة ـــ يعنى ابن زياد ـــ أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبداً إلا أعطيتُه إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله ما رأيت » .

وسأله أن يكتب إليه كلما عنت له حاجة ، ثم انسل إلى مخدعه وصدى صوت العقيلة يطارده فى قسوة وإلحاح !

* * *

وخرج الحارس بنساء « الحسين » وصبيته ، يسايرهم بالليل متلطفاً فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم ، فلم يزل ينازلهم فى الطريق هكذا ، وهو يسألهم من حين إلى حين : « هل من حاجة ؟ »

قالت « زينب » : لو عرجتَ بنا على « كربلاء » ؟!

فأجاب محزوناً : أفعل !

ومضى بهم حتى أشرفوا على الساحة المشئومة ..

* * *

كان قد مضى على المذبحة يومئذ أربعون يومًا ، وما تزال الأرض مخضبة ببقع من دماء الشهداء ، وبقية من أشلاء عف عنها وحش الفلاة .

وناحت النوائح ، وأقمن هناك ثلاثة أيام لم تهدأ لهن لوعة ولم ترقأ لهن دمعة ، ثم أخذ الركب المنهك طريقه إلى « مدينة الرسول » .

فلما كانوا بظاهر المدينة قالت « فاطمة بنت الحسين » لعمتِها « السيدة زينب » :

ـــ لقد أحسن هذا الرجل إلينا فى صحبتنا ، فهل لك فى أن نصله ؟

أجابت « العقيلة » : والله ما معنا شيء نصله به إلا حلينا ...

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به إلى الرجل ، معتذرتين إليه عن ضآلة الهدية ، بضيق الحيلة واليد .

لكن الرجل رد إليهما الحلى قائلاً :

ـــ لو كان الذى صنعتُ إنما هو للدنيا ، كان فى حليكن ما يرضينى ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

أوبَــة الــركب

كانت « المدينة » فى تلك الفترة ، واجمة تترقب أنباء سبط النبى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — الذى خرج إلى « الكوفة » ملبياً نداء شيعته هناك ، فما راعها إلا منادٍ ينادى :

« إن على بن الحسين قد قدم إليكم مع عماته وأخواته » .

على بن الحسين ؟ والعمات والأخوات ؟

فأين « الإمام الحسين » إذن ؟ وأين الأعمام والإخوة وبنو الأعمام ؟

أين نجوم الأرض من « بنى الزهراء » وآل عبد المطلب ؟

أين ... وأين !

وانتشر صدى النعى حتى بلغ سفح « أُحد » ثم ارتد إلى البقيع ، فقباء ، خافتاً ممزقاً ، وما لبث أن تلاشى فى صراخ الباكين وعويل النادبات .

لم تبق مخدرة فى « المدينة » إلا برزت من خدرها نائحة معولة ، واندفعت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » — أخت مسلم — ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وتصرخ :[1]

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم ، وأنتم آخـر الأمم

بعترتى وبـأهلى بعـد مفتقـدى ... منهم أسارى ، ومنهم ضرجوا بدم ؟

ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وسمع من بعيد صوت ينوح :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦٨/٦ (سنة ٦١ هـ)

أيها القاتلون جهلاً « حسيناً » أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبى ، ومالك ، وقبيل
قد لعنتم على لسان داو دَ ، وموسى ، وحاملِ الإنجيل !

وأشرف الركب الحزين على الجموع التى خرجت لاستقباله ، فما رأت « مدينة الرسول » أفجع مشهداً ، ولا رأت بعد رحيل المصطفى ﷺ ، مثل ذاك اليوم أكثر باكياً وباكية !

* * *

وذكرت « المدينة » ليلة خرجوا منها إلى « مكة » — فى إحدى أمسيات شهر رجب الفرد — جمعاً كريماً يتقدمه « زين شباب الجنة » فى هالة من النجوم الزهر .. خرجوا يطاولون « يزيد بن معاوية » ليزيلوه عن مُلْكٍ لم يروه له أهلاً ...

لقد آب الركب من سفره بعد تلك الغيبة التى لم تتجاوز أشهراً معدودات ، فيا لله ماذا فعلت بهم الليالى والأيام ؟

حثتهم إلى مناياهم سراعاً ، حتى إذا بلغوا وادى الردى — ذاك الذى خالوه وادى الأمل — حصدهم منجل الموت حصداً ، فلم يترك سوى هذه البقية التعسة من الصبية اليتامى والنسوة الثواكل !

وأمّا الرجال والشباب فلم يؤب منهم مسافر ...

* * *

وأقامت « مدينة الرسول » أياماً بلياليها تشهد المأتم الرهيب ، وتصغى إلى النواح الفاجع ، وتتلقى فى ثراها الطاهر دموع البواكى ..

وقتئذ نرى « عبد الله بن جعفر » — زوج زينب — يجلس ليتقبل العزاء فى ولديه : عون الأكبر ، ومحمد . وفى ابن عمه « الحسين » وبقية الشهداء من آل جعفر وبنى عبد المطلب .

ونسمع مولى من مواليه يقول فى حمق : « هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين » .

فقذفه « عبد الله » بنعله ساخطاً مغضباً وهو يقول :

« يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدتُه لأحببتُ ألاَّ أفارقَه حتى أقتلَ معه . والله انه لمما يسخى بنفسى عن ولدىَّ ويهون علىَّ المصابَ فيهما ، أنهما أصيبا مع أخى وابنِ عمى ، مواسيَيْنِ له صابرينِ معه » .

ثم ينثنى إلى جلسائه فيقول : « أعزِزْ على بمصرع الحسين ، إلا تكن يدى آست حسيناً فقد آساه ولداى »[1]

ثم ينفض المأتم . وتبقى الأرامل والثواكل ، يسعين كل يوم إلى القبور فيندبن الأعزاء الذين غودروا بكربلاء ، وترجِّع « المدينة » أصداء أصواتهن فيبكى لهن الأعداء والأصدقاء .

حدثوا أن « أم البنين بنت خزام : زوج الإمام على » كانت تخرج إلى البقيع فتبكى بنيها الأربعة « عبد الله ، وجعفراً ، وعثمان ، والعباس » — وقد قتلوا جميعاً فى كربلاء . وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها ، فيجتمع الناس إليها يسمعون منها ، فكان مروان بن الحكم — عدو الطالبيين — يجىء فيمن يجىء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكى !

وقيل إن « الرباب بنت امرىء القيس : زوج الحسين وأم ابنته سكينة » عادت بعد مصرعه إلى المدينة « فامتنعت على الخطاب من أشراف قريش ، وبقيت بعده سنة لم يظلها سقفُ بيتٍ حتى بليت وماتت ! »

* * *

ونفتقد « السيدة زينب » فى المأتم الذى أقامه « عبد الله بن جعفر » بالمدينة لولديه منها ، فيخيل إلينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد .

غير أنا لا نلبث أن نراها وقد أمسكت دموعها ، وهبت تطلب أمراً ...

إن لها اليوم لشأناً آخر ، غير البكاء !

فهذا الدم المسفوح ، لا ينبغى أن يضيع هدراً ...

وأولئك الشهداء الكرام ، لا يجوز والله أن يذهبوا باطلاً . . .

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦٨ (سنة ٦١ هـ)

الرحلة الأخِيرَة

أرادت « السيدة زينب » أن تقضى ما أبقت لها الأيام من عمر ، فى جوار جدها ﷺ ، لكن « بنى أمية » كرهوا ذلك المقام :

فلقد عادت هى ومن معها يقصون على المؤمنين ما لقى سبط النبى من جيش ابن زياد ، ويصفون لهم المجزرة الحاصدة التى ذبح فيها الإمام الحسين وشيعته .

وكان وجود « السيدة زينب » فى المدينة كافياً لأن يلهب الحزن على الشهداء ، ويؤلب الناس على الطغاة ، حتى كاد الأمر يفسد على بنى أمية ، فكتب واليهم « بالمدينة » إلى « يزيد » : « إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وإنها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » .

فأمره « يزيد » أن يفرق البقية من « آل البيت » فى الأقطار والأمصار .

وطلب الوالى إلى « السيدة زينب » أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء .

قالت غاضبة مستثارة :

« قد علم والله ما صار إلينا : قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحُمِلْنا على الأقتاب ، فوالله لاخرجنا وإن أريقت دماؤنا » .

لكن النساء الهاشميات أشفقن عليها من غضب الطاغية ، فأحطن بها يتلطفن معها فى الكلام ويواسينها ويغرينها بالخروج . وقالت لها « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » :

« يا ابنة عمى ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء وسيجزى الله الظالمين ... ارحلى إلى بلد آمن » .

فخرجت « زينب » من مدينة جدها ﷺ ، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك أبدًا !

* * *

رحلت تريد « مصر » ...

وما أكثر ما رحلت !

أفتقضى العمر هكذا متنقلة من بلد إلى بلد لا يطمئن بها على الأرض مكان ؟

وشعرت رفيقات السفر من الهاشميات ، أن عقيلتهن تبدو مجهدة كما لم تبد قط من قبل ، فهى تقطع الطريق تائهة النظرات جامدة العينين ، كأن شيئًا فيها قد انكسر أو مات .

ويردن ليؤنسن وحشتها فلا تزداد إلا وجومًا وشرودًا .

ويعمدن آخر الأمر إلى شيء زعمن أنه قد يخفف عنها ، فمضين يتذاكرن ما كان فى « كربلاء » كى ينكأن جرحها فتبكى ...

لكن الدمع كان قد تحجر فى مقلتيها ...

وأوغل الجرح فى قلبها : عميقًا غائرًا مميتًا !

* * *

وكانت الليالى الأخيرة من السفر أشد المراحل كآبة وانقباضًا ...

جاوز الركب السارى أرض الحجاز ، مرتع الصبا وموطن الأجداد والآباء ...

وأشرف على أرض الكنانة . . .

الأفق مظلل بالغيوم وليس فى السماء قمر . . .

وعلى الصحراء الشرقية جثم الهواء راكدًا فاترًا ثقيلاً ، كأنما جَمُدَ لمرأى الركب الحزين السارى .

* * *

وملأت الوحشة ، ذلك الفضاء العريض ...

ثم تغير المشهد :

بزغ هلال شعبان (عام ٦١ هـ) فى اللحظة التى وطئت فيها « السيدة » أرض الكنانة ، فإذا جموع من الناس قد احتشدت لاستقبالها .

وساروا هكذا حتى بلغوا قرية قرب « بلبيس » فقابلتهم هناك جموع أخرى آتية من عاصمة الوادى الأمين .

إنه أمير مصر « مسلمة بن مخلد الأنصارى الخزرجى ، رضى الله عنه » فى وفد من أعيان البلاد وعلمائها ، قد خرجوا للقاء ابنة « الزهراء » أخت « الإمام الشهيد » .

فلما أطلت عليهم بطلعتها المشرقة بنور الاستشهاد ، أجهشوا بالبكاء .

وحفوا بركبها ، حتى إذا بلغت العاصمة مضى بها « مسلمة » إلى داره فأقامت بها قرابة عام ، لم تُرَ خلالها إلا عابدة متبتلة .

* * *

ثم كانت نهاية المطاف .

ماتت « السيدة زينب » عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من شهر رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الأقوال .

وأُغمِضت العينان اللتان شهدتا مذبحة « كربلاء » .

وآن للجسد المتعب المضنى أن يستريح .

فمهدت لها الأرض الطيبة مرقدًا لينًا فى مخدعها من دار « مسلمة » حيث نزلت « السيدة » منذ جاءت ، وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة[1] .

وبقى قبرها مزارًا مباركًا يفد إليه المسلمون ، حتى يومنا هذا ، من كلِّ فجٍّ عميق ...

وبقيت قصةُ آلامها المثيرة ، حديثَ الزمان ...

* * *

(١) فى أوائل القرن الهجرى الماضى ، كتب « على باشا مبارك » عن الجامع الزينبى ، يصف « ضريح سيدة الطاهرات السيدة زينب بنت الإمام على كرم الله وجهه : عليه مقصورة من النحاس الأصفر وستر من الحرير المزركش ، وتعلوه قُبَّة شامخة ، وهذا الضريح داخل الجامع الشهير بالزينبى . جدَّده الأمير على باشا الوزير المتولى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة . ثم فى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف ، جدده ووسعه الأمير عبد الرحمن كتخدا . وهو عامر إلى الآن وشعائره مُقامة إلى الغاية . ويعمل به حضرة للسيدة رضى الله عنها كل ليلة أحد ، ومَقرأة كل ليلة أربعا ، ومولد كل عام يجتمع فيه من النذور والهدايا شيء كثير جدا . وقد صار الآن تجديده وتنظيمه من جهة ديوان الأوقاف . » الخطط التوفيقية ط ثانية ٣ / ١٠٧ عن الطبعة الأولى ١٣٠٤ هـ . ومن شاء فليرجع إلى (أخبار الزينبات — صفحات ٧ و ١٩ و ٥٩) وما استدرك على « السخاوى » فى (تحفة الأخبار — هامش ص ١١١) وانظر أيضًا (طبقات الشعرانى ص ٢٩) والخطط لعلى مبارك باشا .

طالبة الثأر

لم تعش « السيدة زينب » بعد أخيها الشهيد سوى عام ونصف عام .

لكنها استطاعت فى هذه الفترة القصيرة أن تؤثر فى مجرى التاريخ :

ظن « بنو أمية » أن مقتل « الحسين » وآله جميعًا ، رضى الله عنهم ، هو الفصل الأخير من قصة الشيعة .

ولم يكونوا فى ذلك الظن سذجًا أو غافلين ، فما كان يُرجَى أن تقوم للطالبيين قائمة بعد أن فنى الرجال ولم يبق سوى الصبية اليتامى والنسوة الثكالى ...

من قبلُ قتل « الإمام على » كرم الله وجهه ، ومضت الحياة سيرتها لا تتوقف . . .

واستوثق الأمر « لمعاوية » بعد أن تخلى له عنه « الإمام الحسن بن على » عميد البيت العلوى .

ثم قتل « الإمام الحسين » على مرأى من شيعته بالكوفة ومسمع ، وكانت الحياة بحيث تمضى بهم سيرتها الأولى ، لولا أن « السيدة زينب » ظهرت على مسرح المأساة — قبيل إسدال الستار — لتقذف بلعنتها الطغاة من بنى أمية وعمالهم ، ومن خذلوا آل البيت من أهل الكوفة .

ومن ثم لم يسدل الستار قط ، ولعله لن يسدل أبدًا . . .

* * *

لم تمض العقيلة إلا بعد أن أفسدت على « ابن زياد ، ويزيد ، وبنى أمية »

متعة النصر ، وسكبت قطرات من السم الزعاف فى كؤوس الظافرين !

فكانت فرحة لم تطل ...

وكان نصرًا مؤقتًا ، لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة كانت من عوامل القضاء على دولة بنى أمية .

فلم تكد « السيدة زينب » تخرج من عند « يزيد » حتى أحس أن سروره بمقتل « الحسين » قد شابه كدر خفى ، ظل يزداد حتى استحال إلى ندم ، كدَّر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته .

ولحق منه « بابن زياد » شر كثير ...

روى « الطبرى » و « ابن الأثير » أنه (لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد ، الحسينَ ابن على — عليهما السلام — وبنى أبيه ، بعث برؤوسهم إلى « يزيد » فسر بقتلهم أولا ، وحسنت بذلك منزلة « عبيد الله » عنده ، ثم لم يلبث قليلاً حتى ندم على قتل « الحسين » . فكان يقول : « وما كان علىَّ لو احتملت الأذى وحكّمته فيما يريد ؟ .. لعن الله « ابن مرجانة » فإنه أخرجه واضطره ... ثم قتله فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلى حسينًا ! .. ما لى ولابن مرجانة ... لعنه الله !) .

وغضب عليه .. وفى الأفق صدى من قول « يحيى بن الحكم الأموى » :

« سميةُ » أمسى نسلُها عددَ الحصى   وليس لآلِ المصطفى اليوم من نسلِ !

* * *

وشغل الناس بعد وفاة « السيدة زينب » بالحديث عن استجابة السماء لدعاء الإمام الشهيد وأخته العقيلة ، وراحوا يملأون لياليهم بسمر عجيب عن غضب الله للدم الطاهر المسفوح ، والبيت الكريم المستباح .

وجاء المؤرخون فلم يستطيعوا أن يمروا بتلك الأقاصيص والأسمار دون أن يقفوا عندها وينقلوها إلينا :

فما تركوا أحداً ممن شارك فى مأساة « كربلاء » إلا جاءونا بقصة عما سُلِّط عليه من غضب السماء وانتقام الله الواحد القهار .

وقد نتردد فيما جاءت به كتب غلاة الشيعة عن مصاير هؤلاء الآثمين ، لكننا نصغى إلى مؤرخين عرفوا بالأمانة والاعتدال — كالطبرى وابن الأثير — فنسمع العجب العجاب :

ذاك رجل من بنى دارم حال بين « الحسين » وبين الماء ، فدعا عليه الشهيد بالظمأ . قال من رآه بعد ذلك : « فو الله إنْ مكث إلا يسيراً حتى صُبَّ عليه الظمأ فجعل لا يروى ... ولقد رأيته وبين يديه قلال الماء وعِساس اللبن وإنه ليقول : ويلكم ! اسقونى ، قتلنى الظمأ ! فيعطى القلة أو العس فيشربه ، ثم يقول بعد هنيهة : ويلكم ! اسقونى قتلنى الظمأ ، حتى انقدَّ بطنُه ! ... »

وآخر منهم ، دعا عليه « الحسين » : « اللهم اقتله عطشاً » . فحدَّث من عاده فى مرضه قال : « فوالله الذى لا إله إلا هو ، لقد رأيته يشرب ثم يقىء ، ثم يشرب ... فما يروى ... حتى مات » .

وثالث من كندة ، أخذ (برنس) الإمام الشهيد ، وأقبل على داره يغسله من الدم ، فقالت له امرأته : أسلب ابن بنت رسول الله تُدخِلُ بيتى ؟ .. أخرجه عنى ! » . قيل : فذكر أصحابُه أنه لم يزل فقيراً حتى مات !

ورابع ، سلب سراويل « الحسين » فتركه مجرداً ، قالوا : « إن يديه كانتا فى الشتاء تنضحان الدم ، وفى الصيف تيبسان كأنهما عود ! »

وقد يكون أكثر هذا من صنع السمار والمنقبيين ، فلا يفقد قيمة تفسيره الوجدانى للأحداث . مع ما لا شك فيه عند المؤرخين ، أن دم « الحسين » الذى طلبته أُخته « زينب » لم يذهب هدرًا !

فما هى إلا أعوام ثلاثة فحسب ، حتى كانت جذوة الغضب الكامنة قد نضجت فى بطء ، واحتدمت مستعرة ترمى بشرر كالقصر ...

وهبت الكوفة بأسرها تصيح : « يا لَثاراتِ الحسين » !

وشهد عام ٦٦ هـ ، مذبحة أخرى بالعراق ، ثأراً لمذبحة كربلاء !

قتل من الذين شاركوا فى قتل « الحسين » مائتان وثمانية وأربعون فى موقف واحد !

وطورد الهاربون فى إصرار وإلحاح ، فإذا جىء بهم سئلوا : « أين الحسين ابن على ؟ قتلتم من أُمرتم بالصلاة عليه ؟! »

ثم اختيرت لكل منهم قتلة تناسب دوره فى مصرع الشهيد :

فهذا يحرق بالنار .

وذاك تقطع أطرافه ويترك حتى يموت .

وثالث يذبح ذبح النعاج .

ورابع كان يقول : « لقد رميتُ فتى من آل الحسين بسهم ، فوضع كفه على جبهته يتقى النبل فاخترق النبل كفه » .

قالوا : فأُثبِتَتْ كفُّه فى جبهته وضُرِبتْ بالنبال .

وكان « عبيد الله بن زياد » فيمن قتل وقتئذ ، بعد طول تشردٍ وإلحاحِ مطاردة .

وكذلك « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » وابنه حفص .

وهرب « الأشعث بن قيس » فهدمت داره وبنيت بأنقاضها دار « حُجرِ ابن عدى الكندى » وكان « زياد بن سمية » قد هدمها !

حتى أفنوهم جميعاً .

وبُعثت الرؤوس ، فى هذه المرة ، إلى « المدينة » لا إلى « دمشق »[1]

لكن القصة لم تنته بأخذ الثأر . . .

---

(١) ذكر الأستاذ « عمر أبو النصر » فى كتابه (آل محمد فى كربلاء — ص ١٠٤) ان الرؤوس بعثت إلى « على بن الحسين » . والذى فى الخبر ، انها بعثت إلى « محمد بن الحنفية » (تاريخ الطبرى ١٢٧/٧) — والمسألة غاية فى الدقة والخطر .

كانت هناك بقية لم تزل .

بقية من فصول ذات عدد ...

كان منها ثورة « عبد الله بن الزبير » بالحجاز ، وخروج أخيه ، « مصعب » — زوج السيدة سكينة بنت الحسين — بالعراق ...

ثم سقوط الدولة الأموية فيما بعد ، وقيام الدولة العباسية على دعوة ظنّت الشيعة أنها للعلويين ، ثم ظهور الدولة الفاطمية بإفريقية ، وما صاحب هذا كله وما أعقبه ، من معارك وأحداث ، كتبت تاريخنا كله منذ مقتل « الحسين » .

بل حدث أيضا ما هو أهم من هذا : تأصل مذهب الشيعة ، وكان له أثر بعيد فى الحياة السياسية والمذهبية للشرق والإسلام .

والسيدة « زينب » هى باعثة ذلك ومثيرته !

لا أقول هذا من عندى تزيداً ، وإنما هو قول التاريخ !

* * *

الصَّدَى الباق ...

ـدت العقيلة لأهل « الكوفة » غداة مصرع أخيها « الإمام » ــ رضى الله
ا ــ صورة مثيرة لما اقترفوا فى حق الشهداء من آل البيت .

ـ تكلمت ، فهاجت فيهم شعوراً لاذعاً ممضاً بالحسرة والخزى والندم .

غادرتهم . . . ورحلت . .

ـ بقى صدى صوتها يدوى فى آذانهم ويملأ الفضاء من حولهم ، مذكراً إياهم
بجنتهم . . .

وظل هذا الصدى باقياً لم يتبدد مع الأحداث التى أعقبت المذبحة وثأرت
ـها .

* * *

لقد كان نصيب أهل الكوفة ــ شيعة الحسين وحزبه وأنصاره ــ من إثم
ـلاء ، أبشع وأشنع من نصيب الآلاف الأربعة ، الذين تكاثروا على الشهداء
ـعين !

وهل يقاس ما فعله حزب يزيد بالحسين ، بما فعله أنصار الحسين وشيعته ؟

هؤلاء دَعوا إمامهم ، وأخرجوه من حِماه ، ثم أسلموه للأسنة والحراب
ـم يتفرجون !

وأولئك خرجوا فى جيش الدولة ، يقاتلون براية أمير المؤمنين .

ولقد قتل أعداء الحسين ، وقتلته .

وبقى الأصدقاء الغادرون .

وكانوا بحيث يستأنفون العيش بعد فعلتهم سادرين لاهين ، غير شاعرين بفداحة خطيئتهم وبشاعة إثمهم .

كادت فعلتهم بالحسين تمضى دون أن يبقى منها سوى بضعة أسطر فى كتب التاريخ ، وبضع قصص فى أحاديث السمار ...

لكن « السيدة زينب » وقفت على جثث الشهداء ، تصيح بأهل الكوفة الذين بكوا لما رأوا موكب الأسرى من بنات النبى ، صلى الله عليه وعلى آله :

« أتبكون ؟ فلا سكنتْ العبرة » !

واستجابت السماء ، فلم تسكن للقوم عبرة !

* * *

وقد بدأوا يحسون وخزَ الندم منذ اللحظة الأولى التى وقفت فيها « بطلة كربلاء » موقفها الأليم المثير .

قال « الطبرى وابن الأثير » : ... « ومكثوا بعدها شهرين أو ثلاثة ، كأنما تلطخ الحوائطُ بالدماء ساعةَ تطلع الشمس حتى ترتفع ... » .

وقالا : « لما قتل الحسين بن على ، ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة — ليستقبل موكب رؤوس القتلى ، والسبايا من بيت النبوة — تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد أخطأت خطأً كبيراً بدعائها الحسين إلى النصرة ، وتركه يقتل إلى جانبهم لم ينصروه » .

ورددت حوائط الكوفة صدى صوت « السيدة زينب » :

« ... أى والله ! .. فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها

وشنَارها ، فلن ترحضوها بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ... وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ »

فأمنوا جميعاً !

وتكلموا ، فكأنما كانوا ينزعون عن لسان « السيدة زينب » !

قال قائلهم :

« دعَوْنا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عليه بألسنتنا ، ولا قويناه بمالنا ...

« فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وآله ، وقد قتل فينا ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ؟ .. لا والله لا عذر دون أن تَقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تُقتلوا فى طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا ، وما أنا بعد لقائه ، لعقوبته بآمن » .

وعقب آخر :

« ... إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ، ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه . . .

«ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، ووالله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيدوا !

﴿ **فَاقْتُلوا أنفُسَكم ، ذٰلكم خَيْرٌ لكم عِندَ بارِئِكم** . . . ﴾ .

إى وربى !

لكأنما كانوا ينزعون عن « السيدة زينب » .

* * *

وما زال أهل الكوفة منذ سنة ٦١ هـ ـــ وهى السنة التى قتل فيها

الحسين ــ يتلاومون ويتداعون ويجمعون آلة الحرب ، حتى تجمع جيش عُرِف فى التاريخ بجيش « التوابين » الذين تنادوا : يا لثارات الحسين .

ولم يكتموا أمرهم هذه المرة ، ولا عمدوا إلى الخفاء . . . قال المؤرخون : « خرج التوابون يشترون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويتنادون من كل جانب : إنا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنتِ رسول الله ، نبينا ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وما دخلت سنة ٦٥ هـ ، حتى كانت صيحتهم « يا لثارات الحسين » تزلزل الأرض تحت بنى أمية ، وحتى كانت الكوفة تشهدهم فى سلاحهم ينطلقون ساعين نحو قبر « الحسين » وهم يتلون الآية : ﴿ **فتوبوا إلى بارِئكم فاقْتلوا أنفُسَكم ذٰلكم خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئكُم** ﴾ .

فلما بلغوا القبر ، صاحوا صيحة واحدة ، فما رئى أكثر باكين من ذلك اليوم ، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون قائلين :

« اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد ...

« اللهم إنا نُشهِدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم ، وأولياء محبيهم .

« اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وغادروا القبر وقد ازدادوا ندماً وحماسة ، فاندفعوا كالموج مستبسلين ، يلقون الألوف المؤلفة من جند بنى أمية ، وأقصى أمانيهم أن يُقتلوا فى ثأر « الحسين » لعل ذلك يخفف عنهم وقر الإثم وقسوة النكال . ولقد كانوا يومئذ يُعطون الأمان فيأبون صائحين :

« قد كنا آمنين فى الدنيا ، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة » . . .

حتى أبيدوا جميعاً ، فذلك قول أعشى همدان يرثى كل تائب منهم :

تخلى عن الدنيا وقال طرحتها ... فلست إليها ما حييتُ بآيبِ

وما أنا فيما يكره الناس فقده ... ويسعى له الساعون فيها براغب

....

فساروا وهم ما بين ملتمسِ التقى ... وآخر مما جَرَّ بالأمس تائبِ

فجاءهمُ جمع من الشام بعده ... جموع كموج البحر من كل جانب

فما برحوا حتى أبيدت سراتهم ... فلم ينج منهم ثَمَّ غير عصائب

وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا ... تعاورهم ريح الصبا والجنائب

أبوا غير ضربٍ يفلق الهامَ وقعُه ... وطعنٍ بأطرافِ الأسِنَّة صائبِ

فيا خيرَ جيشٍ بالعراق وأهله ... سُقيتم روايا كلِّ أسحمَ ساكبِ

* * *

مضى التوابون ، وأبقوا الندم والتوب ميراثاً رهيباً لأبنائهم من بعدهم والأحفاد .

وكانت « زينب » هى التى جعلت من مصرع « الحسين » مأساة تاريخية باقية ، لا نعرف ما هو أبعد منها أثراً فى تطور العقيدة عند الشيعة .

وكانت هى التى صيرت من ليلة العاشر من المحرم ، مأتمًا سنويًا للأحزان والآلام ، يحج فيه أحفاد « التوابين » إلى المشهد المقدس فى « كربلاء » ، حيث يعيدون تمثيل المأساة ، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدى ، تكفيرًا عن خطيئة الأجداد !

وكانت هى التى سلطت عليهم — من أنفسهم — نكالاً أليماً لا ينتهى بالموت ، وإنما هى نار « الندم » يصلاها منهم الجيل بعد الجيل .

وان السنين لتمضى والقرون ، وهم مصرون على أن تبقى تلك الجذوة متقدة أبداً ، لا تخبو ولا تخمد ، كأنما يجدون فى هذا العذاب كفارة وتوبة .

أجل ، تمضى السنون والقرون ، وأهل العراق مقيمون على الحزن يستمرئون طعمه ، ويستعذبون مذاقه ، ويرهقون أنفسهم بالإصرار على إحياء ذكرى خطيئة الذين ذهبوا بإثم الإمام الشهيد .

وما أحسب أن التاريخ قد عرف حزناً كهذا ، طال مداه حتى استغرق بضعة عشر قرناً دون أن يفتر ، فمراثى شهداء كربلاء هى أناشيد الشيعة العراقيين فى عيد حزنهم يوم عاشوراء من كل عام ، وشاعرهم المفضل هو الذى يهيج لواعج شجنهم ويغذى النار المتقدة فى أعماقهم بوقود جديد :

أناعىَ قتلى « الطف » لا زلت ناعيًا … تهيج على طول الليالى البواكيا
أعِدْ ذكرهم فى « كربلا » إن ذكرهم … طوى جزعاً ، طىَّ السجل ، فؤاديا
ودَعْ مقلتى تحمر بعد ابيضاضها … بِعَدِّ رزايا تترك الدمع داميا

شاعرهم المختار ، هو الذى يعيد على أسماعهم — فى إثارة عنيفة — قصة تلك الفئة القليلة المؤمنة التى آثرت الموت على التخلى عما تراه حقاً :

فثوتْ بأفئدةٍ صوادٍ لم تجد … ريا يبل سوى الردى أحشاءها

وأغنيتهم الأثيرة هى مناجاة الشهداء ، والبكاء على يتاماهم الصغار :

كم لكم من صبية ما أبدلت … ثَمَّ من حاضنة إلا رمالا !
سل بحجر الحرب ماذا رضعت ؟ … فثُدِىُّ الحرب قد كن نصالا

* * *

أجل هى العقيلة التى جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة ، وصيرت من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام .

وكذلك كانت « السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم » فى تاريخ الإسلام ...

استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد العظيم ، وأن تؤثر فى مجرى التاريخ ! . . .

* * *

الكِتابُ الخامسُ

السَّيِّدَة سُكَيْنَة بِنت الحُسَيْن

رَضِيَ الله عنهُمَا

السَّيِّدَة سُكَيْنَة بِنْتُ الإمام الحُسَيْن

رَضِيَ الله عنهُمَا

تقـديم

الفصل الأول : فى بيت النبوة

الفصل الثانى : فى بيت الزوجية

الفصل الثالث : فى المجتمع

ــ المشـــهد الأخـــير

تقـــديم

بقلم الأستاذ أمين الخولى

ينظر القارئ فيما كتب مؤرخو التاريخ الإسلامى ، كالطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان تسترعيان الانتباه :

أولا : أن ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاعتبارات السياسية ، فهم إنما يؤرخون الحياة الإسلامية للخلفاء والولاة والحكام والقادة ، والفتوح والمعارك ، وما إلى ذلك من أخبار الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين فى نفس الوقت حياة الشعوب الاجتماعية .

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب نفسها ، ومن ثم لم نظفر إلابالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوى لهذه المجتمعات فى غير المجال السياسى والحكومى ، بل لم يقع ذلك إلا عَرَضا فى أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يتصل بهم من الطبقة التى حولهم .

فإذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوى ، فيما عدا المجال السياسى الذى أشرنا إليه ، فليس أمامنا إلا أن نلتمسها منثورة مبددة هنا وهناك ، فى مثل كتب الطبقات التى وضعها أولئك الأقدمون للفئات المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ، وفقهاء ، ونحاة ، وأطباء ... وغيرهم ، مما نستطيع

بعد الجهد الجهيد أن نستخرج منها ما يؤرخ للنشاط الإسلامى فى صورته الاجتماعية والحضارية والاقتصادية ... ولن نظفر مع ذلك بالبين الوافى ، لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها ...

ثانيا : يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة أنها ، بصفة عامة ، تحوى من تاريخ الحياة الإسلامية أخبارا مجردة ، وحوادث مسرودة ، كان أولئك المؤرخون ، أوَّلَ العهد ــ يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة ، هى أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث .

على أن هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد وسردوها مُرسَلَة ...

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل هذا السرد القديم هو التاريخ ؟ .. وهل يُعطَى لَقَب المؤرخ ــ اليومَ ــ مَنْ يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند ؟ ..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار إليه الأمر اليوم من مستوى عالٍ للثقافة الإنسانية . وأن هذا المستوى قد جاوز الدور الذى كان فيه التاريخ قَصًّا وسردا ...

إن التاريخ اليوم ، هو وصف لسيرالحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية فى حياتهم ، والنواميس التى تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم فى هذه الجماعات ، ومجال نشاطهم فيها .

والتاريخ اليومَ ، درس دقيق ينفذ إلى ما وراء الأحداث المسرودة ، وما خلف الأخبار المروية ، ليستشف العواملَ التى تُسَيِّرها والمؤثراتِ التى تتحكم فيها .

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار فى استسلام ، ولا يتقبل المرويات فى تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده .

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبَّبَ إلى سببه ،

ويتبين المقدمة التى أدت إلى النتيجة ، ويهتدى فى ذلك بما عَرَفَ البحثُ الأصيل من حال الاجتماع البشرى ، والسنن المقررة لحياة المجتمعات الانسانية .

وإذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فإن القارىء يدرك إذن فى وضوح ، أن الأخبار التى حفظتْها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هى التاريخ ، وإنما هى مادة التاريخ وخامات دراساته التى أشرنا إلى وصفها إجمالا .

وتاريخ الحياة الإسلامية يحتاج منا إلى هذا العمل الجليل والنشاط الفسيح ، ولعل أجيالا منا تتمه على وجهه الصحيح .

* * *

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة تكتبها سيدة ، عن شخصيات نسوية فى البيت النبوى[1] . ولهذه السلسلة صلة وأثر فى تاريخ الحياة الإسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل .

لها هذا الأثر بموضوعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، وبمنهجها الذى تسلكه فى إخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها[1] .

* * *

وإلى القارىء كلمات قصار ، فى بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الإسلامية :

فأما موضوع السلسلة التى منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات فى تاريخنا ، يجلن فى غير المجال السياسى الذى عنى الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية .

والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهى كما قيل : تهز

---

(١) صدر عن هذه السلسلة ، كتب : أم النبى ، ونساء النبى ، وبنات النبى ، ﷺ ، وعقيلة بنى هاشم ، نشرتها دار الهلال ، ودار المعارف بالقاهرة ، ودار الكتاب العربى بيروت ، وترجم أكثرها إلى اللغات الفارسية ، والأردية ، والاندونيسية .

المهد بيمينها وتهز العالم بيسارها ، وهى التى قيل عنها : « فتش عن المرأة » وما هذا التعرض للشخصيات النسوية إلا التفتيش عنها باعتبارها عاملا فعالا فى سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال .

واذا اختارت إحداهن هذا الموضوع النسوى فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها ... فالأنثى أفهم للأنثى .

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار ، ومَن اختارته ... وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها .

وأما أثرها بالمنهج الذى تتبعه ، ففيما يجب من نقد المرويات المتفرقة عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين أنها منقبيات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها . وهو النقد الذى يتقدم الدرس التاريخى ...

وأما أثرها بأسلوب الأداء فى إخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبى ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقى ، المسامت لآفاق العرض فى القضية التاريخية . وفى هذا اللون من العرض يُكمل الكاتبُ الحادثَ التاريخى بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الإنسانية ، وسنة الاجتماع البشرى . ولا يكون ذلك إلا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع أشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها ، والبصر بنظام المجتمع الإنسانى الذى ينتظمهم .

وفى كل أولئك فُرَص للتحليل ، الذى يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق إلى نتائجها وأهدافها .

وهو ما نرجو أن يكون فى هذا الكتاب ، وسائر حلقات السلسلة ، شىء منه ، فتكون خطوة أو خطوات فى ميدان الدرس التاريخى المحدث الذى يحتاج إليه تاريخ الحياة الإسلامية ، ولما يتم منه شىء كثير .

* * *

وبعد ...

فإن صاحبة هذا الكتاب ، ربيبة مدرسةٍ أنا أنتمى إليها . . . ثم هى ربة بيتٍ أنا آوى إليه ... وفى بعض هذا ما يؤثر على التقدير ، ويهز سلامة الحكم ... ومن أجل ذلك أستغفر الحقَّ والإنصاف ، بين يدى القارىء الكريم ، من شىءٍ يكون قد غُلِبَ فيه القلمُ على أمرِه .. وقد بلَّغتُ إذ نبهتهُ إلى مَنشئِه .

أمين الخولى

* * *

الفصل الأول

فى بيت النبــوّة

- واِفد غريب
- اللقاء الأول
- فى بَدْءِ الطريق
- طفولة مرحَة
- فى دوَّامَة الأحدَاث
- مذبَحَة كربَلاء
- بَعدَ العاصِفَة

وافِــدٌ غريب

أخذ أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه مكانه فى المجلس ، وإلى جانبه صهرُ النبى ﷺ « علىٌّ بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وولداه الحسن والحسين ، ابنا الزهراء وسبطا المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين ، يتحدثون فيما أفاء الله على الإسلام من نصر ، وما أدال لهم من سلطان . وبينما هم فى ذلك المجلس ، استأذن وافد غريب فأذنَ له أمير المؤمنين ، وما فى المجلس يومئذ مَن كان قد رآه من قبلُ رأىَ العين . على أنه ما كاد يظهر بالباب ، حتى تعلقت به الأبصار وهو يتخطى رقابَ الناس إلى الخليفة ، ليقدم إليه التحية .

وأمسك القوم عن الحديث ، وبودهم لو يعرفون مَنْ يكون هذا الرجل الذى تبدو عليه سِماتُ الشرف والسؤدد ، وقد تولى عنهم الخليفة هذا الأمر ، فسأل زائره : من يكون ؟ ...

أجاب الوافد فى تؤدة ورزانة :

« امرؤ القيس بن عدى بن أوس الكلبى[1] »

حينئذٍ ،عرف القوم فيه سيدَ بنى كلب ، وكان لا يزال على نصرانيته .

فقال قائل :

ـــ يا أمير المؤمنين ، هذا صاحبُ بكرِ بن وائل الذى أغار عليهم فى الجاهلية يومَ فلج .

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى : ٥٩ ، والمحبر لابن حبيب : ٣٩٦

وتحدث « عمر » إلى ضيفه مليا ، وملءُ خاطره سؤالٌ واحد : أيكرمه الله بأن يدخل « امرؤ القيس بن عدى » الإسلامَ على يديه ؟ ..

وأسلم سيدُ بنى كلب .

وإذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين فى أن يعقد له اللواء على من أسلم من قضاعة بالشام[1] .

ودعا « عمر » رضى الله عنه برمح ، وقلده إياه ...

هكذا فى أول لقاء ، وليس للرجل سابقةٌ فى الإسلام !

أو كما قال « عوف بن خارجة المرى » وكان يومئذ بالمجلس : « فوالله ما رأيت رجلا لم يُصلِّ للّهِ ركعةً قط ، أُمِّر على جماعة من المسلمين ، قبلَ امرئ القيس ! »[2] .

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البصَر بالرجال ...

* * *

ونهض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الإسلام ، وأخذ طريقه واللواءُ يهتز فوق رأسه ، والأنظارُ تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين منصرفاً ...

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ٤٢٧ ط الذخائر .
(٢) الأغانى : ١٥٧/١٤ ساسى .

اللقــاءُ الأوّل

ولم يمض « امرؤ القيس » بعيدا ، حتى استأذن « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وانصرف من المجلس مسرعاً وولداه معه ، فى أثر الوافد الذى خرج وشيكا يحمل لواء بنى قضاعة بالشام .

وحث « على » خطاه حتى أدرك امرأ القيس . فاستوقفه محييا ، ثم تقدم إليه يقول :

ــ أنا على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول ﷺ وصهره ، وهذانِ ــ وأشار إلى الحسن والحسين ــ ابناى من بنته الزهراء .

فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه ، وراح يملأ عينيه من آل النبى الذى لم يُكتَب له شرفُ صحبته ونعمةُ رؤيته ، والذى آمن برسالته منذ لحظات .

واستطرد « على » رضى الله عنه قائلا :

ــ وقد رغبنا فى صهرك فأنكِحنا !

فما تلبث امرؤ القيس أن قال :

ــ مرحباً بكم آل بيتِ النبى : قد أنكحتُك يا على ، ابنتى « المحياة »[1] .

ثم أقبل على سبطى النبى ﷺ وهو يضيف :

ــ وأنكحتُك يا حسن « سَلمى بنتَ امرىء القيس » ، وأنكحتك يا حسين « الربابَ بنت امرىء القيس » .

وانصرف بعد حين إلى الشام ، وترك من ورائه دويا !

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٩٠ ط . مصر .

فلا حديث للناس وقتئذ إلا عن هذا الرجل الذى لقى أمير المؤمنين عمر لأول مرة ، فخرج من حضرته بلواء مَن أسلم من بنبى قضاعة بالشام ، هو الذى لم يكن قد صلى لله ركعة قط ، كما قال « عوف بن خارجة المرى » !

ولَقِيَه صهرُ الرسول وابنُ عمه ، فخرج من اللقاء الأول ، وقد أخطبه إحدى بناته الثلاث ، وظفر بالحسن والحسين ــ سبطى الرسول وزين شباب الجنة ــ خطيبين لبنتيه الأخريين : سلمى والرباب[1] .

* * *

كان « الحسين » يوم خطبت له « الرباب » فى ريق شبابه ، يستقبل ربيعه الثامن عشر ، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا ، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويجدون فيه نفحة عطرة من شذاه ، وقبسًا بهيًا من سناه ، حتى لقد بلغ من إعجابهم به أن ذاعت فيهم ذائعة تقول : إنه معوذ بتعويذتين ، حشوهما زغبُ جناحِ جبريل !

وأما « الرباب » فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود ، مليحة وضيئة ، ذكية الملامح ، مرهفة الحسّ ، بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها . وقد أرضاها بلا ريب ، أن يتصل سببها بالنبى العربى ، وأن تدخل أشرفَ بيت فى قريش ، زوجة للحسين غذىّ النبوة .

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج ، فبقيت فى بيت أبيها تتهيأ لدخول دنياها الجديدة ، وتستعد لتملأ ذلك المكان الرفيع الذى أوثِرتْ به من حيث لا تحتسب ولا تتوقع ...

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ص ٤٢٧ ذخائر ، وانظر مقاتل الطالبيين : ٩٨ .

فى بَدءِ الطريق

جدَّت أحداث عقب ذلك أجلت زواج علىٍّ وابنيه من بنات امرىء القيس ، بضعَ سنين .

أحداث جسام ، شُغِل بها البيتُ النبوى ، كما شُغل بها العالم الإسلامى الذى اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الإسلام على ممالك الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والفراعين .

فمنذ طُعِنَ أميرُ المؤمنين عُمَرُ بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى ، لأربع ليالٍ بقين من ذى الحجة عام ٢٣ هـ ، وتيارات المأساة — التى سوف تتمخض عنها الأحداث — تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية فى بطءٍ ولكن فى عنفٍ وشراسة ، إلى مركز التجمع ومسرح المأساة .

منذ قُتل عمر ، وصُرِفت الخلافة — لثالث مرة — عن علىٍّ بن أبى طالب ، وسُحُبُ الفتنةِ الحالقة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة .

فما رضى بنو هاشم قط ، أن تغدو الخلافة مطمعا لذوى الجاه من بنى أمية بن عبد شمس ، وأن يلمحوا أيديهم — فى عهد عثمان رضى الله عنه — وهى تتصيد أزِمّة الأمر العظيم ، فى مهارة وتصميم ، وتلوى بها إلى قبضة زعيمهم معاوية بن أبى سفيان .

ولا رضى الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم وُلاة لا يراعون للولاية حرمة ، وليسوا أهلا لها ، همُّ أكثرهم أن يستكثروا من الأموال ويعيشوا عيشة البذخ والترف ، وقد ضرِيَتْ أطماعهم وهم بمأمن من غضب الخليفة عثمان ، فى طمأنينة إلى لينه وتسامحه رضى الله عنه .

أو كما قال « الأشتر النخعى ، مالك بن الحارث » لسعيد بن العاص الأموى ، والى الكوفة لعثمان رضى الله عنه :

« أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا ، بستانا لك ولقومك ؟ ... والله ما يَزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدِنا »[1] .

وكان « عثمان رضى الله عنه » قد ولَّى سعيدَ بن العاص الكوفةَ ، بعد أن عزل « الوليدَ بن عقبة » فحزن الناس ... وتفجع عليه الأحرار والمماليك ، وسُمعت الولائد يقلن ، وعليهن الحداد :

يا ويلتنا قد عُزِلَ الوليدُ وجاءنا مُجَوِّعًا سعيدُ[2]

* * *

وطالت المغالبة ...

وخرج «الحسين » — وأخوه الحسن — فى كتائب الفتح إلى إفريقية ، بقيادة « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » عام ٢٧ هـ ، فى عشرة آلاف من جند الإسلام .

وأقام هنالك فى غزوته ، عاما وبعض عام ، ثم عاد إلى المدينة منصورا ، فاحتفلَ البيت الهاشمى بزواجه من « الرباب بنت امرىء القيس » احتفالا يسيرًا متواضعا ، وما تزال السحبُ متراكمةً على الأفق ، وما يزال بنو أمية هناك فى الشام ، وفى غيرها من الأمصار ، يُعِدون للأمر عُدَّته ...

وأثمر الزواج ثمرته المباركة ، فوضعت « الرباب » ولدَها عبد الله بن الحسين[3] .

وشغلت الأم بحضانة وليدها ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥/٥٠ ، ٨٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥/٦٢ . مع ترجمة الأشتر النخعى فى تهذيب التهذيب ، وترجمة « سعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة » رضى الله عنهما ، فى الإصابة .

(٣) المصعب الزبيرى : نسب قريش . ط الذخائر (٥٩) .

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبدِ الله إلى صميم المعترك ...

وكانت المدينة حينذاك قد ازدحمت بوفود الأمصار من شتى الأقاليم ، جاءوا يشكون انحرافَ الولاة وأثرتهم ، وبغيَهم ، والمغالبةُ بين الأحزاب تأخذ وضعًا رهيبًا قويًا شرسًا ، والمرجلُ يهدر ويغلى ويلتمس الانفجار .

* * *

وقُتِلَ أمير المؤمنين ، ذو النورين عثمان ، رضى الله عنه بسيوف الثائرين عصرَ يوم جمعة ، فى الثامن عشر من ذى الحجة عام ٣٥ هـ[1] .

وشبت الفتنة عاصفة هوجاء ...

بويع أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ليمضى خمس سنين ، فى معارك متصلة ، آخذٍ بعضُها برقاب بعض ، فما يكاد رضى الله عنه يفرغ من إحداها ، إلا ليخوض غمار فتنة أخرى على كره منه .

إلى أن غُصَّ بمرارة النصر كما لم يُغَص سواه بمرارة الهزيمة . وكان « الحسن والحسين » إلى جانبه ، يجرعان غُصصَ النصر فى حرب الفتنة الحالقة التى راحت تمزق المسلمين بدَدا ، وتشطرهم طرائق قددا .

والأمويون ، بنو عبد شمس ، جادون فى سبيل تحقيق مطمحهم الذى ظلوا يتوارثونه أبا عن جد ، منذ انعقدت زعامة قريش فى الجاهلية لبنى هاشم دون بنى عبد شمس ، وتأيدت باصطفاء نبى الإسلام منهم ، فأنَّى لبنى عبد شمس أن يبلغوها ، كما قال قائلُهم ؟

كان « أبو سفيان » حربا على النبى الهاشمى ، فلم يُسلم حتى يوم فتح مكة ، بعد معارك طاحنة امتدت ثمانى سنين وصالا ...

وبقى ما عاش يرنو إلى الأمر من بعيد ، بعد أن رأى انصراف الخلافة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥ / ١٤٥ ، والإصابة .

عن بيت النبى وبنى هاشم ، ورأى الولاةَ من بنى أمية يغلبون على الأمصار ، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد « حمزة » صريع « وحْشِىّ » فقال :

ــ رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتَلتنا على أمرٍ صار إلينا !

ومات « أبو سفيان » ، وترك لابنه ذلك العهد ...

وهذا هو « معاوية » يمضى فى سبيل إنفاذه ، وما يرتاب فى أنه صائر إليه مهما يطل الطريق وتتعقد السُبُل !

وكان الطريق يبدو طويلا ، وكأن لا نهاية له ...

فما كان لمعاوية أن يطمع فى هزيمة خصمه الفارس البطل الذى لا يُغلب « على بن أبى طالب » .

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر من الخليفة الإمام ما دام حيا !

فهل تمهله المنية ، إلى ما بعد وفاة أمير المؤمنين على ؟

أو يسبقه هو إلى الرحيل ، ويدع الأمر بينه وبين بنى هاشم ميراثا لولده « يزيد » ، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه « أبى سفيان » وأمه « هند بنت عتبة » ؟

وأجابت الأيام عن سؤاله !

لقد تولى « الخوارج » عن غير عمدٍ ، تمهيدَ الأمر لمعاوية !

أرادوا أمرا ، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله !

كانوا قد بدأوا يخرجون على أمير المؤمنين ، منذ قَبِلَ خدعة التحكيم وهو ولى الأمر ، الظافر المنتصر يوم الجمل .

وأنكر منهم هذا التمرد ، والتقى بهم فى معركة النهر التى كلفتهم غاليا ، وجرَّعته مزيداً من مرارة النصر .

وتآمروا فيما بينهم على أن يريحوا المسلمين من أبطال التحكيم الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وعلى .

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم علىَّ بن أبى طالب .

وقال ثانٍ منهم : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان .

وقال ثالث : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجلٌ منهم عن صاحبه إذا توجَّه إليه ، حتى يقتله أو يموت دونه .

وضربوا لهم موعداً ، لسبع عشرة ليلةً تخلو من رمضان ، سنة ٤٠ هـ .

وقُتِل الإمام على بسيفِ ابن ملجم ..

ونجا معاوية وعمرو .

* * *

وأصبح معاوية ، غداةَ اليوم العشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ ، والأمرُ منه قابَ قوسين أو أدنى !

لقد بويع « الحسنُ بن على » إثر مصرع أبيه الإمام على كرم الله وجهه ، لكن « معاوية » اعتصم بمعقله فى الشام وأخذ البيعةَ لنفسه .

ولم يطل بهما الخلاف ، فإن « الحسن بن على » لم يلبث — فى أول سنة ٤١ هـ — أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة[1] حقناً لدماء المسلمين ، وارتياباً فى ولاء العراق ، ولكى يضع حدا لتلك الفتنة التى خضبت ساحة العالم الإسلامى الكبير ، بدماء القتلى والشهداء .

وبايع شقيقُه « الحسين » معاوية ، حتى لا تكون فتنة .

وأدى فريضة الجهاد ، فاشترك فى غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٣ وانظر نص وثيقة الصلح وتحليلها وأبعادها فى كتاب (صلح الحسن ، للسيد الشيخ راضى آل ياسين) : ٢٥٢ ط بغداد ١٩٥٣ .

ومن قبل اشترك فى فتح إفريقية وغزو طبرستان ..

وعاد فلزم « المدينة » يجلس فى مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، يروى الحديث ، ويشتغل بأمور الدين ، فيتحلق حوله المسلمون وتهوى إليه أفئدتهم ، ويجدون فيه نفحات من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام .

رآه « عبد الله بن عمر » رضى الله عنهما ذات يوم مقبلا ، فهتف :

« هذا أَحَبُّ أهلِ الأرض إلى السماء اليومَ » .

ومعاوية فى دمشق ، يمد بصره إلى هذا المجلس على بُعْدِ ما بينهما ، ويحوم بفكره حوله ، حتى ليقول لرجلٍ من حزبه استأذنه فى السفر إلى الحجاز :

« إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة ، فيها قومٌ كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين ... » .

....

طفولة مرحة

فى تلك الأيام ، كانت « آمنة بنت الحسين »[1] تحبو فى رحاب البيت النبوى ، طفلة حلوة الملامح ذكية النظرة ، مرحة الطبع آسرة السمّات .

ولم أقف على سنة مولدها . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذى أهمية ، لكنا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل فى المجتمع القرشى مكان السيدة الأولى فى عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع — ورواة الأخبار على مر العصور — بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة ومجالسها الأدبية العامرة . ولن نستطيع أن نتمثل هذه الحياة الخصبة الحافلة للحسناء الهاشمية ، إذا لم نعرف تاريخ مولدها ، إن لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وجه حاجتنا إلى هذا ، أن تاريخ المولد هو الذى يحدد لنا عُمْرَ « بنت الحسين » فى مختلف مراحل حياتها التى لم يعرف زمنها حياةً أحفلَ منها . وإذا أمكن أن نتجاهل مسألة السن فى حياة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع أنثى ، وبخاصة إذا كانت هذه الأنثى ، هى « آمنة ، سكينة بنت الحسين » رضى الله عنهما . . .

وحين نحاول أن نلتمس من أخبارها ، ما يعين على تقدير تاريخ مولدها ، نجد أول ما نجد ، ذلك الخبرَ الذى يشير إلى وفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها .

ولا خلاف نعلمه بين كُتاب السيَر والمؤرخين ، فى وفاتها عام ١١٧ هـ ، ذكر ذلك « الطبرى » فى تاريخه (سنة ١١٧هـ) وابن الاثير (وفيات ١١٧ هـ) وابن خلكان فى (الوفيات : ١ / ٢٩٨) والذهبى فى العبر ، وعنه

---

(١) سميت باسم جدة أمها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم النبى ﷺ . وسكينة لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغانى ١٤ / ١٥٧ ساسى ، والعبر للذهبى : (سنة ١١٧ هـ) .

ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، وابن العماد الحنبلى فى الشذرات : (وفيات : سنة ١١٧) وذكرتْه المصادر الشيعية فى (مقتل الحسين : ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوى ، ودائرة المعارف الإسلامية (مادة : سكينة) ولا نعلم أنهم اختلفوا فى هذا التاريخ .

فالقول بوفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها ، يجعل مولدها حوالى عام ٤٧ هـ ، بعد سبع سنين من مقتل جدها الإمام « علىّ » كرم الله وجه ، واستقرار الخلافة لخصمه « معاوية » كبير البيت الأموى .

ويؤنس إلى هذا ما جاء فى خبر للطبرى بإسناده عن مولى الرباب زوج الإمام الحسين ، أنه خرج من المدينة ممتنعاً عن بيعة يزيد ، وسكينة إذ ذاك صغيرة (٦ / ١٩٦) .

فإذا أضفنا إلى هذا ، ما ذكره رواةُ سيرتها ، من أن ابن عمها الحسن ، تقدم إلى عمه « الإمام الحسين » يطلب أن يزوجه إحدى ابنتيه : فاطمة أو سكينة ، فزوجه الإمام أولاهما [1] ، كان مقتضى هذا أن « سكينة » أدركتْ سِنَّ الزواج فى حياة أبيها رضى الله عنه ، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذى يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعاً ، عندما استشهد أبوها الإمام كرم الله وجهه ، فى كربلاء ، فى شهر المحرم سنة ٦١ هـ .

لنا أن نطمئن إذْن إلى أن ولادتها كانت حوالى سنة ٤٧ هـ . وقد سُميت باسم جدتها أم النبى ، ثم لقبتها أمُّها الرباب : بسكينة ، ولعلها لحظت أن نفوس آلها الأكرمين كانت تسكُن إليها لفرطِ مرحها وإشراقها .

وقد استقبل البيت الهاشمى قبلها مولد أخيها الشقيق « عبد الله بن الحسين » الذى استشهد مع أبيه رضى الله عنهما .

وكانت « سكينة » فى طفولتها الحلوة اللاهية ، خلية البال من تلك الهموم الكبار التى كانت تشغل آلها وتلقى على الأفق من حولها ظلالا من الأسى ،

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش – ٥٧ . والاغانى : ١٤ / ١٥٨ ط السياسى .

منذ رزئوا ورزئ الإسلام بمصرع أمير المؤمنين الإمام على ، قبل مولد « سكينة » بنحوٍ من سبعة أعوام ، ثم بموت عمها « الإمام الحسن » سنة ٥٠ هـ[١] ، و « وسكينةُ » فى نحو الثالثة من عمرها ، فنأى بها صِغر السن عن عمق الإحساس بالفاجعة المزدوجة التى ألمت بالبيت الكريم .

والأخباريون يروون من أخبار « سكينة » فى طفولتها المرحة ، ما يؤكد أنها كانت مبعثَ أنسٍ لآلها الكرام ولأبيها « الإمام الحسين » بوجه خاص ، يسكن إلى مرحها وظرفها فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تئوده . ويبدو أنه عوتب فى اهتمامه المفرط « بسكينة » ، وإسرافه فى الأنس إليها وإلى أمها « الرباب » فلم يُصغ فيهما إلى عتاب ، بل قال :

لعمرى إننى لأُحِبُّ داراً تضيفها سكينةُ والربابُ
أحبهما وأبذل بعدُ مالى وليس للائمى فيها عتاب
ولست لهم وإن عَتَبوا مطيعاً حياتى ، أو يُغيبنى الترابُ[٢]

والبيتان الأولان ، رواهما الأصبهانى فى (مقاتل الطالبيين) وفى (الأغانى) :

لعمرى اننى لأحب دارا تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالى وليس لعاتب عندى عتاب

وفى خبر رواه صاحب الأغانى[٣] عن « مالك بن أعين » ، أنه سمع « سكينة بنت الحسين » ، رضى الله عنهما ، تقول : عاتَبَ عمى « الحسنُ » أبى فى أمى ، فقال هذه الأبيات .

فإن صح هذا الخبر ، كان فيه ما يفيد أن « الإمام الحسين » بالغ فى الاهتمام بزوجه وطفلته ، إلى حد لفت أخاه الكبير ودفعه إلى التدخل فى أخص شئون أخيه ، بالملامة والعتاب . ونحن قد اطمأننا إلى أن « سكينة » ولدت حوالى

(١) تاريخ الطبرى : حوادث سنة ٥٠ هـ . ونسب قريش : ص ٤٠ ، وصلح الحسن : ٣٦١ .
(٢) فى نسب قريش : ص ٥٩ ، والبيت الأول فى (المحبر لابن حبيب : ٣٩٧) وروايته للشطر الثانى « تحل بها سكينة والرباب » وانظر معها المعارف لابن قتيبة ، والمقاتل : ٩٠ .
(٣) جـ ١٤ / ١٥٧ ساسى .

سنة ٤٧ هـ . وقد توفى عمها « الحسن » ، فى سنة ٥٠ هـ . و« سكينة » فى السنة الثالثة من عمرها . وإذن فقد كانت منذ طفولتها ، مبعثَ أنس خاص لأبيها الإمام الذى رأى أخاه ينزل عن الأمر « لمعاوية » ويبايعه أميراً للمؤمنين بعد كل الذى كان !

ترى هل كان « الحسين » فى إقباله المسرف على « الرباب » و « سكينة » يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيد ، وإن ظن أخوه وظن كثير غيره ، أن تنازل « الحسن » قد وضع حدا للفتنة وعَصَمَ المسلمين من حربٍ قاسية لا ترحم .! ؟ ...

هل كان يسكن إلى طفلته ، هذه الذكية المرحة تشاغلًا عن خاطر كان يشغله حين يخلو إلى نفسه ، مؤكداً له أن تضحية « الإمام الحسن » لن تذهب هَدَراً فحسب ، ولكنها زادت بنى أمية تشبثاً بالأمر الذى استقر بين يدى « معاوية » وهيهات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا فى سبيله نصف قرن أو يزيد ؟ .

لقد بايع الإمام « الحسين » « معاوية » بعد صلحه مع الحسن . وماله ، رضى الله عنه ، فى الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن الفتنة لم تهدأ إلا إلى حين ، فما كان معاوية بالذى يرضيه أن يتولى الأمر زمناً يطول أو يقصر ، ثم يتركه ليخرج إلى البيت الهاشمى . . .

* * *

ولكن كيف يجرؤ ، والعهدُ بينه وبين « الحسن » قائم ، أن يلى الأمر بعده ؟[1] .

ظل الطالبيون فى ريب من هذا ، وأما « الحسين » عليه السلام ، فما غاب عنه أن لذاك الأمر ما بعده . وكلما أمعن النظر ، بدا له الليلُ طويلاً ... لا نهايةَ له ولا آخر ... [2]

---

(١) انظر الرسائل بين الحسن ومعاوية فى (مقاتل الطالبيين : ص ٥٥ وما بعدها) وانظر نص العهد فى « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٢ . وانظر مروج الذهب للمسعودى : ٢ / ٢٣٠ .

وحاول مع ذلك ألا يسبق الأحداث ، وأعانه على هذا ، أن استغرقته العبادةُ وأمور الدين فإذا آب من المسجد إلى بيته ، فثمة « سكينة » تملأ الأفق من حولها إشراقًا وسنى ، وتكاد تُنسيه ــ لِلَحظاتٍ ــ ما يشغله من خواطر تسرى به إلى ليل الهموم .

حتى مات « الحسن » رضى الله عنه ...

وذاعت شائعة أنه مات مسموماً بيد زوجته « ابنة الأشعث » على طمع فى الزواج من يزيد بن معاوية . . .

وتأهب « الحسين » لمعركته ...

* * *

ثم لم تلبثْ إلا سنوات معدودات ، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف يرقب « معاوية » وهو يجلس فى قصر الخلافة بدمشق ، ليأخذ البيعة عَلَنًا لابنه « يزيد » سنة ٥٦ هـ ، بعد أن مهد لها طويلا[1] ، فلم يفتر يوما عن السعى لها منذ تم له النصرُ الحاسم بصلح الحسن ، ثم بموت الحسن بعد تسع سنين من استقرار الأمر « لمعاوية » .

وتسع سنين ليست قليلة إذا حسبناها بالدقائق ، وما نام « معاوية » دقيقة عن هدفه .

ولكن وجود « الحسين » جعله يحتاج إلى ست سنوات أخرى من كفاح دائب عنيد .

وكانت بين يديه خزائن المال يشترى بها من شاء .

فمن عَصِىَ على المال اشتراه بالدهاء والملاينة .

ووكل الباقين إلى الخوف من هيبة السلطان وجبروت الحاكم .

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٦٩ .

نقل « المبرد » فى الكامل : « أن معاوية لما نصب يزيد لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد . حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تُوَلِّ هذا ــ وأشار إلى يزيد ــ أمورَ الناس ، لأضعتَها .

« وكان الأحنف بن قيس جالساً ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ ... فقال الأحنف : أخاف الله إن كذبتُ ، وأخافكم إن صدقت . فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيراً . وأمر له بألوف .

« فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر ، إنى لأعلمُ أن شرَّ مَن خلق الله ، هذا وابنُه !... ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت ! » [1].

إذن فقد فعلها .

فعلها فى جرأة وعلانية ، فجعل الخلافة فى بيته الأموى ملكًا موروثًا .

وأخذ البيعة ليزيد ، أميراً للمؤمنين من بعده ، وإنه لينزع بالوراثة إلى جدته « هند بنت عتبة » ، ويزدهيه هذا الملكُ العريض لآل أبى سفيان ، ويذهب فى حياته مذهبَ الفتيان المترفين ، مجاهراً بالفسق معالنا بالمعصية !...

ورنت القلوب ، كل القلوب ، إلى « الحسين بن على » : سبط المصطفى ، وغذىّ النبوة ، والمثل الكامل للرجولة والعظمة والتقوى والإيمان .

وامتدت الأيدى ، إلى « معاوية » تبايعه على ولاية العهد ليزيد ، وهم أحد ثلاثة : رجل يعلم أن « يزيدَ » شر من خلق الله ، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال .

---

(١) بغية الآمل من الكامل : ١ / ١٦٥ ــ ط ١٩٢٧ . انظر ترجمة الأحنف بن قيس ، التميمى السعدى ، رضى الله عنه فى (الإصابة ، وتهذيب التهذيب) .

وثان يخاف الله إن كذب ، ويخاف معاوية إن صدق .

وثالث حَذِر فطن ، قد يئس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن صار إليهم ، فسايَر وداوَر .

ولم يتخلف عن البيعة ليزيد ، إلا خمسة من وجوه أهل المدينة :

الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهم .

وتكتلت حول البيت النبوى معارضة قوية ، أنكرت أن تغدو الخلافة هرقلية ، وأن يئول أمرَ المؤمنين إلى مثل « يزيد » .

قال « عبدُ الله بن النهدى الكوفى » من أصحاب الإمام على :

فإن تأتوا برملةَ أو بهند[1] نبايعْها أميرَةَ مؤمنينا

حُشينا الغيظَ حتى لو شَرِبْنا دماءَ بنى أمية ما رَوِينا

لقد ضاعتْ رعيتُكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا

* * *

أغضى « معاوية » عن ذلك النفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، بقدر ما أسرف فى التنكيل بمن شايعهم علنا . وبلغ به الأمر أن قتل « حُجْرَ بن عَدِىّ » وستةً من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يُسَبَّ « الإمام على » على منبر الكوفة ![2] . وحين غضب عابد قريش « محمد بن أبى بكر » لهذا المنكر ، وكتب إلى معاوية » يُذَكره بفضل الإمام على وقديم سوابقه ، ردَّ عليه يقول :

« قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضلَ ابن أبى طالب ، وحقه لازما لنا مبرورا علينا . ثم كان أبوك وعُمَرُ ، أولَ مَن ابتزه حقه وخالفه على أمره ... فإن يك ما نحن عليه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك

(١) رملة : بنت معاوية . وهند ، أمه ، بنت عتبة .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٤١ — وفيه ان السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر : يامعاوية ، أين كان حلمك عن حجر ؟ فأجاب : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد .

من قبل ما خالَفْنا ابنَ أبى طالب ولَسَلّمنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله ... فَعِبْ أباك بما بدا لك أو دَعْ ذلك ، والسلامُ على من أناب »[1] .

* * *

أين كانت « سُكينة » من هذا كله ؟ ..

كانت هناك دائماً إلى جانب أبيها ، تُتبعه خواطرَها وقلبَها إذا غاب عنها ، فإذا آب إلى بيته كانت أسرعَ أهله إليه وأقدرَهم على إيناسه ، .فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن إليها ويندمج لحظاتٍ فى جوها المرح وعالمها الظريف .

وكانت فى ذلك الوقت ، قد جاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع صباها ، فما عادت بحيث يغيب عنها الذى يعانيه أبوها من هموم كبار ، لكنها كانت قادرة على أن تطوى همومها ساعةَ تلقاه ، لعلها بذلك تنسيه بعضَ همومه .

ولم تفتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المرير بين حق أبيها وباطل خصومه ، بل لقد شاركت فى هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرهف ووعيها الذكى ، وإن بدت خلية البال ، لا هم لها إلا أن تملأ البيت بدعابتها المرحة ، وإلا أن تمنح أباها المناضل ــ الذى ما بات منذ وعى وأدرك ، إلا على حقٍّ يذود عنه ، أو باطلٍ يدفعه باليد واللسان والقلب ــ بعضَ أنسٍ وراحةً .

وربما شهدتها الليالى ساهرة مسهدة تحاول عبثاً أن تذود عن مضجعها أشباح الهم التى تؤرق منام أبيها ومنامَها معه ، لكنها ما سُمِعتْ شاكيةً ولا رُئيَتْ باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ملءَ الإشراق والمرح ، حتى

(١) المسعودى : مروج الذهب : ٢ / ١٩٤ .

لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : « إنك لتمزحين كثيراً ، وأختك فاطمة لا تمزح ؟ » فأجابت من فورها : « لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتموني باسم جدتنا الأخرى » .

تعنى « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها ، « وآمنة بنت وهب » (١) .

وفى جوابها ما يدل على وعيها لما ألم بجدَّتِها الزهراء من أحزان ، وتمثلها إياها فى الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقأ لها دمع على أبيها العظيم ، ﷺ ، حتى لحقت به ...(١)

وإذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلها وأحزانهم ، ولكنها ما كانت تطيق أن تكتئب ، وهى تعلم أن أباها رضى الله عنه يلتمس لديها ما يعينه على احتمال عناءٍ طال ، ولا تبدو له نهاية !

يلتمسه لديها وحدها ، فى حضن أمها « الرباب » مع أن بيت « الحسين » كان يضم وقتذاك زوجات أخريات وأبناء أُخر ...

* * *

وهنا ، نقف لحظة لنلقى نظرة على أُفراد البيت الكريم الذى كانت « سكينة » مبعث الأنس فيه :

فهناك ، كان « عبد الله بن الحسين » شقيق « سكينة » من أمها « الرباب بنت امرىء القيس بن عدى» (٢) .

وأخوها لأبيها : « على » الأكبر ، ابن الحسين ، وأمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، وأمها « ميمونة بنت أبى سفيان بن حرب » ، وفيه قال معاوية : « أولى الناس بهذا الأمر ، على بن الحسين بن على : جده

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ساسى .

(١) انظر حديث الزهراء بعد وفاة أبيها ﷺ، فى (بنات النبى) عليه الصلاة والسلام .

(٢) نسب قريش : ٥٩

رسول الله ﷺ ، وفيه شجاعة بنى هاشم ، وسخاء بنى أمية ، وزهو ثقيف » ![1]

وكان هناك كذلك ، « على » الأصغر « زين العابدين » مع أمه « سلافة بنت يزدجرد » آخر ملوك فارس ، وقد سُبيت مع أختين لها فى فتوح بلاد الفرس ، وجىء بهن إلى « عمر » مع السبايا الأخريات . فأمر رضى الله عنه ببيعهن جميعاً ، لكن الإمام على تدخل لإعفائهن من هذا الموقف الأليم وأشار على أمير المؤمنين بأن يُقَوَّمْنَ ، ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن .

وقّومت بنات يزدجرد ، فأخذهن على بن أبى طالب ، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش ، فكانت الأولى لابنه الحسين وقد ولدت له « عليا » الأصغر .

والثانية لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فولدت له « القاسم » .

والثالثة لعبد الله بن عمر ، فولدت له سالما !

فيقال إن أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم « على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله » ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس فى اتخاذ السرارى .

وقد كان « على الأصغر ، زين العابدين » أكبر من أخته « سكينة » بنحو من عشر سنوات ، إذ ولد رضى الله عنه سنة ٣٨ هـ [2] فأدرك مقتل جده الإمام على ، وعُرِف عنه ــ منذ صغره ــ العكوفُ على العبادة ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، مما أعده ليكون ــ بعد استشهاد أبيه وبقية أهل بيته فى كربلاء ــ من أشهر البكائين فى تاريخ الإسلام [3] .

---

(١) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين ــ ٨٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ / ٤٥٥ بولاق مع (طبقات ابن سعد ٥ / ٢٢١) وانظر (عيون الأخبار لابن قتيبة) ٤ / ٨ دار الكتب .

(٣) ارجع إلى كتاب « مقتل الحسين » ص ٤٥٠ : ٤٥٤ .

وإنما سمى عليا الأصغر ، تمييزا له عن أخيه « على » الأكبر ، أمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، الصحابى الجليل[1] .

وأخ رابع « لسكينة » ، هو « جعفر بن الحسين » وأمه من قبيلة بَلِى[2] .

ثم كانت هناك أختها لأبيها : « فاطمة بنت الحسين » . قيل إنها كانت منقطعة النظير فى الجمال ، لكنها لم تكن مرحة كأختها « سكينة » ولعل ذلك راجع إلى ظروفٍ خاصة بها وبأمها « أم إسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمى » أحد العشرة رضى الله عنهم[3]

فلقد كانت « أم اسحق » إحدى بنات تيم اللواتى اشتهرن بالجفوة والخشونة فى معاملة الأزواج ، وفى « نسب قريش » أنها تزوجت « الحسن بن على بن أبى طالب ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت « أبا عبد الله الحسين » فولدت له فاطمة[4] ، وليس فى مصادر سيرة بنى على ، ما يشير إلى انفصال أم إسحق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترمل . لكنا نميل إلى الظن بأنها طُلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان فى حياة أبيها الحسين ، وقد قتل رضى الله عنه فى المحرم من سنة ٦١ هـ . ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من « أم إسحاق » بعد موت أخيه الحسن سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ ، وولدت له فاطمة التى أدركتْ سن الزواج قبل ٦١ هـ . . .

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترمل ، غيرُ هينة على مثل أم إسحاق .

ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول الحسين رضى الله عنه فيها :
« واللّهِ لربما حَمَلتْ منى ووضعتْ ، وهى مصارمة لى ما تكلمنى ! »

---

(١) نسب قريش : ٥٧ ــ والإصابة : ٧ / ١٧٤ مصر .
(٢ ــ ٣) نسب قريش : ٥٩ ، ٥٠ .
(٤) نسب قريش : ٥١ . ومثله فى جمهرة أنساب العرب : ٢٤ ، ١٢٩ .

وفى ظرف كهذا ولدت له ابنته فاطمة ، وفيها ميراثُ بناتِ تيم ، وأثر تلك الظروف القاسية ، فأعوزها ما كان لأختها سكينة ، من مرح ولطف وإيناس .

* * *

هؤلاء هم إخوة سكينة : « عبد الله » شقيقها ، و « على » الأكبر ، و « على » الأصغر ، و« جعفر » ، و« فاطمة » .

ولم يفت القوم أن أباهم الإمام مُقِلٌّ ، إذ يُروى أن رجلا قال لأحد بنى الحسين : ما أقل ولد أبيك ؟ .. فكان جوابه : « العجبَ أن يكون له ولد ، وهو الذى مارُئىَ إلا عاكفا على العبادة والجهاد » .

وقد كانت حياة الحسين كلها مجاهدةً وجهاداً : مع النفس ، ومع الباطِل أينما كان ...

وعاش له بنوه الأربعة ، وبنتاه فاطمة وسكينة ، حتى بلغت معركته ذروتها الرهيبة ، ولكن « سكينة » هى التى استأثرت من دونهم بأنها كانت مبعثَ أنسه وراحته . . .

لعمرك إننى لَأُحِبُّ دارًا تكون بها سكينةُ و الربابُ

* * *

فى دوّامـة الأحـدَاث

من قريب ، وقفت « سكينة » وقد جاوزت مرحلة الطفولة ، ترقب الأحداث وهى تندفع نحو ذورتها المشئومة فى عنف شرس ، وترنو إلى أبيها الحبيب ، فى صميم الدوَّامة ، يمضى إلى المصرع الدامى ، دون أن يملك منه مَحِيدا !

فمنذ أخذ « معاوية » العهد لابنه « يزيد » وغَذِىُّ النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة ... المعركة الطويلة العنيدة ، التى بدأت مرحلتها الأولى بين أبى سفيان بن حرب ومحمد ﷺ ، ثم انتقلت إلى الصراع بين معاوية بن أبى سفيان ، والإمام علىّ صهر النبى وابن عمه ، وها هى ذى تنتقل ـــ كأنها ميراث محتكم ـــ إلى دورها العنيف ، بين « يزيد بن معاوية » : حفيد أبى سفيان وهند ، و « الحسين بن على » : سبط النبى ﷺ وولد الزهراء عليها السلام فيقول شاعر من شيعة الطالبيين :

عبدُ شمسٍ أضرمتْ لبنى هـا ... شم حرباً يشيب منها الوليـدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى ، وابنُ هِند ... لِعَلِـــىٍّ ، وللحُسيـــنِ يَزيـــدُ

والتاريخ المروى لا يذكر أن « يزيدَ » أخذ مكانه فى الصراع ، أيامَ أبيه ، وإن لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، إلى وفاة معاوية سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من « ابن الزهراء » ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقفَ المعلق الذى ظل أكثر من نصف قرنٍ ، حائراً متردداً ...

ما من شك ، أنه قدَّرَ أن الخلافة لن تصفو له ، وفى الناس هذا الحسينُ الإمام ، يفرض سلطانه على كل القلوب وكل الضمائر فى المجتمع الإسلامى ، بجاذبيته الآسرة وشخصيته التى يحف بها سنا من نور النبوة وجلال الإيمان ،

ومهابة الحق ، ووقار السمت ، ونُبل الطباع ، واكتمال الرجولة وكرم السجايا .

حتى مات معاوية بعد أن وطّأ الأمرَ لولده ، ولم يَعُدْ يخاف عليه إلا من بضعة نفر من قريش ، أولهم كما قال فى وصيته ليزيد [1] « الحسين بن على » .

وورثه « يزيد » وهو ابنُ اثنتين وثلاثين سنة ، فى هلال شهر رجب ، سنة ٦٠ هـ .

من ثَمَّ ، بدأ يقود المعركة فى قسوة ضارية وشراسة محمومة ، فكتب إلى عامله بالمدينة « الوليد بن عتبة » أن يأخذ له البيعة قسرًا ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين هناك [2] .

فبايعه « عبد الله بن عباس » .

وبايعه « عبد الله بن عمر »[3] .

وخرج « عبد الله بن الزبير » إلى مكة ، مستعيذاً بالبيت العتيق [3] ، فى طمأنينة الواثق أن دوره لم يَحُنْ بعد !

وأبى « الحسين » أن يبايع ، بل كان جوابه للوليد :

« يا أمير ... إنّا أهلُ النبوة ومعدن الرسالة ، بنا فتح اللّهُ وبنا ختم ، ويزيدُ فاسق فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، مُعلِنٌ بالفسق ، مجاهر بالفجور . ومثلى لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون ، أينا أحق بالبيعة والخلافة » [4] .

ومضى ...

---

(١) انظر نص الوصية فى تاريخ الطبرى ٦ / ١٧٩ .

(٢) انظر نص كتاب يزيد الى عامله الوليد ، فى تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٨ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٦٠ .

(٤) تاريخ الطبرى ٦ / ١٦٠ ونسب قريش : ٢٣٩ .

قال « مروان بن الحكم » وقد كان حاضراً ، للوليد بن عتبة :

ـــ عصيتنى حين قلت لك ألا تدعه يمضى أو تضربَ عنقه ! .. لا والله ، لا يمكنْكَ مثلها من نفسِه أبداً .

ـــ فردَّ الوليد : ويحك !.. إنك أشرتَ علىَّ بذهاب دينى ودنياى ، والله ما أُحب أن أملك الدنيا بأسرها وأنى قتلت حُسَينا ! .. سبحان الله ، أأقتل حسينا لَمّا أن قال لا أبايع ؟ .. والله ما أظن أحداً يَلقى الله بدمِ الحسين إلا وهو خفيفُ الميزان عند الله (١) .

....

يبايع أو يقتل ؟ !

على هذا صمّم بنو عبد شمس ! وانصرف الحسين إلى بيته فجمع آله للرحيل : فيروى الطبرى بسنده عن « أبى سعيد المقْبُرى » قال :

« نظرت إلى الحسين داخلا مسجد المدينة وإنه يمشى وهو معتمد على رجلين ، يعتمد على هذا مرةً وعلى هذا مرة ، وهو يتمثل بقول (يزيد) بن مفرغ الحميرى :

لا ذَعَرْتُ السَّوَام فى فلَقِ الصُّبْـ	ـحِ مغيراً ولا دُعيتُ يزيـدَا
يوم أُعطَى من المهانة ضيمـا	والمنايا يَرصُدْننـى أن أحيـدا

قال أبو سعيد : فقلتُ فى نفسى : والله ما تمثل بهذين البيتين إلا لشىء يريد ، فما مكثت إلا يومين حتى بلغنى أنه سار إلى مكة »(٢) .

وما كان « الحسين » طامعاً فى أمر من أمور الدنيا ، ولا كانت له فى الخلافة مأرب ، ولكن إذا انتهى الأمر إلى أن يصير « يزيد » أميراً للمؤمنين ، فلن يبالى « الحسين » ، على أى جنب يكون فى الله مصرعه ، ليدفع هذا الباطل . . .

---

(١) بلفظ الطبرى ٦ / ١٩٠ ومعه : (نسب قريش ١٣٣ ، ومقتل الحسين ١٢٨) .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩١ مع ترجمة أبى سعيد المقبرى ، كيسان ، من حفاظ التابعين ، فى تهذيب التهذيب (ع) .

وإذ رأى من « يزيد » إصراراً على حسم الموقف ، هاجر بأهله إلى مكة .

روى الطبرى عن « عقبة بن سمعان ، مولى الرباب بنت امرىء القيس زوج الحسين » وكانت مع ابنتهما سكينة وهى آنذاك ، صغيرة قال : فخرجنا فلزمنا الطريق الأعظم فقال للحسين أهلُ بيته : لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل ابنُ الزبير ، لا يلحقك الطلب . قال : لا والله لا أفارقه حتى يقضى الله ما هو أحب إليه . فاستقبلنا عبدُ الله بن مطيع فقال للحسين : جُعلت فداك ، أين تريد ؟ قال : أما الآن فإنى أريد مكة ، وأما بعدها فإنى أستخير الله . قال ابن مطيع : خار الله لك وجعلنا فداك فإذا أنت أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة ... الزمْ الحرمَ فإنك سيد العرب لا تعدِل بك والله أهلُ الحجاز أحدا ويتداعى إليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم ، لَنُسْتَرقَّنَّ بعدك »[1] .

ومضى الحسين بأهله ، رضى الله عنهم ، وبلغ الركب الحسينى مكة .

وعكف الناس على الحسين ، يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون إلى كلامه وينتفعون بما يسمع منه ويضبطون ما يروون عنه »[2] .

* * *

وهناك فى دار المبعث ، طافت « سكينة » بأنحاء البلد العتيق ، ووقفت بالمشاهد التاريخية التى صنعت حياة آلِها وحياة العالم الإسلامى أجمع . وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبى الذى كانت مكة بوجه خاص ، والحجاز بصفة عامة ، مركزاً من أهم مراكزه . . . وحيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش ، قد عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩٦ . وترجمة « عبد الله بن مطيع بن الأسود ، القرشى العدوى التابعى » فى تهذيب التهذيب (بخ م) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية . ترجمة الحسين رضى الله عنه . وانظر معه (تاريخ الطبرى) ٦ / ٢٢٤ .

وازدهرت فى تلك البيئة الأرستقراطية ، مدرسةٌ خاصة فى الغزل ، كما ازدهرت صنعةُ الألحان وفن الغناء .

وقُرب موسم الحج من عام ٦٠ هجرية ، و « سكينة » مع آلها فى مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينها وتسمع بأذنيها ، كلَّ ما كان يدور هناك فى ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبى حافل صاخب . وإن كانت فى الوقت نفسه تصغى بكل قلبها وفكرها ، إلى نشاطٍ من نوع آخر ، كان أبوها الإمام مصدره ومركزه معاً ، فمنذ وفد « الحسين » إلى مهد الإسلام وأوى إلى منزل الوحى الذى اصطُفِى له جدُّه العظيم عليه الصلاة والسلام ، وجموعُ المسلمين تلتقى عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها من غلبة الضلال ، وتلوذ به فى حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زاداً من القوة المعنوية تقوى به على مواجهة الطغيان !

وحين كانت مكة تستقبل عدداً من شباب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها فى موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل . أولئك هم رسل العراق ، وفدوا على مكة يبايعون « الحسينَ » ابن بنت النبى ، على الجهاد فى سبيل الحق المغتصَب من أوْلَى الناس به ، واستردادِ الخلافة من بين يدى الفتى الأموى الذى تلقاها عن أبيه ميراثاً هرقليا ، وليس لها بكفء . ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعينُ الأمويين يقظى لا تنام ...

* * *

فى هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ، المزدحم بحشودٍ من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخرين من طالبى الجهاد المتهيئين لبذل الحياة رخيصةً فى سبيل ما يؤمنون بأنه الحق ... فى هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت « سكينة » ربيعها الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال . وقد فرضت عليها الظروفُ أن تحيا بين

التيارين المتجاذبين ، فى مستهل هذا الصبا الغض . وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعثَ راحته وأنسه ، رأتْ فيها أم القرى نموذجاً فريداً رائعاً لا عهد لها بمثله أناقة وظرفا وبهاء ! وأقبلت عليها صَبايا مكة ، يرمقنها فى إعجاب مشوب بشىء من الحسد ، ورحن يرصدن إيماءتها الآسرة ، وحركاتها الرشيقة الفاتنة ، وذلك النمط الخلاب الذى استحدثته فى تنسيق شعرها . .

فى هذا الموسم بالذات ، بدأت شخصيتُها تظهر فى المجتمع ، وتلفت إليها القلوب والأبصار . كانت مكة فى موسم الحج ، سوق أدبية واجتماعية حافلة . فحين أقبل الموسم من عام ٦٠ هـ ؛ وسكينة هناك ، شهد الموسمُ فى دنيا النساء عجباً من العجب : ما من شابة حسناء إلا حاولت أن تقلد « سكينة » فيما ظنّته سرَّ فتنتها ، وإن كانت الآراء قد اختلفت فى تحديد هذا السر ، وذهبت فيه كل مذهب ؛ فمن قائل إنه أُنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللماح ، وآخر يرجع به إلى حسنها الفريد وأناقتها الساحرة ، وثالث يرده إلى ما حفَّ بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسَنَا النبوة ، ورابع يراه فى هذا كله مجتمعا متكاملا ، وخامس يحسبُه جاذبيةً خاصة ، ليست مما يُحَدَّد أو يُفَسَّر أو يضبط !

وإذا كانت حسانُ قريش ، قد فاتهنَّ أن يأخذن عنها نُبلَ الملامح وجلالَ الطلعة ونور النبى ، فقد بقيتْ لهن بعد ذلك أناقتُها يقلدنها حيثما استطعن ، وشاعت « الطُّرَّةُ السكينية » فلم تبق واحدة منهن لم تُنسق شعرها على النَّسق المستحدث الذى ابتدعته الهاشمية الحسناء ، وراح المجتمع المكى يعرف فى بناته أثرَ النموذج الفريد ، ويصغى إلى ما يتناقله السُّمَّارُ من أنباء ظرفها ونوادر دعابتها الذكية . . .

وخفقت قلوب الشباب الهاشمى والقرشى ، تسائل فى لهفة : أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه ؟ وبأيهم ترضى « سكينةُ » زوجاً ؟

وإذا كانت أمانيهم جميعاً قد تعلقت ببنت الحسين ، فإن واحداً منهم هو الذى خطا خطوة جادة فى سبيل الظفر بها ، ذلك هو ابن عمها « الحسنُ المثنى »[1] الذى يرشحه شرفُه وبنوته للإمام « الحسن بن على » لمصاهرة عمه الإمام الحسين .

وكان الحسن المثنى وصىَّ أبيه .

لكنه لم يشأ — أو لعله لم يستطع — أن يسمى « سكينةَ » حين تقدم إلى عمه الحسين يطلب مصاهرته ، فرحب به العم وقال مجيباً :[2]

— اخترتُ لك ابنتى فاطمة ، فهى أكثر ابنتىَّ شبَهاً بأمى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وإنها لَذاتُ دِينٍ وجمال .

ثم أردف بعد لحظة ، فيما تقول الرواية :

« وأما سكينة ، فغالبٌ عليها الاستغراق مع الله ، فلا تصلح لرجل » .

وإذا صحت الرواية ، فإن عبارة الإمام فى ابنته تلفت النظر : فهذا الاستغراقُ مع الله يبدو مناقضا لما أشرنا إليه آنفاً من مرح سكينة وأُنْس مَحضرها ، وما ذاع من أناقتها وميلها إلى الدعابة ، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت — منذ وعتْ — أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التى كانت تخيم على البيت العلوى الكريم ، منذ مصرع جدِّها الإمام على ، وما تلاه من أحداث أليمة حمل أبوها الإمامُ الحسينُ عبئَها الباهظ . وقد بلغ من حرص « سكينة » على اصطناع المرح ، ما استطاعت معه أن تطوى همومها فى أعماقها ، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاءة يتألق بها وجهها الصبوح ، دون أن يلهيها هذا المرح ، الذى فرضه عليها دورُها فى المعركة ، عما تنزع إليه بحكم ميراثها النبوى ونشأتها فى رحاب البيت المحمدى ، من تعبُّد يصل أحياناً

---

(١) نسب قريش : ٥١ — وأم الحسن هى خولة بنت منظور الهلالية الغطفانية .

(٢) الاغانى : ١٤ / ٥٩ ساسى ، وفيه رواية أخرى ، كالتى فى « نسب قريش : ٥١ » ان الإمام خيره بين فاطمة وسكينة ، فكان هو الذى اختار فاطمة . وانظر « مقتل الحسين : ٣٦٨ » .

إلى درجة الاستغراق مع الله ، والاندماج فى ذلك الجو الروحى المسعد الذى كانت تجد فيه ملاذها عندما يثقل عليها دورُها الصعب . فما كانت ظروف الحياة فى بيئتها تلك بالتى تُعين على الابتهاج والمسرة ، فلا عجب إذا رأيناها تنتقل من حالٍ إلى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح ، ثم لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تُقبل على العبادة فى خشوع واستغراق ، استجابةً لما فى طبيعتها المتدينة ، وميراثها من الآباء والأجداد ، ومتخففةً من ثِقَلِ الدور الذى يفرض عليها ما لا تحتمله ظروفُ حياتها من تهلل وإشراق .

ونطيل الوقوف عمدًا عند هذه النقطة بخاصة ، لأنها تعيننا على فهم شخصية « سكينة » ولعلنا ما اهتممنا بمسايرة أحداث العصر ، فى تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين ، إلا لكى نُلقى من هذه المسايرة ضوءًا على ما قد يبدو تناقضاً فى تلك الشخصية التى حيّرت كُتّاب السير : فالأخبار عنها تصورها لهم أحيانا خليةَ البال ، معنية بأناقتها ، مزهوة بملاحتها ، مندمجة فى الحياة الاجتماعية . ثم يقرءون مع ذلك وصفَ أبيها لها بأنها « يَغلب عليها الاستغراق مع الله » [1] ويروون أخباراً أخرى تؤكد أنها كانت مضرب المثل فى التقوى والتصوُّف .

وكان من السهل أن نفترض أن « سكينة » عاشت عهدين مختلفين ، كانت فى أولهما مستغرقة فى الله مندمجة فى حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت إلى حياة المجتمع واندمجت فيه .

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التى عاشتها فى كنف أبيها الإمام ، وأن نجعل مقتله رضى الله عنه ، هو الحد الفاصل بين العهدين .

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة المرحة ، بين قول أبيها رضى الله عنه :

---

(١) السيد عبد الرازق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨ .

إنها يغلب عليها الاستغراق فى الله ، وهذه « الطرة السكينية » التى فتنت عصرها ... بين المشهور من تقواها وتصوّنها ، والذى ذاع من ظهورها فى المجتمع الأدبى ، واحتفائها بالمغنين والشعراء ...

لكنما يحول بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه الذين كتبوا عنها من كون أبيها رضى الله عنه كان يأنس إليها ويحب مجلسها ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة . وفى الخبر أنها سئلت : لِمَ تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل ؟ فكان جوابها ما سمعناه من أن أختها سُميت باسم جدتها الزهراء ...

ثم إن هذه المقارنة بين الأختين ــ إذا صح خبرها ــ قد كانت وهُما بعدُ فى بيت واحد ، قبل أن تمضى الحياة بكل منهما فى سبيل . وفاطمة قد تزوجت فى حياة أبيها الحسين ، وإذن فقد كان ميل سكينة إلى المرح مبكراً ، وقبل أن تُفجَع ــ ويفجَع العالم الإسلامى ــ بمقتل أبيها فى كربلاء ، ولم يمنع هذا المرحُ أباها رضى الله عنه ، من وصفِها بالاستغراق مع الله !

من الممكن أن يقال ، إن سكينة كانت أكثر استغراقاً فى العبادة وأقل ظهوراً فى المجتمع ، أيام كانت تعيش فى كنف أبيها الإمام . كما يمكن أن يقال كذلك ، إن الأحداث الفادحة التى ألمت بها بعد مقتل أبيها قد وجَّهتْها نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللاغب ، على ما سوف نرى فى الدور الثانى من حياتها .

يقال هذا وذاك ، فيقبل فى طمأنينة ، فمما لا ريب فيه أن (مذبحة كربلاء) قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، فى حياة الشريفة الهاشمية الحسناء . بل لا نغلو إذا قلنا إنها الحد الفاصل بين طورين متميزين فى حياتها الحافلة . لكن الذى لا نرتاب فيه كذلك ، هو أن بوادر هذه السجايا فى شخصيتها ، قد لاحت منذ صباها الباكر . أعنى الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، والتقوى والتعبد والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا هو الطابع المميز لشخصية سكينة . ظهرتْ بوادرهُ فى العهد الأول ،

عندما كانت تلازم أباها الإمام وتعيش فى كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحاً ، وإن اتخذ صورة أخرى ، نراها بعد حين .

ولقد زُفت أختُها « فاطمة » إلى الحسن المثنى فى حياة أبيها الحسين ، وقيل فيما قيل يومئذ : إن امرأة مردودتُها سكينةُ ، لَمُنقَطِعةُ القَرينِ فى الحُسْنِ [1] .

وبقيت سكينة فى بيت الحسين ، وقد أرضاها أن يستبقيها أبوها رضى الله عنه إلى جانبه ، فما كانت لِتؤثر على مكانها هناك أىَّ مكانٍ سواه ...

وتناقلت بيوتات مكة كلمة أبيها : « فلا تصلح لرجل » فتقاصرت عنها أطماع الشباب ورأوها فوقَ منالهم ، وطُوِيت قلوبُ كثيرٍ منهم على يأس ...

وأغلبُ الظن أن « مصعب بن الزبير » كان من بين الذين صَكّت الكلمةُ مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه [2] أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسنَ خُلقٍ وعزةَ نسبٍ وشرفَ منبت ، وكان يرى نفسه أهلاً لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد ، صاحب رسول الله وصهر أبى بكر الصديق . وأمُّه الربابُ بنت أنيف بن عبيد الكلبى . وجدَّتُه لأبيه ، صفيةُ بنتُ عبد المطلب ، عمة الرسول عليه الصلاة والسلام . وعَمَّتُه أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينة لأمها .

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يُظاهر هذا النسبَ العريق ويكافئه ، فهو الذى يتناقل المجتمع القرشى أنباءَ جُودِهِ وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : « لو أن مصعبَ بنَ الزبير وجد أن الماء ينقُص مروءَته لَمَا شَرِبه » وهو الذى قال فيه خصمه عبد المللك بن مروان : « متى تغذو نساءُ قريشٍ مثلَك ؟ » .

وكان إلى جانب ذلك كله جميلا فى الرجال ، حتى ليقول « جميل بن

(١) نسب قريش : ٥١ ، ومقاتل الطالبيين : ١٨٠ ، والأغانى : ١٨ / ٢٠٤ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١ / ٢٥٨ ط دار الكتب المصرية .

معمر » : ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلا غِرْتُ على بثينةَ وبينهما ثلاثة أيام ![1] .

وقد حدَّث « مصعب » برغبته تلك فى الزواج من سكينة ، ثلاثةً من أصحابه ، هم : أخوه عروة بن الزبير ، وعبدُ الله بن عمر ، وعبدُ الملك بن مروان[2] ــ ولم تكن المعركة بين بنى أمية وآل الزبير قد انتقلت إليه .

على أن مصعبا لم يبادر إلى خطبة سكينة ، ربما لأنه لم ير الظرف مناسبا وأبوها الحسين مشغول بهمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعدُ صغيرة فلا بأس على مصعب فى أن يتمهل انتظاراً لفرصة موَاتية ، ولعله كان لايرى فى غيره من شباب قريش كفئا لبنت الحسين !...

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتى الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكينة التى رأى أبوها أنها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل ، فكفَّ مصعب عن التعلق بأمنيته فى الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائباً فلا يستطيع أن يلقى الناس وقد كَذَّب كلمتَهم فيه : لو أنه وجد الماءَ ينقص مروءته لَمَا شَرَبه !

فلتكن سكينة مَن تكون ! لتكن الماء الذى لا تقوم حياتُه بدونه ، فهو مَن يؤثر أن يهلك ظمأ على أن يطلب هذا الماءَ مع احتمالِ ردٍّ عنه ! ..

وإلا لما كان « مصعبَ بن الزبير » ، الذى ضربت به قريش المثَلَ فى المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الشابة الشريفة الهاشمية بذلك الصراع فى نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟ !

مِثْلُ « مصعب » مَنْ لا يدع هواه المكبوتَ يغلبه أو تفلت منه بوادر تشى

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٤ / ٢١ .
والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة .
(٢) عيون الاخبار : ١ / ٢٥٨ .

به وتنم عليه . ولعل سكينة لو دَرَتْ بما يطوى ، لَمَا ملكتْ له أكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت فى شغل بدورها المزدوج عن شجون العواطف وشئون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضعَ رثاءٍ من فتاة حسناء ؟

الموت أهون من هذا !

* * *

وثمة سؤال آخر وارد : هل لفتت سكينة فى ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعنى سنة ٦٠ هـ ، عمرَ بن أبى ربيعة شاعر الجمال ؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وحكايات مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد — فيما قالوا — أن يتعقب من يفد على مكة من ربات الجمال ، ليتغزل بهن فى قصائد يتناقلها الرواة ويسرى بها الركبان عبر البيد والقفار ، ويتغنى بها قيانُ المدينة ومغنوها الكبار : عَزَّةُ الميلاء ، والغريضُ ، وابنُ سريج ، ومالكٌ ، ومَعْبَد .

على أن الموسم انفض ، دون أن يتعرض « عمر » لاسم سكينة ، وهو الذى لم يدع ذات جمالٍ إلا حياها فى غزليةٍ أو أكثر من غزلياته . فلماذا أُلجِمَ لسانُه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسمُ « سكينة » زينة الموسم وأروع جميلاته ، ملاحة ونضرة وأناقة وسحرا ؟

وماذا يجديه أن يكون تغنى بأسماء : زينب وهند ورملة والثريا وفاطمة و ... و ... وترك اسمَ « سكينة » الذى صار بصاحبته أعذبَ الأسماء ؟

ما كان صمته عن تجاهل . . إنما أُلجَمَ لسانَه فرطُ تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ما كان يشغل أهلَها وأهلَ مكة جميعاً من تهيؤ « الإمام الحسين » للسفر إلى العراق ، بعد أن جاءته رسلُ الكوفة ببيعة عَشَراتِ أُلوفٍ من أهلها [1] .

كلا ، لا سبيل لعُمَرَ إلى التغزل بأعذبِ اسمٍ لأجملِ مسمّاة .

---

(١) تاريخ الطبرى : جوادث سنة ٦٠ هـ « مقتل الحسين : ١٤٧ » .

وأقول اسم « سكينة » لأنى مطمئنة إلى أن عمر فى غزلياته ، لم يكن يتحدث عن واقع بينه وبين الشريفات الهاشميات والقرشيات ، وإنما كان يختار أسماءَ الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بمزيد تفصيل وبيان ، فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

* * *

مذبحـة كربـلاء

خرجت مكة كلها تشيع سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد خرج منها بأهل بيته غداةَ يومٍ من أخريات ذى الحجة سنة ٦٠ هـ يريد الكوفة ، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك ، بأن يقدم إليهم ليجاهدَ بهم ضد الطغيان .

وقيل إن الذين أتته بيعتُهم من العراق ، أربعون ألف رجل !

ولو استطاعت « مكة » لحالت دون خروج أهل البيت النبوى منها ، ولكن الإمام قد وعَد ، وعزم وقرَّر ، فما تستطيع قوة فى الأرض أن تصدَّه عن النضال فى سبيل ما يوقن أنه الحق ، وما يستطيع إنسان أن يغريه بإيثار السلامة والعافية ! [1]

لقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته فى رحلته تلك . حاول ذلك : أخوه محمد بن الحنفية ، وابنُ عم أبيه عبدُ الله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، صهره وابن عمه ، وآخرون من صفوة أصحاب أبيه الإمام على ، وغيرُهم ...[2] ولكنْ ماذا تجدى المحاولة مع مَنْ هانت عليه الدنيا .

وقيل له فيما قيل : « إن أهل العراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه » وذكروه برأى الإمام الشهيد كرَّم الله وجهه فيهم ، ولكنه أبى إلا أن يمضى وهو يقول لناصحيه :

« إن من هوان الدنيا على الله ، أن رأسَ يحيى بن زكريا أُهدِىَ إلى بَغىٍّ من بغايا بنى اسرائيل » !

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٦ /٢١٧ . وانظر المحاولة فى كتاب (السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم) .

أو يقول :

« إنى لم أخرج أشَراً ولا بطَراً ولا مفسداً ولا ظالما ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى أمّة جَدِّى : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمَن قبلنى بقبول الحق فالله أوْلَى بالحق ، ومَن رد علىَّ هذا ، أصبر حتى يقضى اللَّهُ بينى وبين القوم وهو خير الحاكمين » .

وكان وداع ...

ومضى الإمام الحسين فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ، وقضى عمرته [1] .

كان وداع ضجت ربوع مكة من قسوته ؛ فما هان على أهلها أن يُحرموا من طَلعة الحسين ، وفيها نورُ النبوة ، ولا هان على مكة أن تمسى وقد ارتحل عنها خيرُ بيتٍ وأعزُّ رهط :

بيت النبى ورهط الإمام ...

ومضى الركب الحسينى فى طريقه إلى ما كُتب له فى الغَيْبِ المضمر .

وآب المودَّعون إلى البلد الحرام ، وما فيهم مَن لا يجد فى قلبه مَسَّ الحزنِ ولذعَ الفراق ، وقلقاً مبهمًا لم يلبث أن خالطه شىء من الخوف ، منذ جاوز الركبُ الحمى الآمنَ ووَدَّعوا جيرةَ الحرم .

وكانوا جميعاً يدركون أن لهذا الرحيل ما بعده ، وإن اختلفت بهم الظنون فيما سوف يكون .

وتعلل أكثرهم بالأمل فى أن « يزيد » لن يجرؤ على أن يبوء بدم الحسين ، إن لم يكن تأثمًا وتحرجًا ، فخوفًا من أن يفسد عليه الأمرُ كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا ...

ولكن قلة ــ منها عبد الله بن الزبير [2] ــ كانت على شبه يقين من أن

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ و« مقتل الحسين » : ١٧٤ .

دور يزيد فى الصراع العنيد بين بنى عبد شمس وبنى هاشم قد حان ، وأنه فى طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطته ، لن يدع الحسين يفلت سالمًا ، وليس ليزيد حلمُ أبيه معاوية ، ودهاءُ رأيه ونضجُ خبرته .

* * *

ترى هل لمحت « سكينة » من هودجها ، وهى تتلفت نحو أم القرى لتتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق ، هل لمحت بين الجموع التى احتشدت لوداع الركب « مصعَب بن الزبير » يرسل عينيه إثرَ الراحلين ، فى تجمُّلٍ واجم ؟

وهل استطاعت بأنوثتها الذكية اللماحة ، أن تدرك وراء تَجمُّلِه ما يطوى عليه جوانحه من سرٍّ لا يذاع ؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك « عمرَ بن أبى ربيعة » يُشيع راحلتها وقد بان عليه أثرُ الخيبة والغيظ ، وعزَّ عليه أن تمضى ربةُ الجمال والبهاء والأناقة ، ولم يُحَيِّ اسمَها تحيةَ إعجابٍ واكبار ؟

أغلب الظن أنها كانت فى شغل عن هذا كله بما يتوزع قلبَها وبالَها من شَجن الفراق لأم القرى ، ومن تلك الهموم الكبار التى استغرقت الركبَ كلّه إذ يَغُذُّ السيرَ عبر البيد والقفار ، إلى مصيره المحتوم ، المقدرِ عليه عند عالم الغيب . . .

* * *

ونطوى الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ، وآن للراحلين المجهَدين أن يحطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة .

لكن أحداً منهم لم يهش لقُرْبِ المناخ ...

وتثاقلت رواحلُهم وهى تقطع المرحلةَ الأخيرة الباقية ، وقد خرس الحادى منذ بلغ القومَ فى الطريق ــ عند زَرُود ، على أميالٍ من القادسية ــ نبأ مصرع

الشهيد « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » ابنِ عم الإمام الحسين ، ورسوله إلى أهل الكوفة [1] .

وغشيتْهم غاشيةُ من حُزن ثقيل مُمض ، حين لاحت لهم مشارفُ العراق من بعيد ، فذكرتهم بشهيدِ الأمس الذى لم يجف دمُه بعدُ ، وبشهيدٍ قبله ، ثوى هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين فى عمه عقيل ، حين أتاه نبأ مصرعه الفاجع :

فإن تكن الدنيا تُعَدُّ نفيسةً   فإن ثوابَ الله أعلى وأنبلُ
وإن تكن الأبدانُ للموتِ أُنشئت   فقتلُ امرىءٍ بالسيفِ فى الله أفضلُ
وإن تكن الأرزاقُ قسماً مُقَدَّراً   فَقلَّةُ حرصِ المرءِ فى السعْيِ أجمَلُ
وإن تكن الأموالُ للتَّرْكِ جمعُها   فما بالُ متروكٍ ، به المرءُ يَبخلُ ؟[1]

وإذ هم فى طريقهم ، على ثلاثة أميال من القادسية ، لاح لهم غبار مُثَار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جَرَّارٍ ، عرفُوا فيه جيش عبّيد الله بن زياد — وإلى الكوفة ليزيد — وعلى رأسه الحُرُّ بنُ يزيدَ التميمى [2] ..

وعَدَلَ « الحسين » بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه الحرُّ بن يزيد ، وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويساراً ، والحُرُّ يعترضهم مرة ويُخلى بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء ، فتركهم ينيخون هناك ، فى اليوم الثانى من مستهل السنة الجديدة .

ورجع الحسينُ بصرَه فى الجيشِ الرابض تجاهَه ، فإذا الجندُ جميعاً من أهل العراق !

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٥ .
وزرود : فى طريق الحاج من الكوفة ، انظرها فى (معجم البلدان لياقوت) .
(١) مقتل الحسين : ١٩٢ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٠ .

وكانت عدتهم ــ أولَ الأمر ــ ألف مقاتل ، والركبُ الحسينيُّ لا يتجاوز عدده بضعة وسبعين ، من آل البيت وأصحاب الحسين !...

* * *

وعرف « الحسين » مصيرَه ، قبل أن يقول له الحُرُّ بن يزيد وهو يسايره :

ــ إنى لأشهدُ لئن قاتلتَ لتُقتلَنَّ ، ولئن قوتلتَ لَتَهلِكَنَّ .

ردَّ الإمام الحسين :

ــ أفبالموتِ تُخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطبُ أن تقتلونى ؟ ما أدرى ما أقولُ لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ، فسأله : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال :

سأمضى وما بالموتِ عارٌ على الفتى إذا ما نوى حَقًّا وجاهد مُسلما[1]

وطاف بهم فى ليلتهم الأولى هناك ، طائفٌ منذرٌ بما يطوى الغدُ القريبُ .

وفى مُخيّمِ النساء ، كانت هناك : السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجُه الربابُ بنتُ امرىء القيس ، وبنتاه سكينة وفاطمة ، وبقيةُ العقائل الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون ..

وتركتهن السيدة زينب إلى خيمة أخيها ، حيث رأته هناك مُكِبّاً على سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يا دهرُ أُفٍّ لكَ من خليلِ كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
من طالب وصاحب قتيلِ والدهرُ لا يقنع بالبديلِ
وكلُّ حَىٍّ سالكُ السبيلِ ما أقربَ الوعدَ من الرحيلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليل[2]

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٩ ومقتل الحسين : ١٧٨ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٣٩ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩ .

صاحت العقيلة :

ــ واثكلاه ... ينعى الحسين نفسه ! ليت الموتَ أعدمنى الحياةَ . ماتت أمى فاطمة ، وأبى على ، وأخى الحَسن ، ولم يبقَ غيرك يا خليفة الماضين وثمالَ الباقين ...

وفى روايةٍ أنها سمعتْه رضى الله عنه يقول لها : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقال لى : إنك تروح إلينا .

فصاحت : يا ويلتا ...

قال : ليس لك الويلُ يا أُخَيّة . اسكنى رَحِمَكِ الرحمنُ .

وبلغت صيحتُها ، فى سكون ذلك الليل الموحش ، مسامعَ النساء فى مخيمهن ، فهرعن إلى « الحسين » والكربُ يعصف بهن عصفاً ...

ونظر الحسين إليهن مليا ، ثم قال :

ــ يا أختاه ، يا أمَّ كلثوم ، وأنتِ يا زينب ، وأنت ياسكينة وأنت يا فاطمة ، وأنت يا ربابُ ، إذا أنا قُتِلتُ فلا تشق إحداكن علىَّ جَيْباً ، ولاتخمشْ وجها ، ولا تقل هجرا ...

وأطرقن جميعاً واجماتٍ ، وخيم على المكان سكونٌ ثقيل راكد ، ما لبث أن مزَّقه نشيج مؤلم :

تلك كانت « سكينةُ » تبكى !

هذه التى أخذت نفسَها منذ كانت ، أن تؤنس أباها كلما ثُقل عليه الهمُّ ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعضَ ما يغشى الأفقَ حوله من ظلال ربداء ...

وأقبل عليها أبوها فى حنو ، وفى عينيه نظرةُ حزن وعتاب : كيف هان عليها أن توجع قَلبَه ببكائها ، وهى التى كان يجدها موضعَ أنسِه كلما أَلَمَّ حادث أو اشتدَّ كَرْبٌ ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يُهوِّنُ عليها الأمرَ أن أباها يبذل حياته دفاعا عن حق ودفعا لباطل ، وأنه ملاق غداً جدّه النبى ﷺ وأمه الزهراء ، وأباه الإمام ، وأخاه الحسن ، وعمَّه حمزة ، وابن عمه مسلمَ بن عقيل . . وأنها لا بد لاحقةٌ بهم فى غدٍ قريب أو بعيد ؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكى هموماً طالما طَوتْها ، وتذرف دمعاً طال عليه الاحتباسُ .

ورنا إليها أبوها الحبيب طويلاً ، ثم قال فى شجاعة المستسلم لقضاء الله وقدرِه :

ــ سيطول بُعدى عنك يا سكينة[1] ، فهلا ادخرتِ البكاء ، لِغَدٍ ، وما غدٌ ببعيد ؟ .

ثم أوصى أمها « الربابَ » أن ترعاها ، وقام يصلى ...

ولفَّ الكون كله صمتٌ خاشع ، لم يعد يُسمَعُ فيه سوى صوتِ « الحسين » فى تهجُّدِهِ ، يتلو قرآن الفجر الذى بدأ نوره الشاحبُ ينبثق من خلال الظلمة ، معلناً عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من المحرم سنة ٦١ هـ .

وأصبحوا فإذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم أربعة آلاف مقَاتل ، عليهم « عمرُ بن سعد بن أبى وقاص » ، لم يلبثوا أن زادوا حتى غدوا ــ فى بعض الروايات ــ عشرين ألفا ![2] .

ولم يبدأ قتال ، وإنما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبِه ، معترضة سبيلهم إلى الماء !

وتتابعت الأحداث سراعا فى عنف شرس ، فما استكمل الأسبوع دورتَه ، إلا والساحةُ المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت ، غارقة فى بحار من دماء ...

---

(١) السيد توفيف الفكيكى : السيدة سكينة : ص ١٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٣٤ .

وأُمسِك هنا عن وصف المذبحة المروعة ، فما من كتاب عن تاريخ تلك الفترة لم يصفها ، وأنا بعدُ لا أجد لى طاقة على إعادة الحديث عنها ، بعد أن أطلتُ الوقوف عندها فى كتابى عن « عقيلة بنى هاشم : بطلة كربلاء » .

وإنما أمضى مسرعة لأقف إلى جانب سكينة وقد اقتحم العسكرُ فسطاطها وأُخرِجت لِترى هنالك أشلاءً مختلطة مبعثرة ، لأبيها الحسين الإمام ، وأعمامها عبد الله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبى بكر ، بنى على بن أبى طالب .

وأخيها الشقيق عبد الله بن الحسين .

وأخويها لأبيها ، على الأكبر وجعفر .

وأولاد عمها : أبى بكر وعبد الله والقاسم ، بنى الحسن بن على .

وابن عمتها زينب : « عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب »(١) .

وأخيه لأبيه : محمد بن عبد الله بن جعفر .

وبنى العم عقيل بن أبى طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله .

هكذا ، مرة واحدة ، وفى يوم واحد ، هو التاسع من الشهر المحرم سنة ٦١ هـ (٢) .

* * *

فى ذهولٍ وقفت « سكينة » تُطل على البقايا والأشلاء ...

حتى فرغ القوم من جَزّ الرؤس وجاءوا يسوقونها مع النساء إلى الكوفة .

هناك ألقت بنفسها على ما بقى من جسَد أبيها — وفيه ثلاث وثلاثون

---

(١) فى الطبرى (٦ / ٢٧٠) أن عون بن عبد الله ، وأمه جمانه بنت المسيب ، كان من بين قتلى كربلاء ، وذلك هو عون الأصغر المقتول يوم الحرة ، انظر مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ١٢٤ .

(٢) انظر اسماء من قتلوا من بنى هاشم مع الحسين عليه السلام ، وعدد من قتل فى كل قبيلة فى تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٩ .

وفى (مقاتل الطالبيين ٩١) .

طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ـــ واعتنقتْه متشبثة به ، فخُيل إليها أنها تسمع صوتا يخرج من مَنْحَره الدامى : [1]

شـيعتـى مـا إن شَـرِبتُـم عـذبَ مـاءٍ فاذكـرونى
أو سـمـعتم بغـريبٍ أو شـهيـدٍ فاندبـونى

ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها فى قسوة ، وألحقوها بركب السبايا ! وإنْ كانت إحداهن لَتُنازَعُ ثوبها عن ظهرها حتى تُغلَب عليه ، فيُذهَبَ به منها ! [2]

وسيق الركب التعس ، نحو الكوفة .

وعند أطراف الساحة ، تمهل الركب برهة ريثما ألقت السبايا نظرةً أخيرة على البقايا .

وطِيف برأس الحسين فى أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ...

أين الأشياع والأنصار ؟

أين الألوف الأربعون الذين ألحوا فى دعوته ليجاهدوا معه فى سبيل الحق ، فجاءهم ملبياً ، وترك مأمنه إلى جوار البيت العتيق ؟

ألا فليملأوا أعينهم من رأس سيد الشهداء ، وليروا نساءه وبناته سبايا !

وليملأوا أسماعهم بصوت ابنته سكينة إذ تقف فى الركب التعس حاسرةَ الوجه ، مَهيضةَ الجناح تقول [3] :

إن الحسين غداةَ الطفِّ يرشقُه رَيْبُ المَنونِ فما إن يخطىء الحدَقَهْ
بِكَفِّ شرِّ عبادِ الله كلِّهم نسلِ البغايا وجيشِ المُرَّقِ الفَسَقَهْ

وصوتِ أمِّها الأرملة الثكلى إذ تقول : [4]

(1) السيد الفكيكى : ١٢٤ ، ومقتل الحسين : ٣٦٨ .
(2) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٠ .
(3) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة بنت الحسين : ١٢٥ .
(4) السيد عبد الرازق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٩٤ .

إن الذى كان نورا يُستضاء به بكربلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ
سِبْطَ النبىِّ ، جزاك الله صالحةً عنا وجُنِّبْتَ خُسْرانَ الموازينِ
قد كنتَ لى جَبَلاً صعبا ألوذ به وكنتَ تصحبُنا بالرحْمِ والدِّينِ
مَن لليتامى ومَنْ للسائلين ومَن يُغنى ويُؤْوِى إليه كلَّ مسكينِ

* * *

وسيقت العقائلُ الهاشميات إلى قصر الإمارة ، فى موكبٍ تعس لم تشهد الدنيا له مثيلاً من قبلُ ولا من بعد !

بنات النبى سبايا ، قد حُمِلْنَ على أقتابِ الجمال بغير وِطاَء ، ممزقات الجيوبِ حواسرَ الوجوهِ حافياتِ الأقدام ، يتقدمُهن حملةُ الرءوس عَلى أسِنة الرماح !

رؤوس الحسين وثمانية وسبعين من إخوته وبنيه وبنى أخيه وأبناء عمومته وأصحابه !

« فى (تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٢) أن ابن زياد جلس للناس والوفد ، قد قدموا عليه فأدخلهم وأذن للناس ، فإذا رأس الحسين بين يديه . وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعةً . فلما رآه زيد بن أرقم ــ الأنصارى الخزرجى رضى الله عنه ــ قال له : أُعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما » ثم أخذ الصحابى الشيخ يبكى . . فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقَك . فنهض زيد رضى الله عنه ، فخرج . » .

* * *

وتركت الجثثُ حيث هى على الساحة المشئومة ، مُلقاةً بالعراء ، تسفى

---

(١) تاريخ الطبرى :٦ / ٢٦١ ومقاتل الطالبيين : ٧٨ وما بعدها .

عليها الريحُ ، وتحوم عليها جوارحُ الطير وسباع الجوّ ، ويرعى فيها وحشُ الفلاة :

إبكِ حسيناً ليومِ مصرعِه بالطّفِّ بين الكتائبِ الخُرْسِ
أضْحَت بناتُ النبيِّ إذ قُتِلوا في مأتم ، والسباعُ في عُرْس [1]

وسمعت سكينةُ أمّها الرباب تقول :[2]

وا حسينا ، فلا نَسِيتُ حسينا أقصَدتْه أسِنَّةُ الأعداء
غادروه بكربلاءَ صريعا لا سقى الله جانبي كربلاءِ !

ثم أمر « ابنُ زياد » بالموكبِ المثير ، فسِيقَ إلى دمشق ، كي تقر عينا « يزيد » بمشهده ومرآه .

وعُرِضَ الموكب على أهل دمشق ، قبل أن يساق إلى حضرة يزيد ، ليضع الرأس بين يديه ، ثم ينكث ثنايا الحسين بقضيبٍ كان في يمينه وهو ينشد متمثلا :[3]

نُفَلِّقُ هَامًا من رجالٍ أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلَما

ثم يقول لمن حوله :

« إن هذا وإيانا لكما قال الحُصَيْنُ بنُ الحمام المُرِّي :[3]

أبى قومُنا أن يُنصِفونا فأنصفَتْ قواضبُ في أيمانِنا تقطرُ الدَّما

في تاريخ الطبري أن مروان بن الحكم سأل وفد أهل الكوفة عما صنعوا ، فقالوا : ورد علينا منهم كذا رجلا ، فأتينا والله على آخرهم وهذه الرؤوس والسبايا . فوثب مروان وانصرف . وأتاهم أخوه يحيى بن الحكم فسألهم عما

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة : ٢ / ٢١٢ .
(٢) الأغاني : ١٤ / ١٥٨ ساسي — ومقتل الحسين : ٣٩٣ .
(٣) تاريخ الطبري : ٦ / ٢٧٦ — ومقاتل الطالبيين : ١٢١ — وفي (نسب قريش : ١٢٨) أن الذي تمثل بهذا البيت ، عبيد الله بن زياد .

صنعوا فأعادوا عليه الكلام فقال : حُجِبتم عن محمد يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبدًا .[٤]

وكان ما مضى خبرُه ، فى كتاب « السيدة زينب : عقيلة بنى هاشم » .

ثم كانت نهاية المطاف فى مدينة جَدِّ الحسين ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم « على بن الحسين ، زين العابدين » مع عماته وأخواته . حمله إليها رسولٌ من زين العابدين الذى نجا من المذبحة ، وما كان اينجو لولا أن حَمَتْه عمتُه زينب العقيلة ، وكان فى حِضنها مريضا ...

وضجّت المدينة بالبكاء ، وهى تستقبل بقايا الركب الحسينى الذى ودَّعته ربوع الحجازُ منذ أقل من شهر ! !

وبرزت النساء ، كل النساء ، صارخاتٍ باكيات ، وخرجت عقيلات بنى هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه ، يندبن فى لوعة : واحسيناه ، واحسيناه ...

وخرجت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » — أخت مسلم — على الناس ناشرةً شعرها وهى تبكى قائلة :[١]

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم	ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأُمـمِ
بِعِتْرتى وبـأَهْلى بعـدَ مُفْتَقَـدى	منهم أسَارَى ومنهم خُضِّبوا بدمِ
ما كان هذا جزائى إذ نصحتُ لكم	أن تخلفونى بسوءٍ فى ذوى رَحِمى

فما سمعها أحدٌ إلا وبكى ...

ولم تبق دارٌ فى المدينة إلا وبها مأتم ...

ولبثت مناحةُ الشهداء هنالك قائمةً أياما وليالى ، حتى جفّت المآقى من طولِ ما سَكَبَتْ من دمعٍ ، وصَحلت الحُلُوقُ من طولِ ما أجهدها النواح ...

---

(٤) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٧٦ ، ومعه الكامل لابن الاثير : ٤ / ٣٧ .

(١) هذه رواية الطبرى للأبيات . وذكر أنها لامرأة من بنى عبد المطلب (٦ / ٢٢١) ورواها الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) وابن قتيبة فى (عيون الانباء : ٢ / ٢١٢) مع خلاف يسير فى الشطر الأول من البيت الثانى ، ومع ذكر اسم القائلة : زينب بنت عقيل .

وانظر « مقتل الحسين : ٤٠٧ » .

بعد العاصِفَة

وتضطرب الأخبارُ عن « سكينة » فترةً ، فيقال فى رواية إنها صحبت عمتها « السيدة زينبَ » فى خروجها إلى مصر ، حين أدرك « يزيدُ » خطرَ مقامها المدينة ، فأمر واليه بها أن يُفرِّقَ بينها وبين الناس حتى لا تكون فتنة[1] .

وإذا صحت هذه الرواية ، فلعل سكينة قد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها السيدة زينب ، فى شهر رجب من سنة ٦٢ هـ .

وفى المدينة ، أقامت أمها الرباب ، التى خُطِبت بعد فترة الحداد ، فأبت أن تستبدل بالحسين زوجاً وبرسولِ الله صِهراً ، وقالت : ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله ﷺ وأنشدت :

والله لا أبتغى صهرا بصهركم حتى أُغَيَّبَ بين الرملِ والطِّينِ[2]

ثم ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد ، حزنًا عليه ، وعلى ولدها عبد الله [3] .

فذكرها أبو جعفر ابن حبيب النسابة ، فى (الوافيات لأزواجهن اللواتى لم يتزوجن بعدهم) قال : « والرباب بنت امرئ القيس بن عدى بن جابر بن كعب بن عليم . ولها يقول الحسين بن على رضى الله عنهما .

لعمرك إننى لأحبُّ داراً تحل بها سكينةُ والرباب

---

(١) العبيدلى النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات : ١٨ — وانظر معه الفصل الخاص بهذه الرحلة إلى مصر ، فى كتاب (السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم) .

(٢) الاغانى : ١٤ / ١٥٨ ساسى .

(٣) تاريخ ابن الأثير : ٤ / ٧٣ .

قال : وكانت تحت الحسين رضى الله عنه ، فلما قتل خُطِبت فقالت : والله لا اتخذتُ حموا بعد رسول الله ﷺ »[1]

* * *

وأقامت « سكينة » بعدها فى كَنفِ أخيها السّجّاد ، زينِ العابدين ، على بن الحسين ...

وهنالك فى المدينة ، عادت أنظارُ بنى هاشم فالتفتت إلى الشريفة الحسناء من جديد ، وقد ثقُل الحزن عليها ولما تزلْ فى مستهل الشباب وعِزِّ الصبا .

وأحاط بها قومُها يُلحون عليها فى الزواج ، إبقاء على سلالة الحسين النقية الطاهرة التى لم يبق منها — بعد مذبحة كربلاء — غيرها ، وغير أخيها على زين العابدين .

وكانت الأحداث العنيفة التى مرت بها ، قد غيرت من حولها ، فلم تعد تتشبث بالبقاء فى بيت أبيها بعد أن غاب عنه مَنْ كانت ترى حياتها لا تدور إلا فى فلكه .

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلها ، ورضيتْ بالزواج ، ولما يزل الجرح فى قلبها حَيًّا ينزف دما ...

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها ، تكاد الحقيقةُ تغيب فيها وسط حشدٍ من متناقض الأخبار وشتى الروايات ...

وأما أختها « فاطمة » فاستقرت بها الحياة فى بيت زوجها الحسن المثنى ، ابن عمها الحسن رضى الله عنه . فلما حضرت زوجَها الوفاةُ قال لها :

« إنك يا فاطمة امرأة مرغوب فيكِ ، فكأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان إذا خرج بجنازتى قد جاء على فَرسٍ مَرَجِّلًا جُمّتَه لابسًا حُلته ، يخطبك ، فانكحى من شئتِ سواه ، فإنى لا أدع من الدنيا ورائى هَمّا غيرك » .

وصدق حَدْسه ... تزوجها عبدُ الله بن عمرو بعد تمنُّعٍ منها وإباء ، فوَلَدت

(1) المحبَّر ، لأبى جعفر ابن حبيب : ٣٩٦ .

له محمدًا ، الديباجَ ، والقاسمَ ، ورقيةَ : بنى عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكانت ولدت للحسن ابنَه عبد الله الذى كان يقول : « ما أبغضت أحداً بغضى عبدَ الله بن عمرو بن عثمان ، وما أحببتُ حبَّ ابنِه محمدٍ الديباجِ »[1] .

....

* * *

(١) نسب قريش : ٥١ .

الفصل الثانى

فى بيت الزوجية

— مثلٌ من مَرويّاتِهم

— مع عبَد الله بن الحسن

— مع مُصعَب بن الزبير

— مع ابراهيم بن عبد الرحمن

— مع الأصبَغ المروانى

— مع عَبد الله بن عثمان الحِزامىّ

— مع زَيْد بن عَمرو العثمانى

مثــلٌ من مَرويَّــاتِهم

حين نعرض لِسَيْرِ الحياة بسكينة فى هذه المرحلة ، نضع أمامنا ذلك الحشدَ من أخبارِ زيجاتها التى بلغت فى بعض الروايات ستَّ مراتٍ ، وتضاءلت في روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو الاثنتين ! مع اختلاف فى الأسماء والأزواج وترتيب زواجها بهم ، وخَلْطٍ بين من تم زواجها بهم ، ومن خطبها ولم تتزوجه .

من القرن الثالث للهجرة ، جاءتنا ثلاث قوائم لعلماء الأنساب :[1]

الأولى ــ فى (نسب قريش ، للمصعب الزبيرى) ــ ٢٣٣ هـ :

« كانت سكينة عند (مصعب بن الزبير) ثم خلف عليها عبدُ الله بن عثمان ابن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد ، فولدت له حكيما وعثمان ــ المعروف بقرين ــ وربيحةَ التى تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . ثم خلف على سكينة زيدُ بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فلم يتم نكاحه ... ثم خلف عليها الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحُمِلَتْ إليه بمصر فوجدتْه قد مات » .

العدد عنده خمسة أشخاص ، منهم ثلاثة تم زواجها بهم .

وقريب منها قائمة ابن سعد ــ ٢٣٠ هـ ــ فى (الطبقات) .

(١) نسب قريش : ٥٩ وطبقات ابن سعد ٨ / ٤٧٥ وجاء فى « جمهرة أنساب العرب : ان زوجها زيدا العثمانى ، هو بن عمر ابن عثمان ، لا عمرو (٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم : زيد بن عمر فى نسب قريش ١٢٠ ولعل سبب الاختلاف ان لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو .. انظر نسب قريش (١٠٤) والجمهرة (٧٥) .

القائمة الثالثة ــ للنسابة أبى جعفر محمد بن حبيب البغدادى ــ ٢٤٥ هـ :

ذكرها فى (من تزوج ثلاثة أزواج فصاعداً من النساء) قال : « . . . وتزوجت سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب : (عبد الله بن الحسن بن على) وكان أبا عذرها . فخلف عليها (مصعب بن الزبير) فولدت له فاطمة . ماتت وهى صغيرة . فقُتِيل مصعب عنها ، فخطبها (عبد الملك ابن مروان) فأبَتْه ، فتزوجها (عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد) ثم (الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان) فلم يصل إليها ، فارقها قبل ذلك . ثم (زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان) ثم (ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف) فلم يدخل بها ، ولم ترضه . وخُيِّرت فاختارت نفسها »[1] .

قائمة ابن حبيب هذه ، فيها أربعة أزواج للسيدة سكينة : وثلاثة خطبوها ولم يتم الزواج أو لم ترضهم .

الأربعة هم : عبد الله ابن عمها الحسن بن على الطالبى .
ومصعب بن الزبير الأسدى ، وعبد الله بن عثمان بن عبد الله المخزومى ، وزيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان الأموى .

* * *

بعدها ، من القرن الرابع ، جاءتنا خمس قوائم ، أو ستّ لأبى الفرج الأصبهانى ــ ٣٥٦هـ :[1] .

١ ــ مصعب بن الزبير ، ثم الأصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن .

٢ ــ الأصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب بن الزبير ثم ابراهيم بن عبد الرحمن .

---

(١) ابن حبيب (المحبر : ٤٣٨) .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ــ ١٦٢ ساسى .

٣ ــ عمر بن الحسن ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب ، ثم الأصبغ المروانى ، ثم عبد الله بن عثمان .

٤ ــ عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم مصعب ، ثم ابراهيم .

٥ ــ عبد الله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الأصبغ المروانى ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم .

وفى هذه القوائم أضيف اسمان جديدان إلى الأسماء التى وردت فى الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !

وتضيف رواية سادسة ، أن عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب فرفضته أمها وقالت : لا والله لا تتزوجْه أبدا وقد قَتَلَ مصعبا ، ابنَ أخى[1] .

* * *

من القرن السابع ، جاءتنا قائمة المؤرخ « ابن خلكان ــ ٦٨١ هـ » :

« تزوجها مصعب بن الزبير فهلك عنها . ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم الأصبغ المروانى ، وفارقها قبل الدخول بها . ثم زيد بن عمر بن عثمان بن عفان وأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها . وقيل فى ترتيب أزواجها غير ذلك » .[2]

فهؤلاء أربعة ، تزوجت ثلاثة منهم .

واقتصر الذهبى ــ ٧٤٨ هـ ــ على مصعب بن الزبير » .[3]

ومن القرن الحادى عشر ، جاءتنا قائمة « ابن العماد الحنبلى ــ ١٠٨٩هـ :

« مصعب بن الزبير ، ثم عبد الله بن عثمان الحزامى ، ثم زيد بن عمرو ابن عثمان بن عفان ، فأمره سليمان بطلاقها .» [4]

فهؤلاء ثلاثة

* * *

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .
(٢) وفيات الأعيان : ١ / ٢٩٨ .
(٣) العبر ، وفيات سنة ١١٧ هـ .
(٤) شذرات الذهب ١ / ١٥٤ وفيات سنة ١١٧ هـ .

فى العصر الحديث ، قائمة لمؤرخى الشيعة :

نقل السيد توفيق الفكيكى عن السيد عبد الرزاق الموسوى ، فى كتاب له عن السيدة سكينة ، ما نصه : « وهناك من المؤرخين من يحكى تزويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر — ابن الإمام الحسن — المقتول فى الطف مبارزة . وأما غيره من الأزواج ففى ذمة التاريخ » .

عقب عليه السيد الفكيكى بقوله :

« وهناك من الأدلة التاريخية المجمع على صحتها ، ما يؤيد أن السيدة سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبد الله بن الحسن بن علىّ بمصعب بن الزبير . زوجه إياها أخوها الإمام علىّ بن الحسين ، السجاد »[1] .

فهؤلاء اثنان فقط ، لا ثالث لهما .

* * *

وجاءت (دائرة المعارف الإسلاميه) بقائمتها وهذا نصها :

« فأول أزواجها مصعب بن الزبير ، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة تزوجت من أخى مصعب !

ثم تزوجت عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب بن الزبير ، ثم الزبير (؟) ابن عمرو بن عثمان بن عفان .

ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولم يدخل بها . ثم ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام » .

وفى هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام :

فابنتها من مصعب ، تزوجت من أخى مصعب ، وهو عمها ! !

وعبد الله بن عثمان ، هو ابن أخى مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة ، وليس لمصعب أخ يدعى « عثمان » فى أى مرجع من مراجعنا ، وقد أورد

(١) الفكيكى : السيدة سكينة بنت الحسين : ١١٢ وانظر معه : (مقتل الحسين : ٣٦٨) .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية : مادة (سكينة بنت الحسين) .

الزبيرى ــ حفيد الزبير ــ أسماءَ ولَدِ الزبير بن العوام ، ولا عثمانَ فيهم ![1]

وزوجُها الثالث فى الدائرة : الزبير بن عمرو بن عثمان . وليس لعمَرو ولَدٌ يدعَى الزبير ، فى (جمهرة أنساب العرب) ولا فى (نسب قريش) .

وآخر أزواجها فى الدائرة : عمرو بن الحاكم بن حزام ، وليس لِحِزامٍ وَلَدٌ يُدعَى الحاكمَ . وإنما هو حكيم ، وليس لحكيمٍ وَلَدٌ يدعى عمرا فى أنساب العرب أو نسب قريش[2] .

وأما عبد الله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنها تستبعد زواجه من سكينة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد ...

* * *

وتقارن بين هذه المرويات فترى :

أن زوجها الأول : هو ابن عمها عبد الله بن الحسن ، فى المحبر ، وفى إحدى روايات الأغانى[3] . واقتصرت عليه بعضُ المصادر الشيعية الحديثة[4] .

ولم يذكره المصعب الزبيرى ، وابن خلكان ، وابن العماد ، وعدد من قوائم الاصبهانى . وانكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الإنكار .

أو هو عمر بن الحسن ، فى رواية بالأغانى أيضا .

أو هو مصعب ، فى رواية المصعب الزبيرى وابن سعد وابن خلكان والذهبى ــ وعليه اقتصر ــ وابن العماد ، وإحدى روايات الأغانى ، ودائرة المعارف .

أو هو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى رواية بالأغانى !

(١ــ٢) نسب قريش : ٢٣١ ، ٢٣٦ ، والجمهرة ١١٢ .

(٣) حـ « ١٤ ص ١٦٠ ساسى » .

(٤) توفيق الفكيكى : السيدة سكينة ٧٥ ، ١١٢ ــ والسيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨ .

ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الأصبغ أولهم فى رواية ، وثانيهم أو ثالثهم أو رابعهم فى روايات أخرى ..

وتختلط الأسماء اختلاطا عجيباً ، بل شاذا ، حتى لَيُشطَر الاسمُ الواحد شطرين ، يؤتى بكلِّ شطرٍ منهما على حدة ، فيكون منهما زوجان للسيدة سكينة !

فعبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، شُطِرَ شطرين ، فكان منه زوجان :

عبد الله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بنِ حزام ، أو كما تُرجِمَ فى (دائرة المعارف) : عمرو بن الحاكم !

* * *

ولا سبيل هنا — أمام ما نرى من تناقض وشذوذ — إلى تتبع حياتها الزوجية تتبعا دقيقا يعتمد على اليقين التاريخى ، هذا اليقين الذى يعز علينا فى نقول الأخباريين بوجه عام ، وهو هنا فى زوجية السيدة سكينة ، أبعد من أن يُدرك أو ينال . لا نكاد نحاول ما نبغى من تتبع حتى يلقانا عنَتٌ من اضطراب الروايات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبُل ، إلى حدٍّ يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق فى هذا الحشدِ المختلط المشتبك ، فلا سبيل إلى أن نطمع فى أكثر من الترجيح الذى يعتمد على الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبة .

لقد كان أمر هذا التناقض فى الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو أنه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها بإحدى الروايات فيكون سبيلنا إلى الترجيح أن نختار أدعاها إلى الثقة ، على القواعد المقررة فى قواعد المنهج النقلى للترجيح والنقد والمقابلة ، والتعديل والتجريح .

ولكنا هنا أمام روايات متناقضة تجتمع فى المرجع الواحد ، دون محاولة من ناقلها للفصل بينها أو الوقوف عندها ..

ففى صفحة واحدة من الأغانى مثلا ، تقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة ، ثم لا شىء أكثر من هذا السرد .

وإذا بلغ الخلاف فى الموضع الواحد أن يكون الأصبغ المروانى أول أزواجها فى رواية ، ورابعهم فى أخرى ، ثم لا يُشار إلى هذا الخلاف بكلمة واحدة ،

وإذا بلغ الشذوذ فيما يُروَى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تتزوج من عمها أخى مصعب ! (كما فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال إن الرباب بنت امرىء القيس ، التى أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بُعِثت من قبرها لتشهد مصرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواجَ بنتها سكينة من قاتله ! (كما فى الأغانى) ،

وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب ، وعمرو بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر فى نسب قريش وأنساب العرب عن وجودِ أخٍ لمصعبٍ اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم ،

أقول : إذا بلغ الأمرُ هذا المبلغَ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمع فى قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة إذا قدرنا أن هذه الكتب ــ وحالُها كما رأيت ــ هى مصدرُ مادتنا عن السيدة سكينة ، ومرجعُنا فيما نورد من أخبارها .

حين تعوزنا مرجحات منهجية ، لا يبقى لدينا إلا أن نلوذ فى قبول ما نقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما نطمئن إليه على هدى ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نفحص من شتى الأخبار ونقابل بينها ، وما نفهم من إيحاء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

* * *

مع عبد الله بن الحَسن

ونبدأ بعبد الله بن الحسن بن على .

ذاك الذى اقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة ، ولم يذكره ابن خلكان ، وذكره أبو الفرج مرةً باسم عبدِ الله ومرةً باسم عمر ، وقالت دائرة المعارف الإسلامية : « أما ما ذكره صاحب الأغانى من زواج سكينة بابن عمها عبد الله بن الحسن بن على ، فقول يصح لنا إنكاره » .

لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها إلى الإنكار ؟ .. وليس الإنكار أمرا سهلا ، ولا هو مما يجوز أن يُرسل بغير دليل .

إنه فى حساب المنهج كالإثبات ، يقتضى كلاهما أن تأتى بدليل أو قرينة ...

وذلك بخلاف التوقف ، فهو وحده الذى لا يلزمك بالدليل ، وإنما يكفى فيه ألا تطمئن فى الخبر إلى إثبات أو إنكار .

ولسنا نملك هنا أى دليل ، يؤيد مسلك (الدائرة) فى استبعاد القول بزواج سكينة من ابن عمها « عبد الله بن الحسن » فصَمْتُ بعضِا لمراجع التاريخية عن ذكره ، لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة القرائن ــ فضلًا عن الأدلة ــ بعد الذى أشرنا إليه من تناقضها واضطرابها .

فليس ثمت ما يمنع من أن يكون « عبد الله بن الحسن » خطبها أو تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعية .

ولكنا نعلم أن عبد الله قد قُتل بالطف مع أخيه القاسم ، ذكر ذلك

الأصفهانى فى (مقاتل الطالبيين) والطبرى الذى أورد اسم عبد الله والقاسم ابنى الحسن ، بين من استشهدوا مع الإمام الحسين فى كربلاء ، وذكره كذلك الزبيرى فى نسب قريش ، وابن حزم فى الجمهرة ، والسيد عبد الرزاق الموسوى فى (مقتل الحسين : ٣٢٨) .

ونطمئن إلى أن السيدة سكينة قد قتل أبوها ولما تتزوج . . .

ولو قد تزوجت فى حياته ، لما فات ذلك ـــ فيما نرجح ، والله أعلم ـــ من أرخوا للإمام الحسين ، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتى عمه ، واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له .

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش .

فلعله إذن خطبها إلى أبيها ، ولم يتم الزواج . كما ذكر « الطبرسى » فى (إعلام الورى) .

ويرجح عندنا عدم إتمام الزواج ، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوى فى (مقتل الحسين) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما ، يوم مقتله بالطف .

ولا نملك مانضيفه إلى هذا ، وليس فى أى مرجع مما بين أيدينا ، ما يشير إلى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب الذى أوردناه ، ليس فيه أكثر من أنه تزوجها وقُتل عنها بالطف ولم تلد له[1] .

وأغلب الظن أن السيدة سكينة نفسها لم تشغل بهذه الخطبة الأولى ـــ لو صح الخبر عنها ـــ بل كان بالها مشغولا بهذا الأب الحبيب فى معركته العنيفة ، وأن الأحداث قد جذبتها إلى دوامة الإعصار ، وشغلتها عن خاطبٍ وبيت ، كما فعلت بعمتها السيدة زينب العقيلة ، والتى عاشت فى صميم المعركة ، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم .

وقد ألهت الفجيعة الكبرى فى الإمام الحسين ، أخته السيدة « زينب » عن

(١) عن « الأغانى » والسيد عبد الرزاق الموسوى . والطبرسى .
راجع قوائم الازواج التى أوردناها فى مستهل الفصل .

ولد لها استُشهد مع عمه فلم تذكره فيما تعلم ، وكذلك ألهت الربابَ ــ أم سكينة ــ عن ولدها عبد الله ، فلم يصل إلينا أى خبر عن حزنها عليه ، وإنما الذى وصل إلينا أنها رثت زوجها الإمام ، وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه ، بعد سنة واحدة من كربلاء[1] .

فلا غرابة إذن فى أن تكون خطبة عبد الله لسكينة ، قد مرت بها عابرة كأن لم تكن ، لا فى حسابها هى ، ولا فى حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة ، وهزتهم أحداثها الكبار ، فما عادوا يذكرون إلا المأساة المروعة التى خضبت صفحة من التاريخ الإسلامى ، بمصارع الشهداء من آل البيت .

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج ، فى تلك الفترة التى تلاحقت فيها الأحداث الجسام ، متدافعة فى سرعة عنيفة تبهر الأنفاس ، نحو ذروتها الفاجعة .

ولا كان من المقبول أن تسكن إلى زوج ، وتدع أباها فى همه الأكبر ، وهو الذى ما كان يأنس إلا بها ، ولا يستريح إلا إليها ...

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٧٣ .

مَع مُصعَب بن الزبَير

وإنما تبدأ حياتها الزوجية الحقة ، بمصعب بن الزبير .

والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام .

وهو أول أزواجها عند ابن سعد (٨ / ٤٧٥) وعند المصعب بن عبد الله الزبيرى فى نسب قريش (٥٩) وابن خلكان فى وفيات الأعيان (١ / ٢٩٨) .

وكذلك هو أولهم فى إحدى روايات الأغانى (١٤/ ١٦٢) وفى شذرات الذهب (١ / ١٥٤) .

وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء ، أم كان قد تزوجها بعد أن قُتل خاطبها الأول عبد الله ، ابن عمها الحسن — على ما تقول الرواية الأخرى — فالذى لا يكاد يُختلف فيه ، هو ان مصعبا يأخذ المكان الأول فى حياتها الزوجية الطويلة ، بحيث لم يعتد الحافظ الذهبى بغيره زوجا للسيدة سكينة .

ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار ، وتحاول أن تتناسى ما مر بها من مِحَنٍ وكروب ، ولما تزل فتاة فى عنفوان الصبا وعز الربيع .

أمنيـــة قديمـــة :

وقد أشرتُ من قبل ، إلى أن الزواج من سكينة كان أمنية قديمة لمصعب ، تعلقت بها رغبتُه أيامَ ظهرت فى المجتمع المكى لأول مرة ، عندما صحبت أباها رضى الله عنه فى رحلته إلى أم القرى ، إثر ولاية يزيد بن معاويه ، وإلحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين قسرا .

ويبدو أن مصعبا صارح برغبته هذه بعض أصفيائه ، بعد أن خرجت سكينة من مكة مع من خرج من آل الحسين ، فى رحلة الموت ، تلك التى انتهت بمذبحة كربلاء ...

ففى كتاب (عيون الأخبار) أن أربعة من رجالات قريش ، هم : « عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : « تَمَنّوا » . فقالوا : « ابدأ أنت » . فقال : « ولاية العراق ، وتزوج سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله » وتمنى عروة بن الزبير الفقه ، وأن يُحمَلَ عنه الحديثُ ، وتمنى عبدُ الملك الخلافة ، وتمنى عبدُ الله بن عمر الجنةَ »[1] .

فلما حالت الظروف أولَ الأمر دون زواجه من « سكينة » تزوج من تلك الأخرى التى تمناها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التى خلد اسمَها شعراءُ الحجاز : عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومى ، وابن قيس الرقيات[2] ؛ فى قصائد رجّعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات . كما تعلقت بها آمالُ عدد من أعزِّ الفتيان القرشيين ، فما يمضى عنها زوجٌ إلا سارع الخُطّابُ متلهفين إلى تلك التى شاعت فيها كلمة « أبى هريرة » رضى الله عنه حين رآها لأول مرة : سبحان الله !.. كأنها من الحور العِينِ[3] .

و« عائشة » كانت تجمع إلى جمالها عزةَ النسب : فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمى ، الصاحب الجليل أحد العشرة رضى الله عنهم ، وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وخالتها عائشة أم المؤمنين .

تزوجها قبل « مصعب » ابنُ خالها « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق »[4] وكانت خالتها السيدة عائشة هى التى سعت فى هذا الزواج ، فلقى عبدُ الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراستها ـــ وكان يقال فى نساء

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٢ / ٢٥٨ دار الكتب المصرية .

(٢) اقرأ أشعارهم فى (الاغانى جـ ١١ دار الكتب) .

(٣) الاغانى : ١١ / ١٨٩ دار الكتب ، وانظر فيه كلمة أخرى لأبى هريرة ، ص ١٩٢ ، ١٨٠ .

(٤) انظر أصهار « طلحة بن عبيد الله » فى (المحبر : ٦٦)

بنى تيم : هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن ــ وكانت أختها « أم إسحق بنت طلحة » عند الحسين بن على ، فسُمِعَ مرةً يقول : « والله لربما حَمَلَتْ ووضعتْ وهى مصارمة لى لا تكلمنى ... » .

وزاد « عائشَةَ بنتَ طلحة » زهوُ الجمال شراسةً على شراسة ، حتى مكثتْ مصارمة زوجها الأول ــ عبد الله بن عبد الرحمن ــ غضبى عند خالتها السيدة عائشة ، فقيل له : طلقْها . فردَّ منشدا :[1]

يقولون : طَلِّقْها لأصبحَ ثاوياً مقيما على الهَمِّ ، أحلام نائم !
وإن فراق أهلَ بيتِ أُحبُّهم لهم زلفةُ عندى لإحدَى العظائم

ولبث يكابد منها ما يكابد ، فى صبر واحتمال ، حتى مات عنها فما فتحت فاها عليه !..

مات ، وترك لها أربعة بنين : عمران ــ وبه كانت تكنى ــ وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، وبنتا واحدة هى نفيسة تزوجها الوليد بن عبد الملك [2] .

ومع ذلك العبء الثقيل من الأبناء ، وما ذاع فى المجتمع القرشى من أخبار ما لقى زوجها الراحل من شدتها ومصارمتها ، هفت قلوبٌ إلى الزواج منها .

وكان « مصعب » أحد هؤلاء ...

ويقال إنه أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيامُ بأعباء الحَمْلِ والولادة خمسَ مرات ، فبعث « عزةَ الميلاء » ــ المغنية المشهورة ــ لتأتيه بوصفها ، وكانت « عزة » خبيرة بشئون النساء . فمضت حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة :

---

(١) كذا فى الاغانى (١١ / ١٨١ دار الكتب) والذى فى (نسب قريش ص ٢٧٧) أن هذه الابيات لعبد الله ، فى زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل .

(٢) كذا فى(جمهرة أنساب العرب : ١٢٨) ومثله فى (الأغانى ١١ ، ١٨٠ دار الكتب) وقال فى نسب قريش) بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر : وأمه عائشة بنت طلحة .(ص ٢٧٨) ولعله خطأ مطبعى صوابه : وأمهم عائشة بنت طلحة ، كما فى الجمهرة والأغانى .

ـــ فديتُكِ ، كنا فى مأدبة لقريش ، فتذكروا جمالَ النساء وَخَلْقَهن ، فذكروكِ فلم أدر كيف أصِفُك . فديتُكِ ، فَألْقِى ثيابَك .

ففعلت عائشة ...

وتأملتها عَزَّةُ مَلِيّاً ثم قالت : خُذى ثوبك فَدَيتُكِ !

وهمت بالانصراف ، لكن « عائشة » أمسكتها وقالت : قد قضيتُ حاجتَك ، وبقيتْ حاجتى .

سألتها عزة : وما هى ، بنفسى أنتِ ؟

أجابت : تغنينى صوتا .

فانطلقتْ « عزةُ الميلاء » تغنى لحنَها فى شعر جميل بثينة :

خَليليَّ عُوجَا بالمحلةِ من جُمْلِ وأترابِها ، بينَ الأُصَيْفرِ والخَبْلِ
نَقِفْ بمغانٍ قد مَحَا رسمَها البِلَى تعاقبت الأيامُ بالريحِ والوَبْـلِ
فلو دَرَج النَّمْلُ الصغارُ بِجلدِها لأندَبَ أعلى جِلْدِها مَدْرَجُ النمْلِ

فقامت « عائشةُ » فقبّلتْ ما بين عينيها ، ودعتْ لها بعشرةِ أثوابٍ وبطرائفَ من الفضة ...

وعادت عزة تقول لمصعب :

« لا واللّهِ ما رأيتُ مثلَها مقبلةً ومدبرةً ... نقية الثغرِ وصفحةِ الوجه ، فرعاء الشعرِ لَفاء الجسم ممتلئة الصدر خميصة البطن ... وفيها عيبان : أما أحدُهما فيواريه الخمار وأما الآخر فُيواريه الخُفُّ : عظمُ الأذُنِ والقَدَمِ »(١)

وتزوجها مصعب ...

وأمهرها خمسمائة ألف درهم ، وأهدى لها مثلَ ذلك (٢) .

---

(١) الاغانى : ١١ / ١٧٧ دار الكتب .

(٢) الاغانى : ومثله فى (عيون الاخبار : ٢ / ٢٥٨) .

وكان ابنُ قيس الرقيات قد قال فى « عائشة » :

إن الخليطَ قد أزمعوا تركى فوقفتُ فى عَرَصَاتِكم أبكى
عجَباً لِمثلِكِ لا يكون له خَرْجُ العراقِ ، ومنبرُ المُلْكِ

وغنّاه « مَعْبَد » [1] .

فكان لعائشة خرْجُ العراقِ بالزواج من أميرِه مصعب بن الزبير .

وأما منبر الملك فادخره القدَرُ لا بنتِها من زوجها الأول : نفيسة بنت عبد الله حفيد الصديق ، تزوجها — لما شَبَّتْ — الوليدُ بنُ عبد الملك أمير المؤمنين[2] .

* * *

وكذلك تحققت لمصعب أمنيتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ، وتزوج عائشة بنت طلحة .

وبقيت الأمنية الثالثة : أن يتزوج من سكينة بنت الحسين ، فيجمع بين أجمل غادتين فى زمانه ! ..

وقد شغلته الشواغل الجسام التى أُلقيت على كواهل آلِ الزبير بعد استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء ، إذ اعتصم كبيرُهم « عبد الله » بالبيت الحرام ودعا إلى نفسه بالحجاز . وتأهب « يزيد » لقتاله بعد فترة من مصرع الإمام الحسين وأهله ، وسير إليه فعلاً جندَ الشام بقيادة « مسلم بن عُقْبة » فبدأ بالمدينة وقتل أهلَها مقتلة عظيمة فسُمِّى ذلك اليومُ يومَ الحرة ، [3] وأنهبها جندَه ثلاثةَ أيام . ثم شخص بمن معه متوجها نحو مكة فأدركتْه منيتُه فى ثنية هرشى ، وسار الجيش من بعده فحاصر ابن الزبير .

لكن الموت لم يُمهل « يزيدَ » حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء نعيُه

---

(١) الاغانى : ١١ / ١٧٥ دار الكتب .
(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٢٨ .
(٣) تاريخ الطبرى : ومقاتل الطالبيين : وما بعدها ، ونسب قريش : ١٢٧ .

من دمشق مستهلَّ شهر ربيع الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده ابنه « معاوية الثانى » وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما . وأُمُّه بنتُ هاشم ابن عتبة بن ربيعة ، أخى هند أم معاوية .

وأحس الغلام أنه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلى الخلافة حتى أمر فنودى بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه . فابتغيتُ لكم رجلاً مثلَ عمر بن الخطاب ــ رحمة الله عليه ــ حين فزع إليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيتُ لكم سِتةً فى الشورى مثلَ ستة « عُمَر » فلم أجدْها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له مَنْ أحببتم ...

« ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات بعد أربعين يوما ، فقال بعضُ الناس : دُسَّ إليه فسُقِىَ سُمًّا ، وقال بعضُهم : طُعِنَ »[1] .

وتولاها مروانُ بن الحكم . فلم يلبث أن مات فى مستهل شهر رمضان من العام نفسه[2] .

وخلفه ابنُه « عبد الملك » بعد أن استفحل أمرُ عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمامُ العراقِ من بنى أمية .

وكاد يُفلت كذلك من أيدى الزبيريين بوثوب « المختار » بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولته انتزاعَ العراق لنفسه ، بدعوى الثأر للحسين !

وهكذا أَلْفَى « مصعب » نفسَه فى صميم المعركة ...

لكنه ظل مع ذلك يتلفت نحو الحجاز حينا ، ويُشغل بمشاغبات زوجته الحسناء « عائشة بنت طلحة » حينا آخر ، لعله ينسى أمنيته الثالثة التى لم تتحقق . . .

* * *

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٧ / ٣٤ .

ولا أدرى كيف رضى « مصعب » أن تُذاع فى الناس أخبارُ حياته الخاصة مع عائشة — إن صحت هذه الأخبار — وأن يَدع الشعراء والسمَّار يجعلون من جمالها ودلالها ومتعةِ مصعب بها ، مادةَ السمر والحديث !

ومن هذه الأخبار التى ذاعت عنه مع عائشة ، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته ، اللهم إلا أن يفسره عاملٌ نفسى جعل « مصعبا » يتلهى عن أمنيته التى لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين ، ويحاول إقناع نفسه والناس معه ، بأنه بعائشة فى شغل ! ..

أو لعل جمال عائشة ، كان مادة خصبة لمخترعات السمار وتهاويل القصاص وإضافات الرواة جيلا بعد جيل ...

من تلك الأخبار مثلا ، أن عائشة غضبت عليه يوما ، فشكا ذلك إلى أشعب — وكان مقربا إليها — فسأله أشعب : مالى إن رضيتْ عائشة ؟

أجاب مصعب : حكمك .

فقال أشعب : عشرة آلاف درهم ! ..

قال مصعب : هى لك ...

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها : جُعِلتُ فداءك ، قد علمتِ حبى لك وولائى قديما وحديثا من غير منالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضتْ تقضين بها حقى وترتهنين بها شكرى .

سألته : وما عناك ؟ ..

فأجاب : قد جعل لى الأميرُ عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه ! ..

قالت : ويحك ، لا يمكننى ذلك ...

فصاح بها : بأبى أنت ، فارضى عنه حتى يعطينى ثم عودى إلى ما عَوَّدكِ الله من سوء الخلق ! ..

قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب [١] .

ومنها : أن مصعبا دخل عليها يوما وهى نائمة متصبحة ، ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتُها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ فى حِجرها . فقالت : وهى تشيح بوجهها : نومتى كانت أحبَّ إلىَّ من هذا اللؤلؤ ! ..[٢] .

ومنها : أنه شكا مرةً إلى كاتبه أبى فروة ما يجد من شراستها ومعاسرتها إياه . فذهب إليها أبو فروة مع عبدين أسودين ، وادعى أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية ! .. فقد ظن أنها تبغضه فجُنَّ غضبة ! .. فصدقتْه (! ؟) وما زالت تلح على أبى فروة أن يعاود مصعبا ، وأقسمتْ ألا تغاضبه ![٣]

ومنها : أنها كانت يوما فى مجلسها مع جمع من نساء قريش ، فغنتها « عزة الميلاء » من شعر امرئ القيس :

وثغرٍ أغرَّ شتيتِ النبا لذيذِ المُقَبَّلِ والمُبتَسَمْ
وما ذقتُه غيرَ ظنٍّ به وبالظنِّ يَقضى عليك الحَكَمْ

وكان مصعبٌ قريبا منهن ، ومعه بعض إخوانه ، فقام منفعلا حتى دنا من الستور المسدَلَة وصاح : يا هذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ !

ثم قال لعائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عَزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود إليك .

وانتقلت عزة إلى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا ...

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ![٢] .

ومنها تلك القصة التى ذكرها الشعبى ، قال : « دخلت المسجد فإذا أنا بمصعب بن الزبير والناس حوله ، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال لى :

---

(١) الأغانى : ١١ / ١٧٧ دار الكتب .
(٢) الأغانى : ١١/ دار الكتب ١١/ ١٨٢ .
(٣) الأغانى : ١١ / ١٨١ دار الكتب .
(٢) الاغانى : ١١ / ١٨٣ دار الكتب .

اذْنُ . فدنوت حتى وضعتُ يدى على مرفقته ، ثم قال : إذا قمتُ فاتبعنى .
فجلس قليلا ثم نهض فتوجَه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته حتى دخل حجرتَه ، فرفع السجفَ فإذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجا قط أجمل منهما : مصعب وعائشة . قال مصعب : يا شعبى ، هل تعرف هذه ؟ ..
فقلت : نعم : أصلح اللّهُ الأمير ، هى سيدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة
قال : لا ، ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زِلت مِنْ ليلى لَدُنْ طرَّ شاربى ... إلى اليوم أُخفِى حبَّها وأُداجِنُ
وأحمِلُ فى ليلى لقومٍ ضغينة ... وتُحمَلُ فى ليلى علىَّ الضغائنُ

ثم أذن لى فقُمتُ . فلما كان العَشِيُّ رحتُ إلى المسجد . وإذا هو فى مجلسه هناك ، فسلمت فاستدنانى وقال : هل رأيتَ مثلَ ذلك لإنسانٍ قط ؟ قلت : لا والله . قال : أفتدرى لم أدخلناك ؟ قلت : لا . قال : لِتحدِّث بما رأيت ! ثم التفت إلى كاتبه فقال : أعطِ الشعبىَّ عشرةَ آلافِ درهم وثلاثين ثوبا . فما اصنرف يومئذ أحدٌ بمثل ما انصرفتُ به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبنظرةٍ إلى عائشة بنت طلحة »[1] .

ومنها ... ومنها

وإنه لموقف صعبُ التصديق من مثل مصعب ، أن يبتذل أخبار حياته الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل فى المروءة والنخوة . . .

ويزيده صعوبةً ، أن الرجل كما رأينا ، قد كان فى صميم المعركة التى احتدمت بين بنى أمية وآل الزبير ، بعد أن تولى « عبدُ الملك » الخلافةَ فى دمشق .

أهى إذن من إضافات السُّمَّاد ومبتدعات القصاص ؟

غير بعيد ...

* * *

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٤ / ٢١ ، الاغانى : ٢ / ٣١٠ دار الكتب .

ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات والأقاصيص ، فلا شك فى أن احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هَمِّ « مصعب » فلم يدع له وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم إلا فترات خاطفة كانت عائشة كفيلةً بأن تملأها عليه .

ثم استطاع كَرُّ الغداة ومَرُّ العشى لمدى سنين ، أن يطويا الأمنية القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسى ...

* * *

المهر الغالى

ولكن الركام انهار ...

ومن تحته بدت الرغبة المكبوتة متوهجة ، وكأن لم تزدها الأيام والليالى إلا احتداما واحتكاما ...

ذاك يوم عرف أن « سكينة » كَفّتْ عن تمسكها بالعزوفِ عن الزواج ...

ولن يدعها « مصعب » تفلت من يديه . وشد رحاله إلى « المدينة » وتقدم إلى أخيها السجاد « زين العابدين ، على بن الحسين » يطلب مصاهرته ، يرشحه لهذا الشرف : كرمُ أصله ، واكتمالُ مروءته ، وعزةُ فروسيته ...

وقبل ابنُ الحسين . . . وقبلت سكينة . . .

وطار النبأ فى أنحاء الحجاز ، أن مصعبا قدم ألف ألف درهم صداقا لبنت الحسين ...

وزاد فأعطى أخاها عليا ، حين حملها إليه ، أربعين ألف دينار ...[1]

ولم يدهش أحد لهذا ، بعد أن أصدق مصعب « عائشة بنت طلحة » ألف ألف ...

غير أن رجلًا من آل الزبير ضاق بهذا الإسراف . . .

---

(١) عيون الأخبار : ٢ / ٢٥٨ .

ذلك هو « عبد الله بن الزبير » الذى جزع لهذه الألوف المؤلفة ، تدفع مهوراً لربات الجمال ، وبنو أمية هنالك فى دمشق ، يشترون بالمال سيوف الرجال ، كيما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير ، وأخاه مصعبا ، كدأبهم مع الإمام الحسين وأبيه الإمام على ، رضى الله عنهما .

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض ، حتى حُمِلت إليه رسالةٌ من الشاعر عبد الله بن همام السلولى يقول فيها :

أَبْلِغ أميرَ المؤمنين رسالةً ... من ناصح لكَ لا يريد خداعا
مهر الفتاةِ بألف ألفٍ كامل ... وتَبِيتُ ساداتُ الجنود جياعا
ولو لأبى حَفْصٍ أقولُ مقالتى ... وأَبثُّ ما أنبأتُكُمْ لارتاعا !

قال عبد الله بن الزبير : صدق والله ، لو قيلت هذه المقالة لأبى حفص — عمر بن الخطاب — لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف .. [1]

وكان مصعب يومئذ أميراً على البصرة ، فبعث إليه أخوه ، يعزله ويستدعيه ...

* * *

متى تم زواج سكينة بمصعب ؟

ذكرت إحدى الروايات ، أنه تزوجها وهو عاملٌ لأخيه على البصرة ، ونرجح أنه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ .

ذلك لأن مصعبا كان فى سنة ٦٥ هـ ، عاملاً لأخيه على المدينة [2] . والمطمأن إليه أنه تزوج من سكينة وهو بالعراق ، وإذا صحت رواية الأغانى

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٣ ساسى .
(٢) تارخ الطبرى : ٧ / ١٤٦ .

عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة ، لَمّا أن جاءه خبرُ الصداق الغالى الذى دفعه لبنت الحسين ، فإن الزواج يكون قد تم فى عام ٦٧ هـ ، حيث كان مصعبٌ هناك واليا ...[1] .

على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه إلى البصرة والعراق ، لِماَ ظهر من تخليط ابنه « حمزة بن عبد الله » هناك . ثم ندب مصعبا لحرب المختار بالكوفة ، بعد أن ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها ، تحت قناع الثأر لسيد الشهداء .

* * *

منافِسَة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية ، ذات العشرين ربيعا ، إلى بيت زوجها مصعب بالعراق ، فى موكب حافل وجهاز فخم .

ولعلها تلبثت فترة عندما وطئت راحلتها أرض العراق ، تحدق فى ساحة الذكريات ، وتكر بها راجعةً إلى الماضى ...

على أنها حين دخلت بيتَ مصعب ، طوتْ أحزانها عند الباب ، كما اعتادت أن تفعل من قديم ، واستقبلت دنياها بوجه يتألق بِشْراً . وهنالك لقيتها « عائشةُ بنت طلحة التيمية » فى أتم زينة ، وكأنها المجلوة لعرس ! . .

وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها إلى بيت مصعب ، وهى « فاطمة بنت عبد الله بن السائب الأسدية » تزوجها مصعب لا عن رغبةٍ وحب ، ولكن بدافعٍ من مروءته وشهامته . كانت قد تزوجت من قبله ، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فلما دخل عليها طلقها وهى على منصة العرس . فأتى أبوها عبدُ الله بن السائب بن أبى حبيش ــ وكان شريفا وسيطا من سادة بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ــ إلى حلقة فى المسجد من قريش ، فيها نفر

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٦٢ .

من بنى الزبير بن العوام الأسدى فقال :

« إنى زوجتُ عبد الله بن عمرو من بنتى فاطمة ، فطلقها على منصتها ، وأنا أخاف أن يَظنَّ الناس أنه رأى سوءا ، وأنتم عمومتها . فقوموا حتى تنظروا إليها »[1]

فقال له عبد الله بن الزبير : اجلس .

ثم التفت إلى أخيه المصعب وكان جالسا فى الحلقة ، وخطب فاطمة له ، فزوجه إياها أبوها . وقال عبد الله بن الزبير لأخيه :

ـــ انطلق فادخل على أهلك [2] .

وإنما رجحنا أن تكون فاطمةُ قد سبقت سكينةَ إلى بيت مصعب ، لأنها وَلدتْ له ولدين هما : عيسى وعكاشة ابنا مصعب ، وقد شهد عيسى موقعة مَسْكَن التى قُتِلَ فيها مُصعب عامَ ٧٠ هـ وكان القوم عَرَضوا على عيسى الأمانَ ، فأبى إلا أن يُقتَل مع أبيه . وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم :

نحن قتلنا مصعباً وعيسى ... وكم قتلنا قبله رئيسا
عَمْداً أذقنا مُضَرَ التأييسا[3]

وبعيدٌ أن يكون قد شهد الموقعة طفلا ، بل الغالب أن أباه مصعبا قد تزوج من فاطمة أم عيسى ، قبل مقتل الإمام الحسين بزمن لا نحدد مداه ..

على أن سكينة ما كانت لتهتم بفاطمة ، وإنها لتعلم الظروف التى ألجأت مصعبا إلى الزواج منها .

وإنما حسبها أن تهتم بالضرة الأخرى : عائشة بنت طلحة ، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة ، والغريمة التى تستحق أن يُحسب لها حساب !

* * *

---

(١) يلتقى نسب فاطمة مع آل الزبير ، عند أسد بن عبد العزى بن قصى . راجع الجمهرة (١٠٩) ونسب قريش : ٢٢٨ وما بعدها .

(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٠٩ ، ونسب قريش : ٢٢١ . (٣) نسب قريش : ٢٤٩ .

وفى بيت مصعب ، بدأت سكينة عهدا جديدا من حياتها ، بدت فيه كما لو كانت نسيت كل ما ذاقت من نكبات ، وما روَّع صباها من فوادح الخطوب وصعب المحن .

والحق أنها ما نسيت ، لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها ، وألا تُرِى الناسَ إلا تجملا .

وإذا كان هذا دأبها فيما مضى من حياتها ، فإنها اليوم أحوجُ إلى مزيد من التجمل ، وهى ترى ضرتها عائشة بنت طلحة ، لا تدع وسيلةً إلا سلكتها فى مجال التنافس والتحدى .

وما كان أقوى شعورِ عائشة بجمالها ، واعتزازِها بفتنتها ، وتفننها فى إبراز مواضع الحسن فيها ، ولو كلفها ذلك أن تخرج على العُرْفِ أو تتخلى عن حياء الأنثى !

وقد مر بنا الخبر عن استجابتها « لعزة الميلاء » حين أحبت أن تراها عارية ، لَمّا أراد مصعب خطبتها . وفى الأغانى [1] أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها فى سفورها وحاول أن يردها إلى الحجاب ، فكان جوابها :

« إن الله تبارك وتعالى وسَمنى بميسم جمالٍ أحببتُ أن يراه الناسُ ويعرفوا فضلَه عليهم ، فما كنت لأستره ! .. ووالَّلهِ ما فىَّ وصمةٌ يقدرُ أن يذكرنى بها أحد ...» .

وطالت مراودة مصعب إياها فى ذلك على غير طائل ..

* * *

وعائشة قد سبقت سكينةَ إلى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفتنتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزيةً ربما لم تتح لسكينة التى قضت

---

(١) أخبار عائشة بنت طلحة ، فى الجزء ١١ ط دار الكتب .

مرحلة الصبا الغض فى البيت النبوى ، وما كانت لتستطيع ــ بحكم بيئتها ووراثتها ــ أن تتقن فنون الإغراء أو تتخلى لأى سببٍ عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تُجارِىَ عائشةَ فى أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وإنما لاذت بعزة ملاحتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبُها النبوى من سنا وضَّاء ، وبهاء ما بعده بهاء .

* * *

سكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئاً عن حياة سكينة مع مصعب ، مع أنهم الذين ملأوا الأسماع بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ...

لماذا ؟ ..

لست أميل إلى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينة مع مصعب ، طويت عمدا أو عن إهمال وضياع . فالأخباريون فى تلك الفترة كانوا أجنح إلى التزيد من صنع الأخبار . ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينة ومصعب قد خرجت إلى الناس وعُرضت على أعينهم ، لما سكت الرواة عن ذكرها ، بل لما تحرجوا من الخوض فيها والإضافة إليها . وقد رأيناهم يعرضون « عائشة » وهى زوجة وأم ، مجردةً من ثيابها أمام هذه أو تلك من النساء ، ورأيناهم يقتحمون بأخبارهم مخدعَها وهى مع زوجها ، دون تحرّج أو تأثم . ونحن لم نورد من هذه الأخبار إلا القليل ، وأمسكنا عن نقل الباقى لأنه ليس مما يجوز أن يجرى على قلم مثلى . ومن شاء فليرجع إلى أخبار عائشة فى (كتاب الأغانى) ليرى إلى أى حد كانت أخص شئونها الزوجية ، مادة للأخباريين .

فلا سبيل إلى القول إذن ، بأنهم تناولوا جانبا من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب ... لا سبيل إلى الظن بأنهم ــ وقد دخلوا بيتَ الرجل ــ شُغلوا بإحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها ، بل يحصون عليها أنفاسها ، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها ...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار ، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكينة مع مصعب ، لأنها بنت الحسين !.. ولكن يحول بيننا وبين هذا ، أنهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة ، بعضُها مما لا يُقبل من مثلها ولا يهون تصوُّرُ صدوره عنها ، ولم تَحُل بنوتُها للحسين ، ومكانها فى بيت النبوة ، دون ملء الصفحات بهاتيك الأخبار ، بل لم يعصمها هذا النسبُ العالى ، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين ..[1] .

وإنما سكتوا ، لأن « سكينة » فيما نرجح ، لم تصطنع أساليب عائشة بنت طلحة ، ولم تُغَذِّ الرواةَ بمادة خصبه من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرتها .

ولدينا على هذا شاهدٌ من نصٍّ أورده « أبو الفرج » فى ترجمة « مصعب » قال : انه لما دخل عليها يودعها وقد تهيأ للخروج لقتال عبد الملك ، صاحت من خلفه :

ـــ وا حزناه عليك يا مصعب !

فالتفت إليها وسألها : أَوَ كلُّ هذا لى عندك ؟ ..

قالت : إى والله ، وما كنت أخفى أكثر[2] .

وهو نص يفسر لنا بوضوح ، لِمَ لَمْ تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة الأخباريين والرواة ، فضلا عن دلالته على اتزانها العاطفى ، وضبطها لأمرها ، تجاهَ ما كانت « عائشة » تكشف عنه من أسرار زوجيتها .

كان لكل منهما سلاحها الخاص فى تنافسهما على قلب الرجل الذى أحبته كلتاهما أصدق الحب : فأولاهما تثيره بفتنة دلالها وأنوثتها ، وترهقه صدّاً وقربا ، جفوة وإقبالا ، وتبتذل له حينا بكل ما تملك من تفنن وإغراء ، أو على حدِّ تعبيرها ، بكلِّ ما قدرت عليه[3] ، ثم تصارمه حينا حتى تجهده .

---

(١) نعرض لهذا ، فى الحديث عن « سكينة فى المجتمع » فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .
(٢) الاغانى : ١٨ / ١١٦ ساسى .
(٣) الاغانى : ١٠ / ٥٥ ساسى .

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من ظرف آسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ .

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها . وربما تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الإغراء ، وأسكتتها سكينة باللقب الذى كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين [1] .

وربما اختصمتا إلى حكم بينهما ، فيتخلص من حرج الموقف بقوله :

ـــ أما أنت يا سكينة فأمْلَحُ منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل ! [2] .

* * *

السِّـرُّ المـذَاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية إلا قليلا ، فإن الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا ضاريا . وقد كان وجود مصعب فى العراق عقبة كأداء لا سبيل إلى حسم الصراع ما بقيتْ هناك .

وقد صكت مسامعَ الأمويين مدائحُ الشعراء فى مصعب ، ومنهم عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ يقول :[3]

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ... تجلَّت عن وجهه الظلماء

مُلْكُه مُلْكُ قوةٍ ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء

يتقى الله فى الأمور وقد أفلح ... من كان هَمّه الاتقاء

وفى الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال : « أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يُستضاء به ، فأتعلق بأطرافك وأقول : أى ربِّ ، سَلْ مصعبا فيم قتلنى ؟ ! » .

(١ ، ٢) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ .

(٣) عيون الأخبار : ٢ / ١٠٣ .

فأمر مصعب بإطلاقه ، فقال : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض .

فأمر بإعطائه مائة ألف ، فقال الرجل :

ـــ بأبى أنت وأمى ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً .

قال مصعب : و لم ؟

فأجاب : لأنه قال فيك :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلّتْ عن وجهه الظلماء

وأنشد بقيةَ الأبيات(١) .

....

من ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمر ، قبل أن يفكروا فى القضاء على رأس الزبيريين العائذ بالحرم .

وقد طالت المعركة بين عبد المللك بن مروان ومصعب بين الزبير ، أعواما ذات عدد ، قبل أن تصل إلى نهاية حاسمة . وتكررت محاولات عبد الملك ، فى الخروج إلى العراق ثم الإياب إلى الشام من غير أن يصل إلى غريمه . ففى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٧١ هـ) أن عبد الله كان يخرج من دمشق صيفا بعد صيف ، حتى « بطنان حبيب » ويخرج مصعبٌ من العراق للقائه فيعسكر فى « باجميرا » ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتاء فيرجع كل منهما إلى موضعه ، ثم يعودان فى الصيف وهكذا ... (٢)

وهمَّ عبد الملك ، فى سنة ٧٠ هـ بقتال مصعب ، ثم اكتفى بأن وجه إليه جيشا عليه خالدُ بن عبد الله ، التقى بجيشٍ لمصعب فى البصرة ، ثم انثنى إلى عبد الملك مهزوما ...

---

(١) عيون الأنباء : ٢ / ١٠٣ وانظر سمط اللآلى للبكرى ٦ / ٢٩٤ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨١ .

عندئذٍ صمَّم عبد الملك على أن يضع حدا لهذه المعركة التى طالت حتى أضجرت . وخطب الناس فى الشام ، ليسيروا معه إلى مصعب .

قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب : هلا أقمتَ هنا وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا بعثت إليهم بالمدد ؟

ردَّ عبد الملك : إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى ، ولعلِّى أبعث مَنْ له شجاعةٌ ولا رأىَ له . وإنى أجد فى نفسى بصَراً بالحرب وشجاعة بالسيف إن أُلجئتُ إلى ذلك . ومصعبٌ فى بيتِ شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع لكنه يحب الخَفض ، ومعه من يخالفه ومعى مَن ينصح لى [1] .

وانفض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير إلى مصعب .

ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما ودع أهله وهم بالركوب ، قامت إليه زوجته « عاتكة بنت يزيد بن معاوية » فأعادت الرجاء والتوسل :

ـــ يا أمير المؤمنين ، لو أقمتَ وبعثت إليه لكان الرأى .

فردَّ معتذرا ، مصمما : « ما إلى ذلك من سبيل » .

فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فَعَلا نشيجُها . وعند ذاك رجع إليها فقال وهو يتجمل :

ـــ وأنت ممن يبكى ! قاتل الله « كُثَيِّراً » ! كأنه كان يرى يومَنا هذا حيث يقول :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ همَّه   حَصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نهتْه فَلمّا لم تَر النهْىَ عاقَه   بكتْ فبكَى مما شَجَاها قَطِينُها

ثم عزم عليها بالسكوت [2] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٥ .
(٢) أمالى القالى ـــ انظر سمط اللآلى : ١ / ١٤ ، والاغانى : ٩ / ٢١ساسى .

وانطلق إلى العراق حتى عسكر فى « مسكن » .

وسار له مصعب حتى عسكر فى « باجميرا » .

وكانت رسل عبد الملك قد سبقته إلى الكوفة وغيرها ، ونفذت إلى نفوس القوم هناك بالأموال والأمانى .

وشرط عليه رؤساءُ المروانية بالعراق ولايةَ أصبهان ، فوعدهم جميعا بها ![1] .

فما دنا اللقاء ، إلا وعبدُ الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن مصعب أنهم خاذلوه ...

ولم يفكر مع ذلك فى النكوص ...

وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينة ، وجمت لحظة ، وقد طاف بخاطرها طائفٌ من الأمس البعيد .

وحملتها الذكرى إلى كربلاء ، فساوَرَها دُوَار مُنهِك ، فبادر إليها مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له فى تلك اللحظة ، طيفُ أبيها الإمام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

ــ ما ترك أبوكِ يا سكينة لابنِ حُرَّةٍ عُذْرًا ...

ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه إلى الباب .

فصاحت من خلفه : « واحزناه عليك يا مصعب ! » .

وفاجأته صيحتها ، فرجع إليها وسألها فى لهفة وعجب :

ــ أكان كل هذا لى ، فى قلبك ؟

أجابت : « أجل يا مصعب ، وما كنتُ أخفى أكثر ... »

فرنا إليها مَلِيّاً ، ثم قال فى رِقّة وشجو :

ــ لو كنت أعلم ، لكان لى ولك يا سكينة شأن آخر ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨١ .

ومضى إلى الميدان وهو يقول :

وإن الألى بالطّفّ من آلِ هاشم تآسَوْا فسَنُّوا للكرام التآسِيَا !

* * *

مصـــرع بطـــل

وظل يردد البيت حتى أشرف على ساحة القتال ، فإذا جنده من أهل الكوفة قد نكصوا عنه خاذلين ، وإذا عبدُ الملك هناك فى جيش لجب .

وتصفح مصعب مَنْ بقى حوله ، يمينًا وشمالًا ، فوقعتْ عيناه على عروة بن المغيرة بن شعبة ، فناداه : « يا عروة ! » .

فلما دنا منه سأله :

ــ أخبرنى عن الحسين بن على ، كيف صنع بإبائه النزولَ على حُكم ابن زياد وعزمِه على الحرب ! ؟[1] .

هنالك علم الناس أن مصعبا لن يريم حتى يُقْتَل ..

وتقدم يواجه مصيره مستبسلا .

فبعث إليه عبد الملك مع أخيه محمد بن مروان يقول : إن ابن عمك يعطيك الأمان ..

أجاب من فوره ، وطيفُ الحسين يملأ عينيه :

ــ إن مثلى لا ينصرف عن مثلِ هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا .

ونادى محمد بن مروان « عيسى بنَ مصعب » وكان ملازما أباه :

ــ يا ابن أخى ، لا تقتل نفسك ... لك الأمانُ ...

وعقب مصعب ، دون أن ينظر إلى ولده :

ــ قد أمَّنك عمُّك ، فامض إليه .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٤ .

قال عيسى : « لا تتحدثْ نساءُ قريش أنى أسلمتُكَ للقتلِ» .

فنظر إليه أبوه مَلِيّاً ثم قال :

« فتقدمْ بين يدىَّ ، أحتسبك » .

فقاتل عيسى بين يدى أبيه حتى قُتِل[1] .

وأُثْخِن مصعبٌ بالرمى ، ثم شدَّ عليه زائدةُ بنُ قدامةَ فطعنه وهو يصيح : يا لَثَاراتِ المختار !

ونزل إليه عبيدُ الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتزّ رأسه وحملها إلى عبد الملك .
قال عبدُ الملك وهو يطيل النظر إلى وجه مصعب مضرجاً بالدم :

« متى تغذو قريش مثلك ؟ »[2] .
ثم التفت إلى مَن حوله فسألهم : « مَن أشجعُ الناسِ ؟ » .
فذكروا اسمَه ، وأسماءَ عددٍ من الأبطال الشجعان . لكنه أسكتهم بقوله :

« أشجع الناس مصعب بن الزبير : جمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ... وَوَلِيَ العِراقين ، ثم زحف إلى الحرب فبذلتُ له الأمان والحِبَاء والولايةَ والعفو عما خلص فى يده ، فأبى قبولَ ذلك ، واطرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراءَ ظهره ، وأقبل بسيفه قرما يُقاتل ، ما بقى معه إلا سبعة نفر ، حتى قُتِلَ كريما ... » .

وتجاوبت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيد الله بن قيس الرقيات يرثى مصعبا ويذكر خذلان مَن فى العراق من بكر وتميم:[1]

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٦ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٧ .
وانظر كلمة عبد الله بن الزبير فى أخيه مصعب حين بلغه نبأ مقتله ، فى : الطبرى ٧ / ١٩٠ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة٢ / ٢٤٠ .

لقد أَوْرَثَ المِصريْنِ خِزْياً وذِلّةً قتيلٌ بديْرِ الجاثليق مقيمُ
فما نَصَحَتْ لله بكرُ بنُ وائل ولا صبرتْ عند اللقاءِ تميمُ
ولو كان بَكريّاً تعطّفَ حولَه كتائِبُ يَغْلِى حمْيُها ويدومُ
ولكنه ضاع الذمامُ ولم يكن بها مُضَرِيٌّ يومَذاك كريمُ

* * *

الأرملة المقهورة

وفى قصر الإمارة بالكوفة ، وقفت أرملتُه سكينة بنت سيد الشهداء ، يكاد يتلفها القهرُ والغيظ .

ولم يكن الحزن جديدا عليها ، فمن قبل مصعب بلت الحزنَ الأكبر يومَ كربلاء ، ومصعبٌ قد لقى مصرعه النبيل مختارا ، ومات الميتةَ التى تليق بفارس شهم كريم مثله ...

إنما كان غيظُها من غدر الذين خانوه ، هو الذى يفرى كبدها !

ويحهم ! ما أفدح الذى لقيت سكينة منهم ! غدروا بجدِّها الإمام ، ثم أيتموها صغيرةً ، ثم أرملوها شابةً !

وإنها مع ذلك لَتَتَمَاسك حين وفد عليها المعزون من أهل الكوفة ، يسألونها الصبرَ الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى إذا فرغوا مما أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها ، وقد جَفَّ دمعها ، ثم قالت فى تؤدة :

« الله يعلم أنى أبغضكم ! قتلتم جدى عليا وقتلتم أبى الحسين ، وزوجى مصعبا ، فبأىِّ وجهٍ تلقَوننى ؟ أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة »[1].

وانصرفت ...

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منها بالذى كان ، وما تُظِلُّ السماء أدنى منها إلى اليأس ...

* * *

(١) عيون الأخبار : ٢ / ٦١٢ .

هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصيه الراحل ؟

فى (طبقات ابن سعد) أنها ولدت لمصعب فاطمة . وفى خبر بالأغانى ، أنها ولدتْ من مصعب ابنةً آيةً فى الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينة سمّتْها « الرباب » باسم أمها[1] . فلما قُتل مصعب ، وَلِىَ أخوه عُروةُ أمرَها ، فزوجها ابنَه عثمان بنَ عروة ، فماتت وهى صغيرة .

ونقل صاحب الأغانى روايةً عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبد الله بن سالم : أن السيدة سكينة لقيتْها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لِتُريها بنتها من مصعب ، وإذا هى قد أثقلتْها بالحلىِّ واللؤلؤ ، وقالت :

ــ ما ألبستُها الدرَّ إلا لتفضحه !

ثم أتبعها أبو الفرج ، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبيد الله . أن سكينة أرتها بنتَها من الحِزامى ، وقد أثقلتْها بالحلى وقالت : والله ما ألبستها إياه إلا لتفضحه [2] .

وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيدُ بن صخر ، شعيبَ بن صخر .

وصارت أمه سعيدةُ بنت عبد الله بن سالم ، سعدةَ بنت عبيد الله . كما صارت بنتُ مصعب ، بنتَ الحِزامى !

ولا مجال للاطمئنان إلى خبرٍ عبث به الرواةُ ، أو النساخ والنقلة ، على هذا النحو ، وليس فى مراجعنا الأخيرة ما يعين على ترجيح .

« المصعب الزبيرى » لم يشر إلى هذه البنت فى (نسب قريش) ، وكذلك

---

(١) نضيف أن أم مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن بن عبيد ، من بنى جناب الكلبى (نسب قريش : ٢٣٦) .

(٢) مثلها فى عيون الأخبار : ٤ / ٢٥ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينة .

لم يشر إليها « الطبرى » ولا « ابن حزم » فى جمهرة الأنساب ولا « ابن خلكان » فى وفيات الأعيان .

فالعجب أن (دائرة المعارف) ذكرت فى الترجمة العربية أن سكينة لما تزوجها مصعب « أنجبا من هذا الزواج ابنة سمتها سكينة باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من أخى مصعب ، وتوفيت فى سن مبكرة » .

ولم تذكر الدائرة مرجعها فى هذا ، وأرجح أنها نقلته عن (الأغانى) مع تحريف فى النقل ، جعل بنتَ مصعب تتزوج من عَمِّها أخى مصعب !..

* * *

مَع إبراهِيم بن عبد الرحمن
بن عـوف الزهـرى

عزلة لم تَطُلْ

ظنت ، وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخرُ عهدِها بدنياهم ، وأنها سوف تنطوى على يأسها فى عزلة تجتر ما طفحت به كأسُها من أحزانٍ وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين ...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفى حسابهم أنها فرغت من الدنيا ، فما عاد لديها ما يُلتمس من الأخبار . وشُغِلوا بتلك الأخرى « عائشة بنت طلحة » بعد انقضاء الحدادِ على مصعب ، فتقدم إليها خُطاب منهم بشرُ بن مروان الذى بعث إليها « عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى »[1] يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون ناقمة عليه أخوته لعبد الملك قاتل مصعب ، فلما حدثها عمرُ برغبة بشر ، قالت :

ـــ أما وجَدَ بشرٌ رسولاً إلى ابنةِ عمك غيرَك ؟ فأين بكَ عن نفسِك ؟

سألها فى لهفة : أو تفعلين ؟

أجابت ضاحكة : نعم .

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى جديدا من أخبار علاقتها الزوجية بعمر ، وأسرار حياتها الخاصة معه[1] .

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر ، ويئسوا من التماس جديدٍ عند « سكينة » .

---

(١) أمير فارس ، انظر (جمهرة أنساب العرب : ١٣٠) .

(٢) (الاغانى : ١١ / ١٨٣ وما بعدها . ط دار الكتب .

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء ، تخرج عن عزلتها وتُقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجهٍ ضحوك ومزاجٍ مرح !

وقيل فيما قيل : إن حيويتها الفياضة وشبابها الذى اكتمل وقتئذ ونضج ، قد غلبا عواملَ اليأس ودواعِى القنوط ، فلم تستطع ، وهى أنثى فى أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزةِ جمالها وشرفِ موضعها ، أن تنزوى طويلا فى عزلة عن الدنيا والناس .

لكنى أكاد أطمئن إلى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها ، كانت منطوية على يأسٍ فادح ، بلغ فى أعماقها أقسى مداه ، فصار إلى سخرية مريرة ، هى التى احتكمت فى الطور الثانى من حياتها احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضدّه ، والتبس عند الأكثرين بالرغبة فى مسراتِ الحياة ، بعد الذى ذاقته من مُرِّ أحزانها .

* * *

وهنا ، لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة ، اليتيمة والأرملة ، قبل أن تلقانا فى حياتها الجديدة على ما تُصورها لنا الأخبار والروايات ، مسرفةً فى الإقبال على الدنيا بنفسٍ متفتحة لم ينل منها حزنٌ ولا ساورتْها ذكرى المشاهد الأليمة التى مرت بها .

أجل ، لا بد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا « سكينة » فى أخبارها تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا . وتشارك فى الدنيا أعنف مشاركة ، وتظهر فى المجتمع طليقة متحررة .

وقد تعجلتُ الرأىَ آنفا ، فقلت إننى أكاد أطمئن إلى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها كانت فى إقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأنى أجردها من أهواء البشرية ، لكنا حين نحتكم إلى سنن الفطرة وطبيعة الإنسان ، ننكر أن تلاقى سيدةٌ مثلَ الذى لاقت بنتُ الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالى ، ثم تستطيع — بحال ما — أن تنسى كلَّ الذى لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل إنه لمما يشبه المحال عندى ، أن تقوى أنثى ، بالغة ما بلغت إرادةُ الحياة عندها ، أن تنسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به ببعيد ، وأن تنحّى عنها أطياف مَن ملأوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها من ذلك الماضى ، ولا صلة لها بهمومه ومآسيه .

وعلماء النفس اطمأنوا إلى أن للنفس البشرية حافظة واعية تختزن كل ما يمر بها من أحداث ، وتحتفظ بها على تطاول العهد بها وبُعد المدى ، وتظل تؤثر فى سلوك المرء مهما تقوَ إرادتهُ على التخلص منها ، بل مهما يغلب على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت فى غيابة النسيان ...

وما كان الذى لاقته بنت الحسين بالذى يُنسى ، ولا كان الزمن قد تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة فى كربلاء فى مستهل عام ٦١ هـ . ثم مصرع زوجها الحبيب الفارس النبيل ، « مصعب بن الزبير » بعد عشر سنين ، وهو يتأسى بالحسين ويقول لابنته : ما ترك أبوكِ لابنِ حُرَّةٍ عُذرا ...

فهل شذت سكينة على الطبيعة البشرية وخرجت على المألوف من الفطرة السوية ، بنسيانها كلَّ ما كان ، وإقبالها على الدنيا بنفس متفتحة لا يُلم بها طيفُ عزيزٍ رحل ، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذى فات ؟

كلا ، لم تشذ سكينة ، وإنما الأقرب إلى الاحتمال أنها ملّت كبريات المشاغل إلى حد الزهد ، ويئست من دنياها إلى حد الإغراق فى الاستهانة بها وعدم المبالاة !

وإنها لمعذورة ، فمِثْلُ هذه الدنيا ، كما بَلتْها سكينة ، غيرُ جديرة بأن يؤسَى عليها ، بل إنها لأهْوَنُ على بنتِ الحسين من دمعةٍ تُسكَبُ أو آهةٍ تلفظ !

* * *

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

جلبــة فى الــدار

وليس أدلَّ على هوانِ الدنيا لديها بعد مصعب ، من الخبر اللافت الذى نقله صاحب الأغانى معلِّلاً به قبولَها للزواج بعد تمنع ، قال : « تنفست يوما بُنَانَة ــ جارية سكينة ــ وتنهدتْ حتى كادت أضلاعُها تنشق . فقالت لها سكينة : مالك ؟ ويلك ! قالت : أُحِبُّ أن أرى فى الدار جَلَبَةً ــ تعنى العُرْس ...

« فدعت سكينة مولى لها تثق به ، وقالت له : اذهب إلى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فقل له : إن الذى دفعناك عنه ، قد بدا لنا فيه . ائتِ أخوالَ رسول الله ﷺ فاخطبْ سكينة »[1] . وفى رواية « ابن سعد » أنها ولّته أمرها !

وابراهيمُ بن عبد الرحمن بن عوف ، من بنى الحارث بن زهرة بن كلاب [2] .

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردَّته فى غيرِ رفق ، وبعثتْ إليه قائلة :

ــ أبلغ من حُمقك أن تبعث إلى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيمُ عن ذلك ، حتى إذا جاءه رسولُها أنها قد غيّرتْ رأيها فيه وولَّته أمرها ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال بنى زهرة وأعيان قريش ، واتجه بهم فى جمعٍ حافل مشهود ، ساعيا إلى « على بن الحسين » ليخطب إليه أخته سكينة . أو ليُشهده عليها !

وْذاعت القصة فى المدينة والوفدُ لما يزل فى طريقه إلى البيت الهاشمى ، فما كان خروجُ ابراهيم فى موكبٍ كهذا عِدَّتهُ سبعون أو ثمانون رجلا ــ فيما أحصت الرواية ــ بالذى يمضى دون أن يلفت إليه الأنظار ويستثير الفضول .

(١) الأغانى : ١٦٢/١٤ ساسى . يقابل على (طبقات ابن سعد ٤٧٥/٨) .

(٢) نسب قريش : ٢٦٦ .

وعرف الناسُ أن إبراهيم ما جمع هذا الحشدَ إلا لكى يعلن خطبته للسيدة سكينة وليًّا عنها . وبلغت الشائعة دور بنى هاشم فاسترابوا فيها أول الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن تكون السيدة « سكينة بنت الإمام الحسين » قد ولَّت ابراهيم أمرها ! . . .

وتنادَوا ، حتى إذا اجتمعوا قال قائلهم :

ـــ لا يخرجَنَّ منكم إنسانٌ إلا ومعه عصا ![١]

وهناك عند بيت سكينة ، التقى الجمعان مغضَبين ثائرين :

بنو هاشم وقد أنكروا على ابراهيم ، التطلع إلى بنت الإمام الحسين .

وبنو زهرة ، وقد أنكروا أن يهون ابراهيمُ عند بنى هاشم إلى ذلك الحد ، وإنه لمن صميم الزهريين ، آل آمنة بنت وهب ، أم النبى ﷺ !

وإن أباه عبد الرحمن ، لصاحِبُ الشورى عند الرسول ، وأحد العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاةُ والسلام بالجنة [١] .

وإن أمه « أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية » لمن المهاجرات المبايعات ، خرجت إلى النبى ﷺ فى هدنة الحديبية ، فطلبها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ، وكانا لا يزالان على الكفر . وقدما المدينة يستردانها كشرطِ الحديبية[٢] ، فقالت فى ضراعة :

ـــ يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أتردنى إلى الكفار ، فيستحلوا حرامى ويفتنونى عن دينى ؟

وفيها ، وفى المهاجرات فى هدنة الحديبية نزلت آية (الممتحنة) :

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

(٢) ابن حجر : الاصابه ـــ رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥ .

(٣) كان مقتضى هذا الشرط لقريش : ان من جاء المسلمين من قريش ، بغير إذن وليه ، ردّوه اليهم . وارجع إلى صلح الحديبية فى الصحيحين ، وفى السيرة النبوية مع ترجمة أم كلثوم رضى الله عنها فى الاصابة ، ونسب قريش : ١٤٥ ، ٢٦٦ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ ... فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ... ﴾ الآية ١٠ .

ولم يردها ﷺ إلى الكفار ...

* * *

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين ، وتضاربوا ، فأصيب منهم يومئذ أكثرُ من مائة إنسان ، قبل أن ينفض العراك ...

وصاح الهاشميون : أين سكينة ؟

فأنبئوا بموضعها ، وانطلقوا إلى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التى شبتها ، فى فضول المتفرج وسخرية العابث !

صاحوا بها : أبلغ بك الأمر أن تصنعى هذا ؟

فالتفتت سكينة إلى مولاتها بنانة ، وسألتها ، وما تفارق الابتسامة ثغرها : « أى بنانة ، أرأيتِ فى الدار جلبة ؟ » .

أجابت وهى لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر :

ــ إى والله يا سيدتى ، إلا أنها شديدة ![1] .

وأبت « سكينة » بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم ، حين تُرِك لها الخيارُ فيه .

فى (طبقات ابن سعد) أن ابراهيم تزوجها لما ولَّته نفسها « فأقامت معه ثلاثة أشهر فكتب هشام بن عبد الملك إلى واليه بالمدينة : أنْ فرّقْ بينهما . ففرَّق بينهما . »

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

نقلته الدائرة وعقبت عليه بقولها : « وهذا شيء بعيدُ الاحتمال » دون أن تحدد الشيء المشار إليه ، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال .

وأغلبُ الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك ! وإنه فعلا لشيء بعيد الاحتمال إن لم يكن من المحال ! ذلك لأن هشاما ولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٢٥هـ عن ٥٤ سنة ، وقيل كان ابنَ ٥٥ سنة أو ٥٢ سنة وهما روايتان فى الطَبرى[1] .

أى أنه لم يكن قد وُلِدَ بعدُ حين قتل مُصعب سنةِ إحدى وسبعين وترملت سكينة ، أو لعله كان وليدا فى المهد إذا أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٢ سنة !

فأنّى ، وكيف ، تدخل فى مسألة زواج سكينة من ابراهيم ، بعد أن قُتِل عنها مصعب ! ؟

وأما حكاية خطبة ابراهيم للسيدة سكينة بإيعاز منها ، ثم رفضها الزواج منه بعد الذى كان من عراك بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فليست بعيدة الاحتمال .

وإن لم أستبعد كذلك أن تكون من إضافات السمار ، أغراهم بها ما عرفوا من ميل سكينة إلى الدعابة ، وإنها لدعابة قد يرى ناسٌ فيها لونًا من المرح ، على حين نراها دعابة مُرَّة قاسية : فهذه الشريفة الحسناء ، يخطبها من لا تراه كفئا لها ، فترده بعبارة تنطق بإبائها واعتزازها بنسبها العالى ، ثم لا تكاد تسمع تنهد « بنانة » واشتياقها إلى جلَبة الفرح ، وضيقها بوجوم البيت وسكونه ، حتى تثور فى أعماقها ذكرياتُ ما لقى آلها الأكرمون من اضطهاد . . . وحتى تستحضر مصارع الشهداء من رجالها . ومرأى أشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يُصَدُّ عنها سَبُعٌ ولا وحش ! ؟

(١) تاريخ الطبرى : ٨ / ٢٨٣ ، ٢٨٨ وانظر معه شذرات الذهب : ١ /١٦٣ .

قتلوا جميعا فى يوم واحد ، بسيوف قوم يدينون بدين محمد ، ويشهدون أنه رسول الله .

وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب ، وقد خذله جنده وباعه أنصاره بثمن بخس ، دراهم معدودات ، ومواعيد عرقوبية كاذبة ؟

فهل من عجب أن تهزأ السيدة سكينة ، بنت الشهيد ، وأرملة مصعب ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قِيَمٍ يقدسها باللفظ ويخونها بالفعل ؟..

وأى شيء هو أبلغ فى الهزء بالنفاق الاجتماعى ، من أن تغرى بخطبتها من ردَّته بالأمس خائبا ؟... أى شيء هو أبلغ فى السخرية بالعرف السائد فى مجتمع الأشراف من قريش ، من أن ترجع سكينة عن قرارها الأول ، لمجرد إرضاء رغبة عارضة من جاريتها « بنانة » فى أن ترى فى البيت جلبة عرس ؟ ! ... ثم تكون ، بنت الحسين وحفيدة الزهراء ، هى هى التى تبعث مولى لها إلى ابراهيم بن عبد الرحمن ، لتعلنه بأنها ولَّته نفسها ورضيته زوجًا ؟ ! . . .

* * *

وجلست تتفرج على المشهد الذى ألّفته ورسمت خطتَه وعيّنتْ مسرحه واختارت أشخاصه !...

وطاب لها أن تصغى إلى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها وآل ابراهيم الزهرى ، تمخضت عن مائة مشجوج ، فيما أحصت الرواية ، وعن ضحية أخرى فوق المائة : الخاطب المسكين الذى باء بالحسرة والهوان ؟ !...

وما تكون تلك الضحايا ، أمام عشرات الألوف من المسلمين الذين قتلوا فى مجازر الفتنة الحالقة ، فى مواقع الجمل ، وصفين ، وكربلاء ، ومعارك التوابين والخوارج ، والصراع بين الأمويين والهاشميين ثم بينهم وبين الزبيريين من بعدهم ؟ . . .

بل ما تكون هذه الضحايا بالقياس إلى مصرع الحسين وحده ، رضى الله عنه ؟ !

وأى شىء هذه الضجة ، بالقياس إلى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة « مسكن » التى قُتِل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قريش ؟ ..

الله ... الله ! ... لقد طابت الحياة لقريش بعد كل هذا الذى كان ، فلا ضير عليهم فى أن يحتملوا مائةَ مشجوج ، نظير التفرج على مشهد ساخر فَكِهٍ طريف ، من إخراج بنت الإمام الشهيد ، أرملة مصعب بن الزبير ! ...

أو فلتضف هذه الخدوش الهينة ، إلى رصيدها الضخم من صَرعى الفتنة ، وضحايا البغى والعقوق ، والغدر ، والنفاق ...

* * *

مع الأصبغ المروانى

ونتبع السيدة سكينة إذ تمضى بها الحياة فى الخضم الكبير ، بعد أن سكنت الضجة التى ثارت بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فإذا معالم الطريق تغمض أمامنا وتتوه ، حتى ما ندرى أى طريق سلكت بنتُ الحسين ، بعد الذى كان ...

مـوتى يُبـعَـثـون !

ثمة خبر يقول : إن « عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب ، فقالت أمها : لا والله لا تتزوجه أبدا وقد قَتَل ابن أخى ــ تعنى مصعبا »[1]

ولا حاجة بنا إلى توهين الخبر بأن عبدَ الله لم يَقتل مصعبا ، وبأن الأخوة المدعاة بين الرباب والزبير أبى مصعب ــ فى قول الرباب : وقد قتل ابن أخى ــ لا تعدو التقاءً فى الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه : الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبى[2] .

والجد الرابع للرباب أم سكينة من ناحية الأب : امرئ القيس بن عدى بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم[3] .

أجل ، لا حاجة بنا إلى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفى أن نقول إن الرباب ، أم سكينة ، ماتت فى سنة ٦٢ هـ حزنا على زوجها الحسين ، بعد عام من مصرعه فى كربلاء[4] ، وغير معقول أن تُبعَث من قبرها لتظهر

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .
(٢) نسب قريش : ٢٣٦ ــ وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧ .
(٣) نسب قريش : ٥٩ ــ وجمهرة أنساب العرب ٤٢٧ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٧٣ .

على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين ، فترفض أن تتزوج بنتها سكينة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان ! ...

* * *

زواج لم يتم :

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم !...

ذلك هو زواجها بالأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أخى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

قيل إنه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلتْ بعد تردد وتمنع .

كان وقتئذ واليا على مصر ، لعمه عبد الملك . فلما استدعاها ، أبدت خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الإصبغ » وأرسل إليها بالمدينة أنه قد هيأ لها أطيب مقام .

وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكينة ، وإنما من عمه عبد الملك الذى كتب إليه يخيره بين إحدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج من بنت الإمام الحسين [٢] .

فاستجاب الأصبغ لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل إليه بطلاقها ، قبل أن يدخل بها .

وأما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول رواية : إنه نَفِس عليه بها .

وتقول أخرى : إنه غضب لكثرة ما أنفق الأصبغ عليها من مال ، فقال : ما نزوجها أخانا حتى نزوجها مالنا .

والروايتان ، كلتاهما ، فى (الأغانى) وإذا كان لنا أن نختار ، فالأولى عندنا أَوْلى .

وبقى الأصبغ فى مصر محزونا ...

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ .

وبقيت سكينة حيث هى فى المدينة ، وقد متعها الأصبغ حين طلقها ، بعشرين ألف دينار .

....

متى تمت هذه الخطبة ، القصة تشير إلى أنها حدثت والأصبغ والٍ على مصر لعبد الملك بن مروان ، أى فى سنة ٧٥ هـ ...

ومن هنا ، أتينا بها ، فى سياق الحديث عن حياة سكينة الزوجية ، بعد ترملها من مصعب .

و لم نلتفت إلى ما نقلته (دائرة المعارف) من زواج الأصبغ بها ، بعد مَنْ سمتْه : الزبير ــ وصحتُه : زيد ــ بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذى أجمع ابن خلكان فى (الوفيات) وابن العماد فى (الشذرات) وإحدى روايات (الاغانى) على أنه طلقها فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ إلى سنة٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، فى عهد عبد الملك ، والأصبغ والٍ على مصر [١] .

كذلك لم نلتفت إلى روايتين فى الأغانى ، وضعتا خطبة الأصبغ إياها قبل زواجها من مصعب الذى قتل عام ٧١ هـ !

وأما غياب الإشارة إلى هذه الخطبة فى (نسب قريش) وفى (الجمهرة) فمن السهل ان نفسره بعدم إتمام الزواج .

* * *

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٠٢ ، ١٢٦ .

مَع عبدِ الله بن عثمان الحِزاميّ

هدنة مع الأيام :

فمَنْ بعد الأصبغ ؟ ...

لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، هو أول من خطبها ، وتم زواجها ، بعد أن ترملت من مصعب .

على هذا اتفقت رواية (نسب قريش) التى نصت على أنه الذى خلف عليها بعد مصعب [١] .

وكذلك ابنُ خلكان فى (الوفيات) .

وهى أيضا رواية ابن سعد فى (الطبقات) وقد نقلتها عنه (دائرة المعارف) وإن كانت أضافت إلى اسم عبد الله بن عثمان ، أنه ابنُ أخى مصعب !

والصحيح أنه ابنُ أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام [٢] .

وأما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرافها ، وكان مع عبد الله ابن الزبير بمكة ، فقتل فى الحصار الأول ، الذى قام به جيش يزيد قبل موته سنة ٦٥ هـ وله يقول أبو دهبل الجمحى :

ونِعم ابنُ أختِ القوم عثمانُ فى الوَغَى	إذا الحرب أبدت نابَها وَهى تَكلَحُ
هو التارك المالِ والنفسِ حميةً	وَلَلموتُ من بعدِ المعيشةِ أرْوَحُ

(١ ، ٢) نسب قريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

وجاد بنفسٍ لا يُجاد بمثلِها لها ، لو أقرت غَزْيَةً ، مُتَزَحْزَحُ[1]

ورحّب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش ، قصيدة أخرى لأبى دهبل الجمحى ، بارك فيها هذه الصلة بين سليلة النبى ﷺ ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، سليل حكيم بن خويلد الأسدى ، ابن أخى السيدة خديجة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، وفى هذه القصيدة يقول الجمحى :

قضتْ وطَرا من أهلِ مكةَ ناقتى سوى أملى فى الماجدِ ابن حِزامِ
تمطت به بيضاءُ ، فرعٌ ، نجيبة هجانٌ ، وبعضُ الوالداتِ غرام
جميل المحَيّا من قريش كأنه هلالٌ بدا من سدفَةٍ وظلام
فأكرِمْ بنسلٍ منكَ بين محمد وبين عَلِيٍّ ، فاسمعنَّ كلامى
وبين حكيمٍ والزبيرِ فلن ترى لهم شبَهـا فى مُنْجِـدٍ وتهامِ[2]

* * *

زواج مثمـــر :

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين فى كنفِ هذا الزوج الماجد الكريم . وأمهلها الزمن بضعَ سنواتٍ ، ذاقت خلالها طعمَ الاستقرار والدعة ، وعكفت على تربية صغارها الذين كانوا ثمرة هذا الزواج المبارك بين فرعين من أعز فروع قريش .[3]

عثمان بن عبد الله ، وقد لقبه أبوه : قُرينا . وفى ولده كانت البقيةُ من نسب بنت الحسين .

وحكيم بن عبد الله

وربيحة بنت عبد الله ، التى تزوجها العباس أكبر أبناء الوليد بن عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة فى بلاد الروم[4] .

---

(١) نسب قريش : ٢٣٣ — وانظر مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩١٠ .

(٢) نسب قريش : ٢٣٣ .

والابيات فى (ديوان أبى دهبل الجمحى) مع بعض اختلاف فى الترتيب .

(٣) نسب قريش : ٢٣٣ .

(٤) تاريخ الطبرى : حوادث السنوات ٩٣ : ٩٥ هـ .

ولعل ربيحة هذه، هى الفتاة التى كانت أمها سكينة تُلبسها الدر لتفضحه، والتى خلطت الرواية فنسبتها إلى مصعب بن الزبير.

* * *

وربما حاولت سكينة فى تلك الفترة من حياتها، أن تسدل على أحزان صباها ستارا من التشاغل والتناسى. وعاد الأخباريون فانصرفوا عنها، إذ هى مطمئنة فى حياتها الزوجية، بعيدة عن أضواء المجتمع.

ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان الحِزامى، وترمّلت مرة أخرى ...

ويبدو أن وقع المصاب كان شديدا عليها، نكأ فى أعماقها الجرح القديم الذى ما التأم مَرةً إلا ليعود فيدمى من جديد ...

ولعلها فى تلك الفترة، سعت إلى البيت العتيق فى حجتها المشهورة التى التقت فيها بضرتها السابقة: عائشة بنت طلحة ...

وأبى متصيدو الأخبار أن يُفلتوا هذه الفرصة، بل أسرعوا فجاءوا بغادتى قريش الحسناوين، فى مشهد من مشاهد التنافس والتحدى ...

وإن لم يكن «مصعب بن الزبير» هو موضوع تنافسهما فى هذا المشهد الذى وصفه الراوى فقال:

«دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد بن عبد الملك وهو بمكة فقالت: يا أمير المؤمنين، مُرْ لى بأعوان.

فضمَّ إليها قوما يكونون معها، فحجّت ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل.

وحجّت فى ذلك العام أيضا سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما، فقال حادى عائشة:

عائشَ يا ذاتَ البغالِ الستينْ   لا زلتِ ما عشتِ، كذا تحجين

فشق ذلك على السيدة سكينة، ورد حاديها:

عائشَ هذى ضُرةٌ تشكوكِ   لولا أبوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فكَفَّ»[1]

ونرجح أن ذلك قد كان فى سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التى حج بالناس فيها ، الوليدُ بن عبد الملك [2]

* * *

(١) الأغانى : ١١ / ١٨٨ دار الكتب . وانظر الخبر وتعليق التاج السبكى عليه فى (طبقات الشافعية الكبرى ١ / ١٦٦ ط مصر) .

(٢) تاريخ الطبرى : ٨ / ٨١ .

مع زيْد بن عَمْرو العُثمانى

شــروط عجيبــة :

رجعت « السيدة سكينة » إلى المدينة فى أخريات ذى الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة ، ينزف الجرح فى أعماقها دما ، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح ...

وجاء خاطب جديد ، ليكشف عن ضجرها الذى جاوز المدى ! ...

جاء « زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان »[1] يسألها أن تقبله زوجا على أى شرط تشاء ...

و لم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم ، بل اشتطت فى شروط لها ، ما نراها ــ لوصح الخبر ــ إلا مظهرَ يأسٍ عميق ، وإن بدت فى شكل دُعابة ساخرة :

كانت فى مقدمة شروطها ثلاثة :

أولهـــا : ألا يَمس امراة سواها ...

والثانـى : ألا يحول بينها وبين شىء من ماله ...

والثالث : ألا يمنعها مَخْرجا تريده [1] .

فإن أَخَلَّ بأحدِ هذه الشروط ، فهى منه خلية !...

---

(١) فى اسم والد زيد وهم ، لعل سببه أن عثمان بن عفان له ولدان : عمر ، وعمرو . وقد ورد اسم زيد بن عمرو ، فى طبقات ابن سعد وفى أكثر المصادر ، وكذلك ورد مرة فى نسب قريش (٩٥) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر . وقد رجحنا أنه ابن عمرو بعد طول مقابلة للمرويات ، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان .

(٢) فى الأغانى (١٤ / ١٦٣) شروط أخرى مع هذه التى ذكرناها .

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من السيدة سكينة والإسلام قد أحَلَّ تعدد الزوجات . وكان تعدد الزوجات فى بيئتها هو العرف المتبع والشائع . وقد تزوجت سكينة — وهى فى ربيعها العشرين — من مصعب ، وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدى ، وأمهاتُ أولادٍ شتى [1] .

ثم تأتى ، وقد جاوزت — الأربعين من عمرها — فتشترط على زيد العثمانى ألا يمس امرأة سواها ؟

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا . فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها .

والشرط الثانى أعجب : فزيدٌ هذا « أبخل قرشى » فيما قالوا ، وقد رووا فى بخله أعاجيبَ يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على افتراض وضعها ، ذاتُ دلالة على رأى القوم فى زيد ، وفى بخله [2]

وتأتى سكينة ، فتشترط على زيد هذا الذى كان يأبى أن يشركه ضيف فى طعام ، ألا يحول بينها وبين شىء من ماله ، وإلا فهى منه خلية ..

وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة ، فما ألف المجتمع القرشى ، فى جاهلية أو إسلام ، أن تشترط زوجة على زوجها ألا يمنعها مَخْرجا تريده ...

أى مخرج ! هكذا على التنكير والتعميم ، دون تحديد أو قيد ؟ ...

وزيدٌ حفيدُ ذى النورين ثالث الراشدين وأحد العشرة رضى الله عنهم ، ومن بيتٍ فى الصميم من قريش [3] .

وسكينة . أختُ الإمام ، وبنت الإمام ، وسليلة النبوة !...

---

(١) نسب قريش : ٢٤٩ — وجمهرة أنساب العرب : ١١٢ .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٦٤ .
(٣) انظر نسبه فى « نسب قريش : ١٢٠ » و « جمهرة أنساب العرب : ٧٨ » .

فماذا تركت لزوجِها بعد كل هاتيك الشروط ؟ ...

لو أنها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها ، ثم تحللت من عقد النكاح ، لسبب أو لآخر — أو حتى لغير سبب — لما خرجت فى ذلك على عُرْف القوم وتقليدِ الجماعة ، فأما أن تنص صراحة على أنه « إن مَسَّ امرأة سواها ، أو حال بينها وبين شيء — أى شيء — من ماله ، أو منعها مخرجا — أى مخرج ! — تريده ، فهى منه خَلِيَّة » فذلك ، إن صح ، هو الهزء بالمجتمع القرشى الذى أنكرت سكينة من حاله ما أنكرت ، وضاقت بما شاع فيه من غدر ونفاق ، وقتل النفس — وعشرات الألوف منها — التى حرم الله إلا بالحق !...

ألا ما أفدح الأثر الذى تركته محنة آل البيت فى نفس هذه الأنثى الذكية الشاعرة بذاتها !..

ويقال إنها مرحة عابثة ، وقد نسيت كلَّ الذى كان ، وأقبلت تستبدل زوجا بزوج ، وكأنْ لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا ؟ !...

كلا ...

إن الجرح كان من عُمق الغَوْرِ بحيث لا يُرَى من قرب ، ولو كان سطحيا لما خَفِيَ ! . . .

وهذه هى ، بعد أن احتست الأتراحَ والأشجان كأساً فى إثر كأس ، تأبى أن تعترف بأعراف وتقاليد ، لمجتمع يأكل بعضه بعضا ، ويلغ فى دماء آل محمد ، ولما يبلَ قميصُه عليه الصلاة والسلام .

لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسناء ، عُمْلَةً زائفة لاتساوى مجردَ الالتفات إليها ! ...

فمن شاء أن يتزوجها ، وليكن زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما شاءت . . .

ليقبل أن ينزل لها عن حريته ولو كان سيدا وابن سيد وسليل سادة ...

وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشى ...

وعن مهابته ، ولو كان ابنَ عم الخليفة ، وحفيدَ ذى النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ووجم المجتمع القرشى وهو يرى زيدا يقبل ، ويتزوج سكينةَ على شروطها !...

* * *

أبخل قرشى :

ووجد الأخباريون فى زواج « أبخل قرشى » من الهاشمية الكريمة ، المُذِلة للمال ، مادةَ سمر ، ونوادر ، وحكايات ...

فهم يحكون من نوادر إهانتها للمال ، أنها رئيت مرة ترمى الجمارَ ، فسقطت من يدها الحصاةُ السابعة ، فنزعتْ خاتما ثمينا من إصبعها ورمتْ به ، بدلَ الحصاة [1] .

ويحكون من نوادر بخل زيد ، أنه خرج حاجًّا وخرجت معه سكينة ومعها خمسة أجمال محملة بأصناف الطعام . فكلما بلغ الركب منزلا ، أمرت السيدة الهاشمية بالطعام وأعدت الأطباق ، فجاء بعض القوم يسلمون على « زيد » فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح متوجعا : « أوه خاصرتى !.. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار ... » فإذا انصرفوا ، طلب الطعام ...

وحدث مرة ، وهم فى السيالة ، أن جاء أغيلمةُ الأنصارِ للتحية ، والطعامُ مُعَدٌّ . فأمر زيد برفعه متعللاً بالألم الطارئ !

يقول « أشعب » وكان يومئذ فى الركب :

« ولبثنا حتى انصرفوا ، ودخلنا ، وقد هلكتُ جوعا فلم آكل إلا مما

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ .

اشتريته من السوق من مائة دينارٍ أعطتنى إياها السيدة سكينة . فلما كان الغد أصبحت وبى من الجوع ما الله به عليم . ودعا زيد بالطعام ، فأمر بإسخانه ، وجاءته مشيخةٌ من قريش يسلِّمون عليه ، فلمّا رآهم اعتلّ بخاصرته ودعا بالترياق والماء الحار ، ورفع الطعام ، فلما ذهبوا ، أمر بإعادته فجىء به وقد برد فقال لى : ياأشعب ، هل إلى إسخان هذا الدجاج سبيل ؟ ... فقلت له : أخبرنى عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يُعْرَض على النار غُدواً وعشيا ؟ » [1] .

* * *

تجربــة فاشــلة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو ، أن تسعد سكينة بعد أن أثقلتها أعباء الأيام والليالى وأثخنتها الجراح ، بزواج كهذا ، بل لعلها لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وإنما هى تجربة جديدة ، لم تر بأسا فى معاناتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون . .

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثمانى ، تصورها قلقة منغصة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت فى إحدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر . والظاهر أن زيدا تململ من القيود التى ألجمته بها زوجته ، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها . . . حدَّث أشعب :

« حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمرو سكينةَ فى الخروج معه ، وأعلمها أنها أول سنة يحج فيها الخليفة وأنه لا يمكن التخلف عن الحج معه . وكانت لزيد ضيعة قربَ المدينة يقال لها العَرجُ ، وله فيها جَوارٍ حِسانٌ . فأعلمته سكينة أنها لا تأذن له إلا أن يخرج أشعبُ معه فيكون عيناً لها عليه ، ومانعاً من العدول إلى العرج والاتصال بجواريه فى روحته أو رجعته » [2] .

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ ساسى .
(٢) الأغانى :١٤ / ١٦٤ ساسى .

فقبل زيد ... وحج سليمان وانصرف من حجه و لم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبنى عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ، وقدَّم إليه صُرَّةً فيها ٤٠٠ دينار — وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء — وأعلمه أنه ليس بينه وبين العرج إلا أميال ، وأن الدنانير له إذا هو أذِن له فى المسير إلى العرج ولقاء جواريه هناك ، ثم يوافيه بِغَلَسٍ وقتَ ارتحال الناس ...

« فأذِن له أشعب ، وأقسم له أنه سوف يحلف لسيدته بالأيمان المحرجة ، أن زيداً ما صار إلى العرج ولا اتخذ جارية لنفسه منذ فارق سكينة إلى أن رجع إليها . . وآب الحجيج إلى المدينة ، فابتدرت سكينة زوجها تسأله عن خبره . فقال وهو ينظر إلى أشعب :

— يا بنت رسول الله ، وما سؤالك إياى و لم يزل ثقتُكِ معى ، وهو أمينٌ علىَّ ، فسَلِيه عن خبرى يصدقك ...

فسألت أشعب ، فأخبرها أنه لم ينكر عليه شيئا و لم يمكِّنْه من اتخاذ جارية ، و لم يطلق له الاجتياز إلى العرج ...

فلما استحلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالأيمان المحرجة حتى جزع « زيدٌ » نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدى سكينة يقول فى ضراعة التائب وتوسل المُقِرّ بذنبه :

— والله يا بنتَ رسول الله لقد كذَبكِ العلج ! ... جُزْتُ بالعرج فأقمتُ هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدةٍ من جوارىَّ ، وهأنا ذا تائب إلى الله مما كان منى ، وقد جعلت توبتى منهن ، أن أحملهن إليك عشيةَ هذا اليوم ، فبيعُهن وإطلاقُهن إليكِ ، وأنتِ أعلمُ بما ترين فى العبدِ السوء — يعنى أشعب » .

أية زوجية هذه التى يصور لنا الرواة فيها « زيد بن عمرو بن عثمان » لا يتحرك — ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين — إلا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه ؟ ! ...

ثم تصوره وهو يحتال للعدول إلى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا إلا أن يُذل نفسه بالاستئذان من « أشعب ، مولى السيدة سكينة » وأن يُذل غالَى ماله بدفع أربعمائة دينار لأشعب ثمنا لسكوته ، وتستره عليه بأيمان كاذبة ؟

ثم هذا الموقف الذى وقفه بين يدى زوجته ــ كنص عبارة الراوى ــ ضارعاً مقراً بذنبه ، تائبا إلى الله ، وجاعلا كفارةَ الذنب . جواريه جميعا يُحضرهن إلى سكينة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا ! ...

وتضيف الحكاية أن « سكينة » لم تقبل توبة زوجها « زيد » ولا توبة عبد السوء « أشعب » ...

أما أشعب فجعلته مُثْلَة : أمرته بأن يحضر الدنانير الأربعمائة التى تقاضاها ثمناً لخيانةِ ثقتِها فيه ، وبعثتْ مَن ابتاع لها خشباً بثلاثمائة دينار ، واستدعتْ نجارين صنعوا من هذا الخشب صندوقَ تفريخٍ للبيض ، ودفعتْ لهم أجرَهم من الدنانير المائة الباقية ، بعد أن اشترت بَيْضاً وتبْناً ! ...

وأقسمتْ بحق جَدِّها ، ﷺ ، أن يحضن أشعبُ هذا البيض حتى يفقس ...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضِناً ، حتى خرجت الفراريج فى ساحة دارِ « سكينة » فكانت تنسبها إليه وتقول : بنات أشعب ! ؟ . . .[1]

وأما زيد بن عمرو بن عثمان ، فذهبت تستعدى عليه « عمر بن عبد العزيز » والى المدينة لسليمان بن عبد الملك ...

تقول الرواية : فبعث عمر إلى زيد فأحضره ، وأمر « ابن أبى الجهم الفقيه »[2] أن ينظر بينهما . وندب رجلين ليشهدا قضاءه .

وجاء زيدٌ وحدَه إلى مجلس الحكم .

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٠ ، ١٦١ ساسى .

(٢) ابو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم العدوى التابعى . انظره فى « جمهرة انساب العرب ، وتهذيب التهذيب .

وأما سكينة فجاءت فى موكب من جواريها يحملن الوسائد والفرش . فلما أذنَ لها ابنُ أبى الجهم بالدخول وحدها ، أبت أن تدخل إلا ومعها ولائدُها . ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة ، وهيأن مُتكّئاً ، وزيدٌ منكمش قد لصق بمقعد القاضى « حتى كاد يدخل فى جوفِه خوفاًمنها » .

قال ابنُ أبى الجهم :

« يا ابنةَ الحسين ، إن الله يحب القصدَ فى كل شىء »

فردت عليه :

« وما أنكرت منى ؟ .. وإنى والله وإياك كالذى يرى الشعرةَ فى عين واحد ، ولا يرى الخشبةَ فى عين صاحبه » .

قال وقد أثاره ردها :

« أما والله لو لم تكونى سكينةَ بنت الحسين ، لَسطوتُ بك ! »

وطال بينهما الأخذ والرد ، حتى قال أحد شاهِدَى المجلس :

ـــ يا أبا بكر ، ما لهذا جئنا ، ولا بهذا أُمِرْنا ، فانظر القضيةَ ولا تشاتم ...

وإذ ذاك التفتتْ سكينة إلى مولاةٍ لها وسألتها :

ـــ من هذا الرجل ؟ . .

قيل : هو أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ...

فصاحت به : لا أراكَ ههنا وأنا أُشْتَم بحضرتك ! ..

ثم صاحت : يا لَرجالِ هاشم وقريش ! ...

فاعتذر لها مَنْ بالمجلس ! ...

وتكلم زيدٌ ، فأبدى خضوعه لها ...

قالت : ما أعرَفنى بكَ يا زيد ! .. والله لا ترانى أبدا !... أتراك تمكث مع جواريك ثم أعود اليك !..

ونطق القاضى بحكمه : « إن جاءت سكينة ببينة على دعواها ، وإلافاليمينُ على زيد ... » .

فكان جوابها أن التفتت إلى زيد وقالت :

ـــ يا أبا عثمان ، تزودْ منى بنظرة ، فلن ترانى واللّهِ بعد الليلة أبدا ...

....

وانفض المجلس ، وقد أدبر النهار وجاء الليل ...

وكانت ليلة شاتية ، غائبة النجم ...

قال الفقيه أبو بكر بن عبد الله ، يُتم القصة :

« وخرجْنا فجئنا عمرَ بن عبد العزيز . فألفيناه ينتظرنا فى وسط الدار ، فى تلك الليلة الشاتية ، فسألنا عن الخبر ، فأخبرناه ، فجعل يضحك حتى أمسك بطَنه ! ...

ثم دعا زيداً من غدٍ ، فأحلفه وردَّ سكينة عليه »[1].

* * *

ولكنها رجعة لم تطل ...

عادت « سكينة » تشق على زيد ، وتُرهقه من أمره عسرا ، حتى « كانت ـــ فيما تُحدِّث الأخبار ـــ تقول له : يا عثمانى ، اخرج بنا إلى مكة . فإذا خرج بها فسارت يوما أو يومين ، قالت : ارجع بنا إلى المدينة . فإذا رجع يومَه ذلك قالت : اخرجْ بنا إلى مكة !»[2] .

ثم استعدت عليه « سليمانَ بن عبد الملك » فقال لزيد :

« اعلم أنك قد شرطتَ لها شروطاً لم تفِ بها ، فطلقْها ... » .

وطلقها زيدٌ بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك[3] .

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٤ ساسى .

(٢) الاغانى : ١٤ / ١٦٣ ساسى .

(٣) وفيات الاعيان : ١ / ٢٩٨ وشذرات الذهب : ١/ ١٥٤ .

وآب إلى دنياه ، يحصى خسائره فى تلك الصفقة ...

وضحكت المدينةُ كلها ، وهى تحصى معه كم أنفق من مال ، وكم احتمل من نَصَبٍ وإذلال ، ليرجع آخرَ الأمر صفرَ اليدين من سكينة ...

وضحكتْ سكينة على هذا المجتمع الذى يضحك ، وحق له البكاء ...

وكذلك ذكر ابنُ خلكان ، وابن العماد الحنبلى ، طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك . والذى فى (نسب قريش ، وطبقات ابن سعد) : أن زيدا العثمانى هلك عنها[1] .

والأمرُ ــ بعدُ ــ غيرُ مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار .

* * *

هكذا قالوا

وإنما الذى لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنها تزوجت بعد زيد ، بعمر بن حكيم بن حزام ...

ذكرت ذلك إحدى روايات الأغانى ، وإن اختُلِف فى دوره : أكان بعد زيدٍ أم قبله ...

وذكرته (دائرة المعارف) فى ترجمة سكينة ــ نقلاعن زيادةٍ لابن قتيبة فى (المعارف) ــ وإن يكن اسمه اسم أبيه تصحف فى الترجمة العربية بـ « عمرو بن حاكم بن حزام » . !

ولعل الاسم فى الترجمة العربية للدائرة ، نُقل خطأً عن الأصل الانجليزى فتشابه رسم حكيم فيها بحاكم .

---

(١) نسب قريش : ١٢٠ ط الذخائر ، والطبقات الكبرى : ٨ / ٤٧٥ .

وعمرو هذا ، أو عمر ، هو أخٌ لجدِّ عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ، زوجها بعد مصعب !

ولا ندرى كيف أدرك سكينةَ ، إلا أن يَصِحَّ فى حساب هؤلاء ، أن تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال ! [1] .

وأما المصادر الأخرى — وأذكر منها : (نسب قريش ، وجمهرة أنساب العرب والمحبَّر ، ووفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ، وكل المصادر الشيعية الحديثة التى قرأتها) — فلم تشر إلى هذا الزواج بكلمة .

وقد تتبعتُ أخبار زوجات بنى حكيم بن حزام فى نسب قريش ، فلم أر لسكينة ذكرا إلا فى زواجها من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، الذى ولدت له عثمان — قرينا — وحاكماً وربيحة ... [2] .

وصاحب نسب قريش هو أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى ، الذى يلتقى نسبُه مع نسب بنى حكيم بن حزام ، عند خويلد الأسدى ، جد الزبير بن العوام ومصعب ، وجد حكيم بن حزام ...

وقد أحصى نسبَ قريش ، دون أن يشير إلى هذا الزواج بين حفيدة عمته خديجة ، زوجة عمه مصعب ، والجد عمرو بن حكيم بن حزام بن خويلد !

وكذلك لم يشر إلى الفتاة التى زعمتْ رواية الأغانى ، أنها كانت ثمرةَ هذا الزواج !

* * *

فهل نَدَعُ إذنْ حياة السيدة سكينة الزوجية لنمضى إلى جديد من أمرها ؟

---

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد فى نسب قريش : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، وفى الجمهرة : ١١٣ / ذخائر .

(٢) مثله فى « جمهرة أنساب العرب : ١١٢ ذخائر » .

كلا ، فما زال هناك ما يقال ...

إن الشيعة ، كما ذكرنا فى مطلع هذا الفصل ، يرفضون الاعتراف بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن عمها « عبد الله بن الحسن ، ثم بمصعب بن الزبير . واقتصر مؤرخ الإسلام الحافظ أبو عبد الله الذهبى ، على زواجها من مصعب .

وعذرهم واضح ، فما كانت هذه الأخبار فى تناقضها وتدافعها واختلاطها ، بالتى تدعو إلى شىء من ثقة وطمأنينة .

وقد رأيناها زوَّجت سكينةَ من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم من عم أبيه : عمرو بن حكيم !

وبعثت الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الربابَ أم سكينة ، ترفض زواجها من عبد الله بن مروان ، بعد قتل مصعب !

وسبقت الزمَنَ ، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة فى بطون أمهاتهم ، حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذى وُلِد بعد مقتل مصعب — أو كان رضيعا فى عامه الأول — يتدخل فى حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع سكينة ، لما أراد زواجها بعد ترملها من مصعب بن الزبير !

فليس بالغريب ، فيما أرى ، أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعا ، وقد تعارضت فتساقطت ، وكذَّب بعضُها بعضا ، وجاوزت نطاق المعقول !

* * *

وأما تعدد زيجات سكينة ، فليس فى ذاته بموضوع غرابة أو إنكار ، وإن كانت (دائرة المعارف) نظرت إلى هذه المسألة بعين الهوى ، وقالت فى غمْزٍ : « واشتهرت سكينة بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة » .

وهكذا خَصَّتْ بنتَ الحسين وسليلةَ النبوة ، بتعاقب الزيجات .

وتجاهلتْ ما كان يقضى به العرف المتبع فى بيئة السيدة سكينة ، من إسراع الخُطّاب إليها كلما خلَتْ من زوج ، حرصا على شرف المصاهرة .

وما أحسب المستشرق « ماسيه » كاتب مادة سكينة فى الدائرة ، قد جهل هذا العرف ، أو غاب عنه ـ وهو يغمز ـ أن عقائل قريش الكريمات قد شاركن سكينةَ فى هذا الذى زعم أنها اشتهرتْ به « بصفة خاصة » . .

وقد صح لدينا من أخبار زوجيتها ، أنها تزوجت فعلا من ثلاثة : مصعب ، وعبد الله بن عثمان الحزامى ، وزيد بن عمرو العثمانى . وأما الآخرون فلم يتم زواجها بأحد منهم ، فهل يقال إن « سكينه » اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة ، لأنها تزوجتْ ثلاث مرات ؟

من قبلها تزوجت جدتُها السيدة خديجة أم المؤمنين ، باثنين من أشراف قريش ، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .

وتزوجت « أسماءُ بنت عميس الخثعمية » جعفر بن أبى طالب وولدت له عبدَ الله ، صهرَ الإمام علىٍّ وابن عمه . فلما استشهد جعفر فى « مُؤْتة » تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا . ثم خلَف عليها من بعده الإمامُ علىٌّ بن أبى طالب ، فولدت له ابنَه يحيى الذى استشهد مع أخيه الحسين فى كربلاء .

وعمة سكينة « أم كلثوم بنت على بن أبى طالب » تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فولدت له زيداً . ثم خلف عليها عونُ بن جعفر بن أبى طالب . ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر فلما مات عنها ، تزوجها أخوه عبد الله بن جعفر بعد طلاقه لأختها العقيلة [1].

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان ـ أخت الأصبغ ـ تزوجها الوليد ، ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !

وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينة ، توفى عنها زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . فتزوجها مصعب بن الزبير . فلما قتل تزوجها عمر بن عبيد الله . فلما تأيمت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردتهم .

---

(١) جمهرة أنساب العرب : ٣٣ ط الذخائر .

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قُتِل عنها عبدُ الله بن أبى بكر الصديق . ثم تزوجت عمرَ بن الخطاب فقتل عنها ، فتزوجها الزبيرُ بن العوام [1].

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ...

* * *

---

(١) نسب قريش : ٣٦٥ .

الفصل الثالث

فى المجتمـــع

— شخصيتها الاجتماعيَّة

— المجتمع فى عَصرها

— صورتها فى هذا العصر

— عَوْد على بَدْء

— كلمة يجبُ أن تُقَال

— الأديبة النَاقِدَة

شخصيتها الاجتماعية

أحسب أن قد آن الأوان بعد ذلك كله ، لندع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، إلى جانب آخر لم يكن أقل حظا من اهتمام الرواة ، والأخباريين ، ونساجى القصص والحكايات .

ذلك هو مكانها فى الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها .

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة ، لم يختلفوا فى أنها كانت الشخصية النسوية الأولى فى المجتمع الحجازى على أيامها ، ولو استعرنا أسلوب عصرنا ، لقلنا إنها كانت — فيما تصور المرويات والاخبار — نجم المجتمع . ولكنا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصرى الذى ابتُذل فى وصف نجوم الملاهى وكواكب المحافل الساهرة ، فى حديثنا عن سليلة بيت النبوة وبنت الإمام الحسين . وإنما حسبنا أن نقول إنها منذ استقر بها المقام فى مدينة جدِّها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، استطاعت أن تنفرد بمكانة فى المجتمع لم ترقَ إليها سيدة سواها .

* * *

والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة ، وبعضها مما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصوره عن حفيدة الزهراء رضى الله عنهما . لكنا إذا استبعدنا هذا كله — على ما سيرى القارىء بعد حين — بقى بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى فى عصرها ، وذلك لما اجتمع لها من مواهب وسجايا ، جعلت لها جاذبية خاصة ، لم تشركها فيها سيدات العصر ، وفيهن حِسانٌ خلبن الألباب بجمالهن ، وشريفات قرشيات وهاشميات ، بعضُهن من سيدات البيت النبوى الكريم .

والحق أن السيدة سكينة ، كانت باديةَ الاعتزاز بنسبها العالى وشرفها الرفيع . وكان خصومها وخصوم آلها ، يقرون لها بهذا الاعتزاز ويرونها أهلاً لأن تباهى به مَن تباهى فتُسكته . وقد مرَّ بنا كيف ردَّ حاديها على حادى ضُرَّتِها عائشة بنت طلحة — حين افتخر بِجمالِها الستين — بقوله :

عـائشَ هـذه ضُرَّةٌ تشكـوكِ لولا أبوها ما اهتـدى أبـوكِ !

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فكَفَّ !

وقد علق « التاج السبكى » على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر :

« فلله درها — يعنى عائشة — حيث كَفّتْ فى موضع الانكفاف أدباً مع رسول الله ﷺ . فقد كان الأمر — والمفاخرةُ فى الدنيا — هزلا ، فقابلتْه سكينة بذكرِ رسول الله ﷺ جَدًّا ، فأفحمتْ خصمها وأقامتْ عليها الحجة . فللهِ درُّها من مناظرة عرفت مواقعَ الجدل ، ودرُّ عائشةَ من مُذعنة للحق منقادة إلى الصدق »[1] .

وفى الأخبار ، أن سكينة شهدتْ يومًا مأتمًا فسُمعت إحدى السيدات تقول : أنا بنت الشهيد . فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمعٍ من بنت غذىِّ النبوة سيد الشهداء . على حين أمسكت « سكينة » صامتة لا تعلق ، إلى أن أذَّن المؤذن من المسجد النبوى للصلاة ، فلما بلغ قوله : « أشهد أن محمدًا رسول الله » التفتت إليها السيدة سكينة وسألتها :

— هذا أبى أم أبوك ؟

فأجابت فى تواضع :

— لا أفخر عليكم أبدا [2] .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٦٦ ، ١٦٧ ط الحسينية .

(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ ساسى .

وقالوا كذلك ، إن « الأحوص بن محمد الأنصارى » بدا له أن يفاخر السيدة « سكينة » ويقال إنه كان يضمر لها حُبًا لا يجرؤ على البوح به . قال :

فخَرتْ وانْتَمَتْ فقُلتُ ذَرِينى ليس جَهْلٌ أَتيتِه بِبَديعِ
فأنا ابنُ الذى حَمَتْ لحمَه الدَبْرُ قتيلِ اللحيان يومَ الرجيعِ
غَسلَتْ خالَى الملائكةُ الأبرارُ مَيْتاً ، طوبَى له من صَريع [1]

جده « عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » قُتِلَ ، رضى الله عنه ، غدرًا يوم الرجيع فى سرية إلى المشركين فقتلوه ، ولما أرادوا التمثيل به حَمَتْه الدبرُ أى النحل ، فلُقّب بِحَمِيِّ الدبر . وخال الأحوص ، هو حنظلة بن أبى عامر بن صيفى الأنصارى الأوسى ، غسيل الملائكة ، استُشهِد رضى الله عنه يوم أحد .

فلما فاخر الأحوص سكينة ، غضب لها الناسُ وفيهم « سليمان بن عبد الملك » الذى أنكر على الأحوص ، فيما أنكر ، ردَّه على بنت الحسين ، ونفاه عن المدينة عقابا له .

وقال قائل من القوم : « وقد لعمرى فَخَر الأحوصُ بِفَخْرٍ لو على غير سكينَة فَخَر به ، وبأبِى سكينةَ حَمَتْ أباه الدبرُ ، وغسَّلت خالَه الملائكة ! » [2]

وكذلك عُرِفَ عنها أنها كانت تعتز بجمَالها وتَعدُّه من نِعَم الله عليها ، وما أناقتها المشهورة ، وطُرَّتُها السكينية المبتدعة ، إلا مظهَرَ اعتزازٍ بذلك الجمال وعناية به .

(١) الأغانى : ٤ / ٢٣٤ دار الكتب .

(٢) الأغانى : ٤ / ٢٣٤ دار الكتب وانظر فى (الإصابة) ترجمة عاصم بنت ثابت ، جد الأحوص ، (رقم ٤٣٤٠) وحنظلة بن أبى عامر الغسيل (رقم ١٨٥٩) . ويوم الرجيع فى السيرة ٣ / ١٧٨ هشامية .

ولم تكن تسمح لضُرتها « عائشة بنت طلحة » أن تتطاول أمامها بما لها من حُسن ، بل كانت تُلقِّبها بذاتِ الأذنين ، كى تردَّها إلى شيءٍ من التواضع تجاهَها .

وقد مرَّ بنا الخبرُ عن مباهاتها بجمالِ بنتها ، ومبالغتِها فى تزيينها ، ثم قولها : إنها ما ألبستْها الدرَّ إلا لتفضحَه !

وكانت شجاعة اللسان والجنان :

سمعت أن عامل المدينة ــ خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم الأموى[1] ــ يشتم جدَّها الإمام عليًّا كرم الله وجهَه ، من فوق منبر جدِّها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، « فكانت تجىء يومَ الجمعة لتشهد صلاة الجماعة ، فتقوم بإزاء العامل إذ يصعد المنبر ، فإذا شتم عَليًّا ــ كرم الله وجهَه ــ تصدتْ له سكينة فتشتمه ، ثم أمرت جواريها أن يشتمنه ، فلا يملك أن يردَّ عليها ، بل يكتفى بأن يأمر الشرطَةَ بضربِ الجوارى »[1] .

ويذكرون فى وصف شجاعتها حادثة عجيبة ، إن يبدُ فيها عنصرُ الغلو ، فذلك لا يضيع دلالَتها على رأى الناس فى هذه السيدة الباسلة .

قالوا إن سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبُر حتى أخذت جانبَ وجهها وعينها ، وكان بين مواليها مولى رومى يُدعى « درافيس » ، ذو خبرة بالطب والجراحة . فشكتْ إليه هذه السلعة التى تؤلمها ، وتوشك أن تشوِّه جمالها . ولما سألها درافيس :

ــ أتصبرين على ما يَمَسُّك من الألم حتى أعالجَك ؟

أجابت دون تردد : أجل .

---

(١) كان خالد بن عبد الملك واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك ، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة السيدة سكينة بعام . انظر تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨ وقابل على الأغانى ١٥٩/١٤ ساسى .

قال الراوى : « فأضجعها درافيس ، وشقَّ جلدَ وجهِها أجمع ، وسلَخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرتْ عروقُها . وكان من السلعة شيء تحت الحدَقة ، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحيةً ، ثم سلَّ عروقَ السلعة من تحتها فأخرجَها أجمعَ ، وردَّ الحدقة إلى موضعها . وسكينةُ مضجَعةٌ لا تهتز ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ...

« وزال ذلك عنها وبرئتْ منه ، وبقى أثرٌ من تلك الجراحة فى مؤخّرِ عينِها ، فكان أحسنَ شيء فى وجهِها من كلِّ حلى وزينة ، ولم يترك فى نظرها ولا فى عينيها أدنى أثر »[1] .

وكانت آية فى ضبط النفس والتحكم فى عواطفها والسيطرة على وجدانها ، وبهذا الضبطِ استطاعت أن تحتفظ بمرحها فى بيت أبيها رضى الله عنه كى تكون مبعث أُنس له فى عوابس الظروف وحوالك الأيام . وبلغ بها هذا الضبط ، أن أمضتْ حياتَها الزوجية مع « مصعب » وهو لا يدرى ما تُضمره له من حُب عميق وعاطفة قوية ، حتى جاء يودعها الوداعَ الأخير فصاحتْ من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ! .. فالتفت إليها وقال فى دهشة : أوَكلُّ هذا لى فى قلبِك ؟ ... قالت : إِىْ والله ، وما كنت أخفى أكثرَ !

وكانت كريمة تهين المال ، وإن ضاق القيِّمُ على أموالها بإسرافها فى الكرم . حَجَّ أشعبُ مرةً ، فأمرتْ له بجمَل قوى يحمل أثقاله ، فأعطاه القيِّمُ جملا ضعيفا ، فمضى أشعبُ يشكوه إلى سيدته فأرضتْه[2] .

وقد مر بنا آنفا ، ما ذكروه من وقفتها بالمحَصَّبِ من مِنَى ترمى الجمارَ ، فلما سقطتْ من يدِها الحصاة السابعةُ ، رمَتْ خاتَمها الثمين بدلاً من تلك الحصاة !

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ ساسى .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ .

وأما نوادر ظرفها فكانت حديثَ المجتمع وروحَ مسامرِه ، وكان الناس يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها ، يستوى فى ذلك مَن يستطيبون النكتة وَيَهشُّون للدعابة ، ومَنْ عرفوا بالحزم والرزانة . وما ظنك بعمر بن عبد العزيز فى صرامة جِدّه ، ووقار هيبته ، يضحك لإحدى نوادر سكينة حتى يُمسك بطنه ، وهو يومئذ والٍ على المدينة[1] .

ثم قصتها مع ابراهيم بن عبد الرحمن ، وحكاية « بنات أشعب » ، وردها على من سألها لماذا تكثر من المزاح وأختها لا تفعل . . . هذه الأخبار وأمثالها معها ، تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر ، وبديهةٍ حاضرة ، واعتداد بالذات !

* * *

هكذا كانت عزة النسب ، وعزة الجمال ، وأناقة المظهر ، وظرف السجايا ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الدعابة ، إلى جانب ما عرف لها من ذوق أصيل ، وفقهٍ لأسرار البيان ، عناصرَ تشترك جميعا فى شخصيتها الفريدة ، بكل جاذبيتها وسحرها .

ثم أضيف إلى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والإباء ، من التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع . فأتيح لها أن تظهر فى المجتمع ملء البهاء والظرف ، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها فى الحياة ، متحررةً من النفاق الاجتماعى ، دون أن ينالَ ذلك من مهابتها أو يلقى عليها ظلا من التهاون فيمايجب لمثلها من تصوُّن وعزة .

وقد أشرنا ــ فى الحديث عن حياتها الزوجية ــ إلى دوافع ذلك التمرد على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه ، وربما كان من مظاهر هذا التمرد ،

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ ساسى .

ظهورُها فى المجتمع الأدبى على نحوٍ لم نألفه من أختها وبنات عمها . ولكنها ظلت مع هذا الظهور ، « بنتَ النبى » ! ولم تنس لحظة ، ولا نَسِيَ المجتمع ، أنها سكينة بنت الحسين !

وإنها لَتُجالس الأعيان من رجال قريش ، ويجتمع لديها الشعراء ، وتصغى إلى المغنين ، وتسيطر على المجتمع الأدبى ، دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالى ، أو يزايلها وعيُها لموضعها من بيت النبوة !

....

* * *

المجتمَع فى عَصرِهَا

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة ، ظهرت السيدة سكينة فى المجتمع فشغَلتْ عصرَها والعصورَ من بعده .

ولن نستطيع المضى فى الحديث عن سكينة فى المجتمع الأدبى ، قبل أن نمهد له بحديثٍ عن حال هذا المجتمع فى عصرها . وهو حديث قد يطول ، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة ، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسناء ، والمكانِ الذى شغلتْه فى المجتمع الأدبى .

* * *

قد يُخيل إلى كثير منا ، أن وصفَ حال الأدب والمجتمع فى الحجاز فى عصر السيدة سكينة ، مما لا مجالَ لمزيدٍ من القول فيه ، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه إلى ذلك الصنف من الموضوعات « التى نضجت واحترقت » .

ولهم فى تاريخ هذا العصر ما يشبه المسَلّمات التى ليس للنظر فيها مجالٌ .

منها : أن مجتمع الحجاز — وبخاصة فى مكة والمدينة — فى العصر الأموى ، قد فسد وانحل ، أثراً لسياسة بنى أمية التى عزلتْ أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشئون السياسة ، وحبستْهم هنالك فى فراغ يُفسِدُه الشباب ، وتُفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون فى سخاء مسرف ، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم فى اللهو ويُبْلوا حياتَهم فى العبث والمجون[1] .

ومنها : أن تشجيع حياة المجون فى العاصمتين الدينيتين للإسلام ، قصد به

(١) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ١ / ٢٣٥ .

الأمويون إلى القضاء على ما لهما من نفوذ دينى كبير وسيطرةٍ روحية نافذة ، حتى جاز للأستاذ المحقق « الشيخ عبد الله العلايلى» أن يذهب إلى أن الأمويين « قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر بن أبى ربيعة ، لأجل أن يمسحوا عاصمتى الدين ـــ مكة والمدينة ـــ بمسحةٍ لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية » وساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصرانى ، « الذى استخدموه ـــ منذ عهد معاوية ـــ فى الحرب الكلامية التى أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة ، ليخلصوا من سيطرتها »[1] .

ومنها : أن شعر عمر بن أبى ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازى فى ذلك العصر ، والمصدرُ الأول والأهمُّ لفهمه على حقيقته وتأريخه تأريخا صادقا ، حتى ليقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين : « إن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمةَ التى أتيحت لهم ، حين حفِظ الدهرُ لهم شعر عمر بن أبى ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعرا إسلاميا استطاع أن يُمثل العصرَ الذى كان يعيش فيه والبيئة التى يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما : تريد أن تدرس العراقَ فى صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيامَ الرشيد والأمين خاصةً فارجع إلى أبى نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز فى صدر الدولة الأموية فارجع إلى ابن أبى ربيعة . وليس من شك فى أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية ، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس العرجى والأحوص وابن ذريح ، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة

(١) الاستاذ الشيخ عبد الله العلايلى : أشعة من حياة الحسين : ٤٧ .

يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى ، حين يُظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت إليه كلُّ الخلال كما ظهرت فيه كلُّ النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته ، والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره . وإنما يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموى فى الحجاز ، وكذلك العصر العباسى فى بغداد »[1] .

ثم أكد هذا مرةً أخرى حين قال :

« إن المؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلةَ بين الرجال والنساء فى هذا العصر ، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد »[2] .

* * *

هذه هى الصورة الذائعة الشائعة لمجتمع الحجاز فى عصر سكينة ، كما رسمها أعلام مؤرخى الأدب المحدَثين ، وكما استقرت فى أذهاننا .

فهل كان الحجاز حقا ، على ما وصفوه ؟

وهل الذى قالوه وقاله عمر بن أبى ربيعة ، هو كل ما كان هناك ، ولا شيء سواه ذو بال ؟

نرجيء الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، فى بنت الإمام الحسين ، رضى الله عنهما .

(١ ، ٢) حديث الأربعاء : ٢٨٩ ، ٢٩١ .

صُورتها فى ذلك العَصر

وطبيعى أن يكون وجود السيدة سكينة فى هذا المجتمع ، ومعاصَرتُها لعمر بن أبى ربيعة ، كافيين لأن يلقيا على صورتها ظِلالا من ذلك كله .

فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون فى أن عمر قد تغزل فيها دون تكتم أو حذَر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها فى ديوانه ، وتغنى بها المغنون والمغنيات فى الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعتْها (كتب الأغانى والأمالى) شرحاً وتفصيلاً .

فمن تلك القصائد ، بائيتُه المشهورة :

قالت سكينةُ والدموعُ ذوارفٌ ... منها على الخَدَّينِ والجلبابِ

ليت « المغيرىَّ » الذى لم أَجْزِه ... فيما أطال تَصَيُّدِى وطِلابى

كانتْ تَرُدُّ لنا المنى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هَوىً وتَصابِ

خُبِّرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما ... يُرمَى الحشا بنوافذ النشاب

أَسُكينَ ما ماءُ الفراتِ وطِيبُه ... مِنى على ظمأٍ وفَقْدِ شبابِ

بِأَلَذَّ منكِ وإن نأَيْتِ وقلما ... تَرعى النساءُ أمانةَ الغُيّاب

إن تبذُلى لىَ نائلا أشفِى به ... داءَ الفؤادِ فقد أطلتِ عذابى

وعصيتُ فيكِ أقاربى وتقطعتْ ... بينى وبينهُمُ عُرَى الأسباب

فتركتِنى ، لا بالوصال مُمَتّعاً ... منهم ، ولا أسعفتِنى بثوابِ

فقعدتُ كالمهريقِ فضلةَ مائِه ... فى حرِّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سَرابِ

رواها القالى فى (أماليه) والزجاج فى (أماليه) كذلك ، عن الأخفش ، أبى الحسن ، عن المبرد .

على أن « الأصفهانى » ـــ وهو معاصِرٌ « للقالى » ، وإن تناءى بهما المكانُ ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب ـــ قد رواها مرة هكذا :[1]

قالت « سعيدة » والدموعُ ذوارف   منها على الخديـــن والجلبـــاب

....

« أسعيدَ » ما ماءُ الفرات وطيبه   منـى على ظمـأٍ وفقـدِ شبـابِ
بألـذَّ منكِ وأن نـأيتِ وقلمـا   ترعـى النساءُ أمانـةَ الغُيّـاب

قال أبو الفرج :

« وسعيدة ، هى سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر قد تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبى ربيعة ، ما تزال سادرا فى حرم الله متهتكا ، تتناول بلسانك ربات الجمال من قريش ! آمرُك بتقوى الله وتركِ ما أنت عليه » .

قال أبو الفرج : « وإنما غيّره المغنون فقالوا : سكينة » .

وقال أبو إسحق الحصرى (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات برواية القالى : « كذَب مَنْ روى هذا الشعرَ فى سكينة رضى الله عنها »[2] .

وأخذ « الشيخ الشنقيطى » برأى صاحب الأغانى فى أن القصيدة قيلت فى سعدى هكذا :

* قالت سعيدة والدموع ذوارف *

على أنه عقب عليها بما يشير إلى أنها كانت تروى فى عصر الرشيد ، على أنها فى سكينة بنت الحسين . قيل : « إن اسحاق الموصلى غنى الرشيدَ يوما :

* قالت سكينةُ والدموع ذوارف *

فوضع القدحَ من يده وغضب غضبا شديدا وقال : لعن الله الفاسقَ ولعنكَ

---

(١) حـ ١٦ / ١٠ .
(٢) الحصرى : زهر الآداب ، ١ : ١٠١ .

معه ! .. فسُقِط فى يد إسحاق ، فعرف الرشيدُ ما به فَسَكَن ثم قال : ويحكَ ، أتغنينى بأحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى وبنت رسول الله ؟ .. ألا تتحفظ فى غنائك ؟ .. أو تدرى ما يخرج من رأسك ؟ »[1] .

وأما الدكتور زكى مبارك ، فقرر أن عمر قالها فى « سكينة » على أثر اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة ، تلبية لدعوة بعثت بها السيدة سكينة إليه مع رسول لها ، وواعدته « الصورَين » مكانا ، فى ليلة حددتْها له . وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه : « صاحب الأغانى ، فى أخبار عمر ، فى الجزء الأول »[2] .

فعلق « السيد الفكيكى » على هذا بقوله :

« مع العلم بأن صاحب الأغانى لم يذكر هذا الشعر فى ليلة الصورين ، وإنما ذكر شعرا آخر » .

ونقول : بلى ذكرها صاحب الأغانى فى حادثة الصورين فعلا ، فى الجزء الأول من الأغانى[3] .

على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة الصورين هذه بنصِّها فى موضعٍ آخر ، ومع شعرٍ آخر ، قال :

« اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبى ربيعة وشعره وظَرفه وحسن حديثه ، فتشوقن إليه وتمنينه . فقالت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما : أنا لكنَّ به . فأرسلتْ إليه رسولا ، وواعَدتْه الصورينِ ، وسمّتْ له الليلةَ والوقتَ . وأعدَّتْ صواحباتها . فوافاهن عمرُ على راحلته فحدَّثهن حتى أضاء الفجرُ وحان انصرافهن . فقال لهن : والله إنى لَمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ والصلاة فى مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

---

(١) الخبر فى « الاغانى » : ١٦ / ١٢ » .

(٢) حب أبى ربيعة وشعره : ١٩٨ .

(٣) ص ١٦١ ، ١٦٢ ط دار الكتب ، ولعل السيد الفكيكى رجع إلى نسخة أخرى .

ألمِمْ بزينبَ إن البَيْنَ قد أفِدا قَلَّ الثَّواءُ لَئِنْ كان الرحيلُ غَدَا
قد حَلَفَتْ «ليلةَ الصُّورَينِ» جاهدةً وما على المرءِ إلاّ الحلفُ مجتهدا
لأُختِها ، ولأخرى من مناصِفِها لقد وَجَدْتُ به فوقَ الذى وَجَدَا
لو جُمِّعَ الناسُ ثم اختِير صفوُهمُ شخصاً من الناس لم أعدلْ به أحدا[2]

والسند فى الروايتين واحد ! ..

وقد غنى بالبائية « الهذلى ، والغريضُ » .

وغنى بالدالية « ابنُ سريج ، ومَعبد » وكذلك « الغريض ومالك » فى بعض الروايات .

ثم إن أبا الفرج نفسه ، عاد فذكر هذه الأبيات الدالية ، مقترنة بليلة الصورين ، مع إضافة جديدة لم ترد فى الموضعين السابقين . تلك هى أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين ، قال داليته :

* ألمم بزينب إن البيت قد أفدا *

« فلما كان بمكة قال : يا غريض ، إنى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعُه ويبقى لك ذكرُه ، فهل لك فيه ؟ .. قال : افعل من ذلك ما شئتَ وما أنت أهلُه . قال : إنى قلتُ فى هذه الليلة التى كنا فيها ـــ يعنى ليلة الصورين ـــ شعرا ، فامض به إلى النسوة فأنشِدْهن ذلك وأخبِرْهن أنى وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم .

وحمل الغريضُ الشعرَ ورجع إلى المدينة فقصد سكينَةَ وقال لها : جُعِلتُ فِداك يا سيدتى ومولاتى ! .. إن أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى إليك قاصدا .

قالت : أو ليس فى خير وسرور تركته ؟

قال : نعم ...

قالت : وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟

(١) الاغانى : ١٠٥/١ دار الكتب .

قال : جُعِلتُ فداكِ ! .. إن ابن أبى ربيعة حمّلنى شعرا وأمرنى أن أنشدك إياه ..

قالت : فهاته ...

فأنشدها :

* ألمم بزينبَ إن البَيْنَ قد أفدا * الأبيات

فقالت سكينة : يا ويحه ! .. فما كان عليه أن لا يرحل فى غدِه ؟ ..

ووجّهت إلى النسوة فجمعتْهن وأنشدتْهن الشعر ، وقالت للغريض :

ــ هل عملتَ فيه شيئا ؟ ..

قال : قد غنيتُه ابنَ أبى ربيعة .

قالت : فهاته ...

فغناه الغريض ، فقالت سكينة :

ــ أحسنت والله وأحسَنَ ابنُ أبى ربيعة ! .. لولا أنك سبقتَ فغنيتَه عمرَ قبلنا لأحْسَنّا جائزتَك .

ثم نادت : يا بنانة ، أعطيه بكلِّ بيت ألفَ درهم ، فأخرجتْ إليه بنانةُ أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه . وقالت سكينة :

ــ لو زادنا عمر لزدناك .

ومع أن الجائزة تُحدد عدد الأبيات بأربعة فقط ، كما لاحظ السيد الفكيكى إلا أنها جاءت فى الديوان ــ شرح محمد العنانى ــ بزيادة خمسة أبيات ، لم ترد فى (الأغانى) مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعه ومعتمده . والأبياتُ الخمسة هى :

لَعَمْرُها ما أرانى إنْ نَوًى نزحتْ	أو دام ذا الحبُّ إلا قاتلى كَمَدَا
بكر دَعَا فأتى عَمْداً لشقوتـه	ما جاء مِن ذاكَ إن غَيًّا وإن رشدا
مَنْ يَنْهَ يُعْصَ ، ومن يُحْسَد ، ولا وأبى	ما ضَرَّها مَنْ وَشَى عندى ومَن حَسَدا
هــذا يُقَرِّبُــه منها وعبــرتها	يوم الفراق فما راعى ولا اقتصدا
وقد نهيتُ فؤادى عن تطلُّبِها	فأغَشَّنى وأتى ما شاء معتمدا

ورفض السيد الفكيكى هذه الأبيات .

ورفض معها القولَ بأن الدالية قد قيلت فى سكينة ، ولم يرد اسمُها قط فى بيتٍ منها . وإنما هى عنده فى ضرتها « عائشة بنت طلحة التيمية ، وهى بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وكانت تسكن المدينة . ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة فى ليلة الصورين إن صحّت الرواية ، ذلك لأن عمر ابن أبى ربيعة قال فيما قال فيها :

يا أمَّ طلحةَ إن البينَ قد أفدا قلَّ الثواءُ لئن كان الرحيلُ غدا
أمسى العراقىُّ لا يدرى إذا برزتْ مَن ذا تَطَوَّفَ بالأركانِ أو سَجَدا

فأنت ترى أن مطلع تلك الأبيات وهذه واحد ، لولا اختلاف الكناية عن اسمها ، تهيُّبا من غضبِ فتيانِ بنى تيم الذين تَوعَّدوه »[1] .

وقصيدة ثالثة ، رواها « أبو على القالى » فى أماليه :

إن طيفَ الخيال حينَ ألَمّا هاجَ لى ذكرةً وأَحْدَثَ هَمّا
جَدِّدى الوصلَ يا «سكين» وجُودِى لِمُحِبٍّ ، رحيلُه قد أَحَمّا
ليس بين الرحيل والبينِ إلا أن يَرُدُّوا جِمالَهم فتزمّا
ولقد قلتُ مخفيًا لغريض : هل ترى ذلك الغزالَ الأَجَمّا
هل ترى فوقَه من الناس شخصاً أَحْسَنَ اليومَ صورةً وأتَمّا
إن تُنيلِى أَعِشْ بخَيْرٍ وإن لم تبذلى الودَّ متُّ بالهمِّ غَمّا

وقال أبو على: إنها من شعر عمر فى سكينة[2] .

وكذلك جاءت فى الديوان ، برواية أبى على .

غير أن « أبا العلاء المعرى » روى البيتين الأولين هكذا :

ودِّعى القلب يا «قريب» وجودى لِمُحِبٍّ فراقُه قد أحَمّا

---

(١) السيدة سكينة : ٣٢ ـــ والأبيات فى ديوان عمر ، ص ١٤٠ .

(٢) الامالى « سمط اللآلى : ٢ / ٣٠٥ » .

ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزمّا[1]

وكذلك رواها أبو الفرج ، بلفظ « قريب » :

إن طيف الخيال حين ألمّا هاج لى ذكرةً وأحدَثَ همّا
جَدِّدى الوصلَ يا قريب وجودى لمحبٍّ فراقُه قد ألمّا
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالَهم فتزمّا
ولقد قلت مخفيا لغريض : هل ترى ذلك الغزالَ الأجمّا
هل ترى مثلَه من الناس شخصا أكمل الناس صورةً ، وأتمّا[2]

وأعاد رواية بيتين منها فى موضع آخر ، عمن تدعى أم إسحاق قالت : « سمعت ابنَ سريج على أخشب مِنًى غداةَ النَّفْرِ وهو يغنى :

جَدِّدى الوصلَ يا قريب وجُودى لِمحبٍّ فراقُه قد ألَمّا
ليس بين الحياة والموت الا أن يردوا جِمالَهم فتزمّا

فما تشاء أن تسمع من خِباءٍ ولا مضرب حنيناً ولا أنيناً ، إلا سمعتَه ! »[4]

ثم أعادها بمثل هذه الرواية فى موضعٍ ثالث ، من أخبار « ابن سريج » ثم أضاف هذا الخبر :

« أُنشِدَ جعفرُ بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام قولَ عمر :

ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جِمالَهم فتزمّا

فطَرِبَ وارتاح وجعل يقول : لقد عَجّلوا البَيْنَ ! .. أفلا يُوكون قِرْبة ؟ أفلا يُودِّعون صديقا ؟ .. أفلا يَشُدُّون رَحْلا ؟ .. حتى جَرَتْ دموعُه »[5] .

وأنكر « السيد الفكيكى » على جامع ديوان عمر أن يأخذ برواية القالى

(١) رسالة الغفران . تحقيق بنت الشاطىء : ٥٣٩ ط خامسة ذخائر .
(٢) الاغانى : ١ / ١٢١ دار الكتب .
(٣) الاغانى : ١ / ٢٩٣ دار الكتب .
(٤) الاغانى : ١ / ٣٠٥ دار الكتب .

ويدع رواية الأغانى التى كررها فى ثلاثة مواضع ، ثم تساءل السيد :

« وهل من المعقول يا ترى أن يُنشَد الإمام الصادق عليه السلام ما تغزل به ابنُ أبى ربيعة فى عمة أبيه فيطرّب ويرتاح ؟ .. وهل من الحق أن نتصوره أقلَّ من هارون الرشيدِ وقد غضب ، فى مجلس طَرَبه ، غضبا شديدا ، على إسحاق الموصلى حينما غنى بين يديه بقولِ عمر حسب الرواية المغلوطة :

* قالت سكينة والدموع ذوارف *

* * *

ومقطوعة رابع لعمر ، فى (الأغانى) قيل إنها — هى الأخرى — فى سكينة بنت الحسين :

أُحب لِحبِّكِ من لم يكنْ ... صَفِيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل نفسى لمرضاتكم ... وأعتب مَنْ جاءكم عاتبا
وأرغبُ فى وُدِّ من لم أكن ... إلى ودِّه قبلكم راغبا
ولو سلك الناسُ فى جانب ... من الأرض واعتزلتُ جانبا
لَيمّمْتُ طيّتها ، إننى ... أرى قربَها العجَبَ العاجبا
فما ظبية من ظِباءِ الأراكِ ... تقرو دَمِيثَ الرُّبَى عاشبا
بأحسنَ عنها غداةَ الغميم ... وقد أبدتِ الخدَّ والحاجبا
غداةَ تقولُ على رِقْبة ... لخادمها : يا احْبِسى الراكبا
فقالت لها : فيمَ هذا الكلام ؟ ... وأبدَتْ لها عابسًا قاطبا
فقالت : كريمٌ أتى زائرا ... يمرُّ بكم هكذا جانبا !
شريفٌ أتى ربعَنا زائرا ... فأكرَهُ رجْعَتَه خائبا

غنى فى أبياتها الأول والرابع والخامس « ابنُ القفاص المكى »[1] .

(١) الأغانى : ١ / ١٦٣

وقد أنكر « السيد الفكيكى » أن تكون قيلت فى سكينة بنت الحسين ، وظنها من مفتريات الدكتور زكى مبارك ، الذى قال فى دعواه إنه اعتمد فى هذه الأخبار على الأغانى وزهر الآداب والأمالى[1] .

قال :

« ونحن أيضا رجعنا إلى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر المعتبرة ، وأمهات الكتب فى لغة العرب وآدابها ومختلف تواريخها ... فلم نعثر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبى ربيعة فى سكينة ، ولم يذكر الأغانى من هذا الشعر سوى بيتين هما :

أحب لحبكِ من لم يكنْ صَفِيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا

كما أن مَن عُنِى بجمع شعرِه وشرحه من الأدباء ، لم يذكروا ما ذكره الدكتور ... »[2] .

وقلت : إن الأبيات وردت كاملة فى (الأغانى) بالنص الذى أثبتناه هنا ، نقلا عن طبعة دار الكتب .

وقد جىء بها عقب البائية :

* قالت سكينة والدموع دوارف *

فى سياق الشعر الذى قاله عمر فى سكينة ، وصُدِّرت بعبارة : « وقال فيها » عَوْداً بالضمير إلى سكينة .

ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد فى كل النسخ الخطية للأغانى ، وإنما نُقلت فى طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية . ولعل سقوطها من بعض النسخ ، هو الذى جعل السيد الفكيكى يؤكد « أن صاحب الأغانى لم يأتِ منها بغير بيتين اثنين ، ودون أن يشير إلى أنها قيلت فى السيدة سكينة » .

* * *

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٩٣ .

(٢) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة : ٤٣ .

هذه الصورة لسكينة ، تلائم صورة عصرٍ يمثله شعرُ عمر بن أبى ربيعة ، كما قال قائلون . فليس شيء من هذا الذى قيل فى بنت الحسين بمستبعد ، عند من ذكروا أن المجتمع الحجازى قد أباح لعمر أن يُطلق لسانه فى شريفات قريش غيرَ متحرج ولا هَيّاب ، وما ذهبوا إليه من أن تغزل عمر بإحدى هؤلاء ، كان شهادة معترفا بها لصاحبتها بالحسن والجمال ، تحرصُ كلُّ حسناء على الظفر بها وتتكلف فى سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى ليقال إن « الثريا بنت على » سمعتْ قولَ عمر فى رملة :

وجلا بُرْدُها وقد حَسَرَتْهُ   نورَ بَدْرٍ يضيء للناظرينا !

فقالت : « أفٍّ له ما أكذبَه ! .. أَوَ ترتفعُ حسناءُ بصفتِه لها بعد رملةَ ... » .

ورملةُ هذه هى بنت عبدالله بن خلف ، تزوجها عمرُ بن عبيد الله بن معمر ، فلما تزوج عليها عائشةَ بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر :

انعَمْ بعائشَ عيشاً غيرَ ذى رنق   وانبذ برملةَ نبذَ الجورَبِ الخَلِقِ

وقالت له عائشة يوما فى لحظة صفاء : اعدد لى أيامك واذكر أفضلها . فعدَّ لها يومَ أبى فديك ويومَ سجستان ، ويومَ قطرى بفارس . . . لكن عائشة استدركت عليه قائلة : « قد تركتَ يوما لم تكن فى أيامك هذه أشجعَ منك فيه ! ..»

سألها : « وأى يوم هو ؟ .. » قالت : « يومَ أرختْ رَملةُ السترَ عليها وعليك ! .. »[1] .

وسكينة قد كانت سيدة نساء عصرها ملاحة وظرفا وأناقة ، فربما يؤذى جمالَها ــ عند هؤلاء ــ أن يسكت عُمَرُ فلا يمنحها الشهادةَ الرسمية المعترف

(١) الاغانى : حـ ١١ ص ١٨٠ وما بعدها ــ ط دار الكتب .

بها وحدها فى سوق الجمال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفُهم لِربّات الحجال .

ثم إن شعره فى سكينة ، ليس فيه من الفُحش ما يُقاس إلى شعره فى أخريات من حِسان ذلك العصر ، حيث جعل مخادعَهن ـــ لا البيوت فحسب ـــ ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته فى النوار :

رَاحَ صَحْبى ولم أُحَيِّ النوارا   وقليلٌ لو عَرَّجوا أن تُزَارا

وإنما أنقل هنا قصيدَته القافِيَّة فى إحدى شريفات المجتمع :

ولَمّا التقيْنا واطمأنتْ بنا النوَى   وغُيِّبَ عنَّا مَنْ نخاف ونُشفِقُ
فقُمْنَ لكى يُخليننا فترقرقتْ   مدامِعُ عينيها وظَلّتْ تَدَفّقُ
وقالت : أما تَرْحمننى ! لا تَدَعْنَنى   لذى غزلٍ ، جَمّ الصبابةِ أخرَقُ
فقلن : اسكُتى عَنّا فلستِ مُطاعَةً   وخِلُّكِ عنا ، فاعلمى ، بِكِ أَرْفَقُ !

وداليتَه فى هند بنت الحارث المرية :

ولقد قالتْ لِجاراتٍ لها   ذاتَ يومٍ ، وتَعَرَّتْ تبترِدْ
أكَمَا يَنعتُنى تُبْصِرنَنى   عَمْرَكُنَّ الله ، أم لا يَقتصِدْ
فتهاتفن وقد قلن لها :   حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ مَنْ تَوَد
حسدٌ حُمِّلنه من أجلها   وقديما كان فى الناسْ الحسد

أجل ، أى شيءٍ فيما يَروون من تغزله بسكينة ، يقاس إلى هذا الذى نقلتُ أقلّه وأمسكتُ عن أكثره ! ..

وأى ضير عليها ، وهذا المجتمعُ الذى عاشت فيه قد طاب له ـــ فيما قالوا ـــ أن يصغى إلى معازف المغنين وحناجر المغنيات ، وهى تنطلق فى مهد الإسلام ودار الهجرة ، شاديةً بغزل عمر فى بنت الحسين ، وأختِ عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس . . . ومَنْ لا أحصى هنا من أسماء العقائل الكريمات ! ؟

بلى ، إن صورة سكينة فى هذه الأخبار والأشعار ، تأتلف مع صورة المجتمع الحجازى فى عصرها كما تَمَثَّلَهُ أساتذة الأدب ومؤرخوه .

....

على أن صورتها عندهم لا تكتمل ، إلا إذا أضفنا إليها هنا ، مجالسَ الطرب والغناء التى قيل أنّ « سكينة » كانت تعقدها فى مجلسها بدار الهجرة ، على بُعد خطوات من مثوى جَدِّها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام . فى مسجده الشريف :

من تلك المجالس ، ما رواه صاحب الأغانى عن المغنين الأربعة المقدمين فى عصر سكينة : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد : الحجازيينَ ، وحُنين الحِيرىِّ العِراقى . قيل إنّ الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر حنين الحيرى وكتبوا إليه يقولون : نحن ثلاثةٌ بالحجاز وأنت وحدك بالعراق ، فأنتَ أَوْلى بزيارتنا . فشخص إليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبرُه فخرجوا يتلقونه فلم يُرَ يومٌ أكثرَ حَشْراً ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا المدينة فلما صاروا فى بعض الطريق ، قال لهم معبد : صِيروا إلَىَّ . فقال ابنُ سريج : إن كان لك من الشرفِ والمروءة مثلُ ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطَفنا إليكَ . فقال : ما لى من ذلك شئٌ .

وعدلوا إلى دار « السيدة سكينة » فلما دخلوا إليها أَذِنَتْ للناس إذنًا عاما ، فغصت الدارُ بهم وصعدوا فوقَ السطح ، وأمرتْ لهم بالأطعمة فأكلوا ، ثم إنهم سألوا حُنيناً أن يغنيهم صوتَه الذى أولُه :

هَلاَّ بكيت على الشباب الذاهب   وكففت عن ذمِّ المشيب الآيب

وكان حنين قد قال لهم : ابدءوا أنتم . فقالوا : ما كُنا لِنتقدَمَك ، ولا نغنى قبلَك ، حتى نسمعَ هذا الصوت .

فلما غناهم إياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، ازدحم الناسُ على السطح وكثُروا ليسمعوه ، فسقط الرواقُ على مَن تحته ، فسَلِموا جميعا وأُخرِجوا أصحاء ، غيرَ « حنين » فإنه مات تحت الهدم .

وقالت السيدة سكينة فيما حكوا :

ـــ لقد كَدَّرَ علينا حنينٌ سرورنا ! .. انتظرناه مدةً طويلة ، فلما جاء مات ، كأنا والله كنا نسوقُه إلى مَنِيته[1] .

ومجلس آخر رواه صاحب الأغانى قال :

« كان ابن سريج قد أصابته الريحُ الخبيثة وآلى يمينا ألا يغنى . ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفى . ثم خرج وفيه بقيةٌ من العلة ، فأتى قبرَ النبى ﷺ وموضعَ مُصَلَّاه . وإذ قدم المدينةَ نزل على بعض إخوانه من أهلِ النسك والقراءة ، فكان أهلُ الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم فى الجلوس والمحادثة . فأقام بالمدينة حَوْلاً حتى لم يعد يُحِسُّ من علته بشىء . وأراد الشخوصَ إلى مكة . وبلغ ذلك السيدةَ سكينةَ بنت الحسين رضى الله عنه ، فاغتمتْ اغتماما شديدا وضاق به ذرعُها . وكان « أشعبُ » يخدمها ، وكانت تأنس بمضاحَكتِه ونوادره . فقالت لأشعب : ويلكَ ! .. إن ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا ، ويعزُّ ذلك علىَّ ، فكيف الحيلةُ فى الاستماع منه ولو صوتا واحدا !

فقال لها أشعب : جُعِلتُ فداكَ ، وأنَّى لكِ بذلك والرجلُ اليوم زاهدٌ ولا حيلةَ فيه ؟ فارفعى طمعَك وامسَحِى بُوزَك تنفعْك حلاوةُ فمك !

فأمرتْ بعضَ جواريها فوطِئْنَ بطنَه حتى كادت أمعاؤُه أن تخرج ، وخنقنْه حتى كادتْ نفسُه أن تتلف . ثم أمَرتْ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُخرِجَ من الدار إخراجاً عنيفا على أسوأ الحالات ، واغتمَّ غما شديدا ، وندم على ممازحتها فى وقت لا يصلح لذاك .

ومضى حتى أتى منزل « ابن سريج » ليلاً فطرقه ، فقيل من هذا ؟ .. فقال : أشعب . ففتحوا له ، فرأى ابنُ سريج على وجهه ولحيته التراب ، والدمَ

---

(١) الاغانى حـ ١٥ ساسى ــ وانظر معه ما فى (عيون الاخبار : ٤/٩٠)

ينزف من أنفه وجبهته ، وثيابه ممزقة . فهال ابنَ سريج ما رأى ، وسأله : « ما هذا ... ويحك ؟ .. »

فلما قصّ أشعب عليه القصةَ ، قال له : إنا لله وإنا إليه راجعون ، الحمد لله الذى سَلّمكَ ! .. لا تعودَنّ إلى هذه السيدة أبدا .

قال أشعب : فَديْتُكَ ... هى مولاتى ولا غنى لى عنها . ولكن هلْ لك حيلةٌ فى أن تصير إليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عنى ؟ ..

قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبداً بعد أن تركتُه !

قال أشعب متوسلا : قد قطعتْ أملى ورفعت رِزقى وتركتنى حيرانَ بالمدينة لا يقبلنى أحد وهى ساخطة علىّ ، فالله فالله فىَّ ، وأنا أنشدُك الله إلا تحملتَ هذا الإثم فىَّ !

فأبى ابنُ سريج أن يجيب .

ولما رأى أشعب إصرارَه ، صرخ صرخةً آذن لها أهل المدينة ، ونبّه الجيرانَ من رُقادِهم . ثم سكَت فلم يَدْرِ الناس ما القصةُ عند خفوتِ الصوت الذى راعهم .

وسأله ابن سريج : ويلك ! .. ما هذا ؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تَصِرْ معى إليهَا لأصرخنّ صرخةً أخرى لا يبقى بالمدينة أحدٌ إلا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأُرِيَنّهم ما بى ، ولأعْلِمنّهم أنك أردتَ سوءا بغلامك فمنعتُك وخلَّصت الغلامَ من يديك حتى فتح البابَ ومضى ، ففعلتَ بى هذا غيظاً وأسفا ، وأنك إنما أظهرتَ النسكَ والقراءَةَ لتظفر بحاجتك من الغلام ...

فقال ابنُ سريج فى جزع : اعزبْ أخزاكَ الله ...

فأقسَمَ أشعب بكل الأَيْمان لئن لم ينهضْ معه ابنُ سريج فى وقته هذا ، لَيفعلَنّ ما به أنذَرَ ...

وإذ رأى ابنُ سريج منه الجدّ ، خرج معه فلما صاروا في بعض الطريق ، عاد يرجوه أن يمضى عنه ويدعه لشأنه ، فقال أشعب مهددا :

ـــ والله لئن لم تأتِ معى لأصيحَنّ الساعةَ حتى يجتمع الناس ، ولأقولَنَّ إنك أخذتَ منى سوارا من ذهب لسيدَتى سكينة ، على أن تجيئها فتغنيها سِرّا ، ثم كابرتَنى عليه وجحدتَنى وفَعلتَ بى هذا الفعلَ ...

فمضى معه ابنُ سريج مستسلما ضائعَ الحيلة ، حتى جاءا بيتَ السيِّدة سكينة فأذنتْ لهما فى الدخول ، وقالت لابن سريج :

ـــ يا عبيد ، ما هذا الجفاء ؟

قال : قد علمتِ ـــ بأبى أنتِ ـــ ما كان منى ...

قالت : أجل ...

ثم تحدثا ساعة ، وقصَّ عليها ابنُ سريج ما صنع به أشعب ، فضحكتْ وقالت : « لقد أذْهَبَ ما كان فى قلبى عليه » وأمرتْ لأشعب بدنانيرَ وكسوة .

ثم قال لها ابنُ سريج : أتأذنين لى بأبى أنتِ ؟

قالت : وأين ؟

فقال : إلى المنزل .

قالت : برئتُ من جَدِّى إن برحتَ دارى ثلاثاً ، وبرئتُ من جدى إن أنت لم تغنِّ إن خرجت من دارى شهرا ، وبرئتُ من جدى ان أقمتَ فى دارى شهرا إن لم أضربْك فى كلِّ يوم فيه عَشْراً ، وبرئتُ من جَدِّى إن حنثتُ فى يمينى أو شفَّعتُ فيك أحداً .

صاح ابنُ سريج مستسلما : واذهابَ ديناه ! .. وافضيحتاه ! ..

ثم اندفع يغنى :

أستعينُ الذى بِكَفّيه نفسى ورجائى ، على التى قتلتْنى

فنزعتْ سكينة من عَضُدها سواراً من ذهب ، زِنَتُه أربعون مثقالا ،

وأقسمتْ عليه إلا لبسه ، ثم بعثتْ أشعبَ إلى « عزة الميلاء » تخبرها بوجود ابن سريج عندها وترجوها فى أن تزورها .

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلَتها ببيتِ السيدة ، فلما كان اليوم الثانى هيِّىء مجلسُ الغناء ، وقالت سكينة :

ـــ يا عَزّة ، إن رأيتِ أن تغنينا فافعلى ...

فغنتْ عزةُ لحنَها فى شعر عنترة العبسى :

حُيِّيتَ مِنْ طللٍ تقادَمَ عهدُه أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما زُمّت ركابُكم بليلٍ مظلمْ

فهتف بها ابنُ سريج : أحسنتِ والله يا عزة .

وتزعت سكينةُ سوارَها الثانى وطلبت إلى عزة أن تلبسه ، ثم قالت لابن سريج : غَنِّنا ...

قال : حسبُكِ ما سمعتِ البارحةَ ...

قالت : لابد أن تغنينا فى كلِّ يومٍ لحناً

فلما رأى أنه لا يقدر على الامتناع ، غَنَّى :

قالتْ من آنتَ على ذكرٍ فقلتُ لها: أنا الذى ساقه لِلْحَيْنِ مقدارُ
قد حان منك ، فلا تبعدْ بك الدارُ بَينٌ ، وفى البَيْنِ للمتْبولِ إضرارُ

وفى اليوم الثالث ، غَنّت عزة لحنها فى شعر الحارث بن خالد :

وَقرّت بها عينى وقد كنتُ قبلَها كثيرَ بكاءٍ مشفقا من صدودها

قال ابنُ سريج : والله ما سمعتُ مثلَ هذا قط حُسناً ولا طِيبا .

ثم أمرته سكينة فغنى :

أرِقْتُ فلم أنَمْ طربا وبِتُّ مُسَهّدا نَصِبَا
لطَيْفِ أحبِّ خلقِ الله إنسانا ، وإن غَضبا
فَلم أردْ مقالَتها ولم أكُ عاتباً عتبا
ولكنْ صرّمت حبلى فأمسى الحبل منقضبا

فقالت سكينة : قد علمتُ ما أردتَ بهذا ، وقد شفّعناك ولم نَزِدْكَ ، وإنما كانت يمينى على ثلاثةٍ فاذهبْ فى حفظِ الله وكلاءته .

وأمرت له ولعزةَ بحُلّتين » .

* * *

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسناء فى إطار العصر الذى يمثله غزلُ عُمَر فيما قالوا ، والذى أوجب علينا عميدُ مؤرخى الأدب أن نرجع إلى ديوانه إذا شئنا أن نفهم المجتمع الحجازى على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة الصلة بين الرجال والنساء فيه .

أما وقد اكتملتْ هذه الصورة ، فإن لنا بعد ذلك وقفةً هنا ، نحاول فيها أن نتبين وجه الحق فى كل هذا الذى قيل ...

* * *

عَوْد عَلى بَدْء

ونحتاج بادىء ذى بدء ، إلى إعادة النظر فى تلك المسَلَّمات التى قررت أن المجتمع الحجازى قد كان حقا على ما يصوره غزَل « عمر » وأمثالِه .

وليست رغبةُ الدفاع عن بنت الإمام الحسين ، هى التى تدفعنا إلى هذا ، بقدر ما يفرضه علينا الحرص على الحق كيف كان .

أصحيح أن المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التى أبعِد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة يبليها فى العبث والمجون ؟

بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال فى طائفة بعينها من الشباب المترفين ، لو أحصيناهم فى كتب التاريخ الأدبى لما جاوزوا العشرات .

وبقيت إلى جانبهم كثرة جادة ، شاركتْ فى الحياة العامة ، فكريا وسياسيا وحربيا مشاركةً مشهودة وعاها التاريخ .

ومن الإسراف أن يقال إن الحجاز كان بمعزل عن الشؤون الكبرى للدولة على النحو الذى وصفه مؤرخو الأدب ، فى تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وإن الواقع التاريخى لَيشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التى دوَّخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر إلا بعد أن رمَوا الكعبة بالمنجنيق . وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن « الشباب الحجازى جاهَد جهادا عنيفا فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى ﷺ ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرة ، وما كان خروج الحسين بن على إلا مظهرا لهذا الجهاد ... ولكن هذا الشباب الحجازى لم يوفق » .

ومع التسليم بأن هذه الثورات المتتابعة قد أخمِدتْ ، إلا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا ، لم يُقضَ عليها إلا سنة ٧٣ هـ ، أى بعد توبة عمر بن أبى ربيعة ، التى تابها وهو فى الأربعين من عمره على ما قال مؤرخوه ، والمعروف أنه وُلِدَ فى أخريات ذى الحجة من سنة ٢٣ هـ ـــ يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب ـــ فيكون قد بلغ الأربعين فى سنة ٦٣ هـ ، والحجازُ كله يناصب بنى أمية العداء ويأبى أن يقر لهم بالخلافة ، وحركةُ ابن الزبير فى عنفوانها ، وستظل كذلك إلى عام ٧٣ هـ ، أى بعد توبة عمر بنحو عشر سنين .

فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازى فى تلك الفترة ، وأن الحجاز على عهده كان بمعزل عن الحياة العامة ، منصرفا إلى اللهو والمجون ؟ .. وأى شىء تكون حركة « ابن الزبير » التى استمرت بعد توبة عُمَرَ نحو عشر سنين ، تقضُّ مضاجع الأمويين وتحبسهم فى الشام وتزلزل الأرض من تحتهم ؟ .. أى شىء تكون هذه الحركة التى كانت غولا ، فيما وصف الأستاذ الشيخ العلايلى « وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموى »[١] .

ووقعة الحرة ، التى أشار اليها أستاذنا الدكتور طه ، قد كانت فى سنة ٦٣ هـ وفيها بلغ « عُمَر » الأربعين من عمره ، واختتم مرحلة المجون والطيش ، أو كما قالوا : « ختم عهدَ الفتكِ وبدأ عهدَ النسك »[٢] .

فإطلاق القول بأن الحجاز لم يشارك فى الحياة السياسية ، زمانَ الأمويين ، يجب أن يؤخذ بكثير من التحفظ والحرص . وإلا فقد كان الحجاز ، إبان عمر وأمثاله ، مركز المعارضة القوية التى تزعمها الإمامُ الحسينُ ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده ، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين فى دمشق ، موقف الخصم العنيد ، وثبتت فى المعركة سنينَ عددا قبل أن تُهزَم بعد حِصَار مجهدٍ[٣] . كما

---

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٨ . (٢) الاغانى : ١ / ٧٧ ط دار الكتب .
(٣) تاريخ الطبرى : الجزء السابع ط مصر .

ظلّ لها بعد ذلك كله ، نفوذُها الروحى يبسط ظِلّه على الدولة الكبرى .

وكان هذا النفوذُ من العوامل التى قضت آخر الأمر على دولة بنى أمية ، وأقامت الدولة العباسية على دعوة دينية ، تَرُدّ الأمر إلى أصحابه من آل البيت ..

وازدهار الغزل والغناء فى مكة والمدينة فى ذلك العصر ، أمرٌ لا نملك أن نشك فيه ، ولكن الذى نشك فيه ، هو أن هؤلاء الشعراء الغزليين ، يصورون بشعرهم الماجن حياةً ماجنة ! ..

أصحيح أن الحجاز كان إذ ذاك « قد أُسلِمَ إلى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر ، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحى الخطر ، لعاصمتى الدين » على ما ذهب إليه الأستاذ الشيخ العلايلى ؟[1] .

لا سبيل إلى إنكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون ، لكن تقديرهم لخطر النفوذ الدينى للحجاز ، لم يكن بحيث ينسيهم أنهم بعد فى حاجة إليه لقيام الدولة التى ورثت ملكَ الأباطرة والأكاسرة والفراعين بلواء الإسلام ، فالقضاءُ على الحرمة الدينية لمكة والمدينة ، يؤدى فى الوقت نفسه إلى القضاء على الدولة التى يتولى بنو أمية أمرها . والثابت تاريخياً أن الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة فى منازعتهم لبنى هاشم ، لكن هذا لم يُغنهم قطّ عن الاعتماد على الصفة الدينية فى مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود ، وفى استنفار المسلمين للجهاد ، فى بلاد الروم وفى الشرق الآسيوى ، والمغرب الافريقى .

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج إلى مكة فى موسم الحجِّ عاما بعد عام ، استظهاراً بهذه القوة الروحية التى كانوا فى حاجة إليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الإسلامى . والأستاذ العلايلى يعرف قبل أن أعرف ، أن القولة الخبيثة « بأن المروانيين فكروا فى صرف الناس عن المقدسات

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٩ .

الإسلامية التى تنزل من الإسلام منزلةَ الشعيرة ، بإنشاء المسجد الأموى بأبهته العظيمة فى دمشق ، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته فى تشييد المسجد الأقصى » هذه القولة الخبيثة لم يقلها إلا عدو الإسلام « الأب لامانس اليسوعى » ولم يؤيدها بشاهد أو قرينة . فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة الروحى ، يجب ألا يبعد بنا إلى ذلك الظن المتمادى ، بل يجب ألا ينسينا حاجتهم إلى الاستظهار بما يخافون منه . كما أن التسليم بأنهم مَكَّنوا لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف ، لا يجوز ان يذهب بنا بعيدا إلى القول باستئجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لإفساد مكة والمدينة ، وإلا فقد كان من هؤلاء الشعراء ، مَن هو من صميم بيوت الأنصار وحزب الإمام على ، كالأحوص ، وعبيد الله بن قيس الرقيات والفرزدق . .

وحكاية يزيد والأخطل ، لا تعين على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلى ، فما هى إلا حكاية فردية كان « يزيد » فيها موتورا لا بادئا واترا . هى كما رواها المبرد فى كتاب الكامل : « أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له فشبّب بأخته رملَةَ بنتِ معاوية وقال فيما قال :

رملَ هل تذكرينَ يومَ غزالٍ   إذ قطعنا مسيرَنا بالتمَنِّى ؟
إذ تقولين : عمرَكَ الله هلْ شيءٌ   وإن جَلَّ ، سوفَ يُسْليكَ عنى ؟

فغضب يزيد ، وأمر كعبَ بن جعيل التغلبى بهجاء الأنصار ...

فقال كعب : أأهجو الأنصارَ ؟ ... أَرَادِّىَّ أنتَ إلى الكفر بعد الإسلام ؟ .. ولكنْ أدُلُّكَ على غلام من الحيِّ نصرانى ، كأن لسانَه لسانُ ثور ــ يعنى الأخطل ــ فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة ، فى هجاء الأنصار :

خَلُّوا المكارمَ لستمُ من أهلها   وخذوا مَساحِيَكم بنى النجارِ
ذهبتْ قريشٌ بالسماحةِ والندى   واللؤمُ تحت عمائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مُغضَبين ، ودخل النعمانُ بن بشير الأنصارى على معاويةَ فحسر عمامتَه عن رأسِه ثم قال : يا معاوية ، أترى لؤما ؟ فقال : ما أرى إلا كرما . واستطرد النعمانُ رضى الله عنه ، منشدا :

معاوىَ إلا تُعْطِنا الحقَّ تَعترِفْ   لِحَى الأزْدِ مسدولاً عليها العمائمُ
أيشتمُنا عبدُ الأراقم ضَلَّةً   فماذا الذى تُجْدِى عليكَ الأراقمُ؟
فما لِىَ ثأرٌ دونَ قطعِ لسانِه   فدونَك مَنْ تُرضِيه عنكَ الدراهمُ

قالوا : فأمر معاوية بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانَه ، لولا أنه استجار بيزيد ، فما زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر إليه حتى كفَّ ... »[1] .

فالقصة — كما رواها المبرد — لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى عامة ، تقول بأن الأمويين منذ عهد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء للقضاء على الطبقة الدينية فى المدينة . بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ الدينى للأنصار ، كان من القوة بحيث يغلب سلطانَ بنى أمية ، ويجعل شاعراً مثل كعب ، يأبى أن يجيب يزيد ، ويرى فى هجائهم رِدَّةً إلى الكفر بعد الإسلام ، كما تشهد بأن معاوية لم يرضَ قط عن موقف يزيد ، بل أمر بأن يدفع الأخطلُ إلى النعمان ليقطع لسانَه .

ولست أدرى كيف فات الأستاذَ العلايلى مثلُ هذا ، وإنه لَيعلم أن الإباحية الماجنة لم تقتصر على المدينة ومكة ، بل توغلت فى دمشق ذاتها ، ولم يُعصَم منها أمثالُ يزيدَ بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، فهل يا ترى استأجر أهلُ مكة والمدينة ، مَن أغرى أمراء من بنى أمية بالمجون والعبث ؟ ..

وهل استأجروا « الأحوصَ الأنصارى » ليقول فى عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان :

يا بَيْتَ عاتكةَ التى أَتَعـزَّلُ   حذرَ العِدا ، وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل : ٢ / ٦ وما بعدها .

إنى لأمنحكِ الصدودَ وإننى قسماً إليك ، مع الصدودِ ، لأمْيَلُ[1]

أو هل استأجروا « وضّاحَ اليمن » ليقول فى « أم البنين » ما قال مما ننقل بعضَه فى فصل يلى ؟

* * *

وماذا عن غزل عمر نفسه ، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وأخته ، وغيرهما من سيدات البيت الأموى ؟

لئن يكن المجون استشرى فعلا فى الحجاز ، لقد استشرى كذلك فى الشام ، ورأيناه يستشرى من بعد فى بغداد . والأستاذ الدكتور طه نفسه يقرر « أن شباب الحجاز لم يكن يلهو إلا بمقدار وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود ، أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه إلى غيرِ حَدٍّ ، لا يخشى مراقبةً ولا يحفِلُ بسلطان »[2] .

ولو كان الخلفاء هم الذين يُغرون شبابَ الحجاز بالمجون ويُعينونهم عليه ، لما كان ثمة خوفٌ يَعصمُهم من مجاوزة الحدود ! ولَفَرضَ الخلفاء رقابَتَهم الصارمَةَ على شباب بنى أمية ، كى يَعصموهم — لا شباب الحجاز — من مجاوزة الحدود !

وقد نُقلتْ إلينا فعلاً ، أخبارٌ تشهد بأن خلفاء بنى أمية كانوا يتدخلون أحيانا ، ليردعوا شعراءَ الغزلِ الماجن فى الحجاز ، إذا تمادوا فى عبثهم وجاوزوا الحدودَ ، وأن أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجأون إلى الخليفة الأموى أحيانا ، ليحمى نساءهم من ألسنة الشعراء .

ففى رواية لمحمد بن سلام ، نقلها أبو الفرج فى أغانيه : « ان الأحوص كان ينسب بنساءٍ ذواتِ أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره مَعْبَد ومالك ، ويشيع ذلك فى الناس فنُهِىَ فلم ينته ، فَشَكَوْه إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسألوه الكتابَ فيه إلى سليمان ، ففعل . فكتب

---

(١) سمط اللآلى للبكرى : ١ / ١٥٩ . (٢) حديث الاربعاء : ٢٣٧ .

سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيمه على البلس[1] للناس ، ثم ينفيه إلى دهلك ــ وهى بلدة حَرِجة حارة ، تقع فى جزيرة فى بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن يسخط عليه بنو أمية ــ فنفذ الوالى أمر سليمان فى الأحوص ، ولبث الشاعر فى منفاه طوال عهد سليمان ، فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز من بعده ، كتب إليه الأحوص ، يستعطفه ويستأذنه فى القدوم ، ويمدحه بقصيدة استشفع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... هُديتَ ، أميرَ المؤمنين رسائلى

وقلْ لأبى حَفْصٍ إذا ما لقيتَه ... لقد كنت نَفّاعا قليلَ الغوائل

وكيف ترى للعيش طيباً ولذةً ... وخالُك أمسى مُوثَقاً فى الحبائل

« وأتى رجالٌ من الأنصار عمرَ بن عبد العزيز ، فكلموه فى الأحوص ، وسألوه أن يدعه يخرج من منفاه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه وموضعَه وقديمه ، وقد أُخرِجَ إلى أرض الشِرْك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله ﷺ ودارِ قومه . فسألهم عُمَر : فمن الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً ... فأبهتَ حتى ما أكادُ أُجيبُ !

قالوا : الأحوص ...

قال : فمن الذى يقول :

أَدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ ... بأبياتِكم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ

وما كنتُ زَوَّاراً ولكنَّ ذا الهوى ... إذا لم يزر لا بد أنْ سيزورُ

قالوا :الأحوص ...

قال : فمن الذى يقول :

كأن « لُبْنَى » صبيرُ غادية ... أو دميةٌ زُيِّنَتْ بها البِيَعُ

الله بينى وبين قَيِّمِها ... يفرُّ منى بها ، وأتَّبِعُ

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر ــ معربة .

قالوا : الأحوص ...

قال عمر : بلى ، اللّهُ بين قَيِّمها وبينَه ، فمن الذى يقول :

سَتَبْلَى لكم فى مُضْمَرِ القلبِ والحَشا   سَريرةُ حُبٍّ يومَ تُبْلَى السرائـرُ

قالوا : الأحوص .

قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، واللّهِ لا أرده ما كان لى سلطان . فبقى هناك إلى ما بعد وفاة عمر »[1] .

وما دام كتاب « الأغانى » هو مرجعنا الأول فى أخبار شعراء المجون بالحجاز فى النصف الأول من العصر الأموى ، فيجب ألا نقبل مروياته عن عَبث عمر وأضرابه ، إلا ومعها المروياتُ الأخرى التى تدل على تحرج المجتمع الحجازى من إسراف المسرفين منهم ، وتدخُّلِ خلفاء بنى أمية ، حين يجاوزُ إسرافُهم الحدودَ .

* * *

وأيّاً ما كان حال ذلك المجتمع ، فليس يهون علينا أن نتصور أن الصلة بين رجاله ونسائه يجب أن تُلتمس عند زعيم الغزليين عمر بن أبى ربيعة . فإن مجتمعا هبط من التحلل إلى ذلك الحضيض الدانى ، وتهاون فى عفة النساء وطهارة الأرحام إلى حد الإهدار ، وأباح لمثل عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، أن يتزوجوا من معشوقات ابن أبى ربيعة وبطلات مغامراته ، مجتمع كهذا لا يمكن أن تسمح له الحياةُ بالبقاء ، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو فى الحضيض .

وأيا ما كانت عزلةُ المجتمع الحجازى عن الشئون العامة للدولة ، فإن هذه العزلة المُدَّعاةَ ، لم تُعطلْ صلاتِ المصاهرة ما بين الشام والحجاز . ومن شاء فليرجع إلى (نسب قريش) ليقف على مدى نشاط هذه المصاهرة التى ربطت

(١) الاغانى : ٤/ ٢٤٨ ط الدار .

خلفاء بنى أمية ببنات هاشم رباطاً لا ينفصم ، ووصلتْ ما بين الحجاز والشام بالصلة التى لا تنحل ، وساطت دماءهما حتى ما يتزايلن . وقد بلغت الدولة العربية فى النصف الأول من العصر الأموى أوْجَ قوتها ، فكيف يَصِحُّ فى المنطق أن تقوم لهذه الدولة قائمة ، لا تحميها من أعدائها فحسب ، بل تُمكِّن لها من غزو القسطنطينية وفتح المغرب الإفريقى ، وهى التى أتلفها التحللُ ، وطاب لها أن يشهر « عمر » بخير نسائها ، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزَلياته فيهن ، فى البلد الحرام مهد الإسلام ، وفى المدينة دار الهجرة ، قبل أن يبلى قميصُ رسول الله ﷺ !

لقد صدَّقنا أن الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدفًا للكيد وسلاحا فى المعركة ، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ما قال فى رملة بنت معاوية ، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، فى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوجة الوليد بن عبد الملك ، من قصيدة له يمدح بها مصعب بن الزبير :

ألا هزأتْ بنا قرشـ ... ـيةٌ يهتزُّ موكبُها
رأتْ بى شَيْبَةً فى الرأ ... سِ منى ما أُعَيِّبُها
ومثلكِ قد لهوتُ بها ... تمامُ الحسنِ أعيَبُها
لها بَعْلٌ غيور قا ... عِدٌ بالباب يحجُبُها
يرانى هكذا أمشى ... فيُوعِدُها ويَضرِبها
ظللتُ على نمارِقها ... أُفَدِّيها وأَخلبُها
أحدثها فتؤمن لى ... فأصْدُقُها وأكذبُها
فدعْ هذا ولكنْ حا ... جة قد كنت أطلبها
إلى أمِّ البنين متى ... يقرِّبها مُقَرِّبُها
أتتْنى فى المنام فقلـ ... ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحتُ بها ... ومال علىَّ أعذَبُها

شربتُ بريقِهـــا حتـــى نهلتُ وبِتُّ أشربُهـــا
وبتُ ضجيعَهـــا جـــذلا نَ تعجبنـــى وأعـــجبها
فكـــانت ليلـــةً فى النـــو مِ نسمرهـــا ونلعبُهـــا

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا فى أم البنين ، ثم عاد فأرضاها « وبلغ منها مبلغا حسنا حتى أعجبت به وكسبت له أمانَ عبد الملك ابن مروان » بشفاعة لديها من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب !

ولكن الذى لا يهون أن نصدقه ، أن يدع المجتمع الإسلامى عمرَ بن أبى ربيعة يُشهّر بشريفات بنى هاشم وعقائل قريش وبناتِ الأئمة والخلفاء ، عن غير خصومة حزبية ، وأن يبيح له أن يجعل من بيوتهن ، بل من مخادعهن ، مجالاً لمغامراته ، ثم يطرب المجتمع إذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل الماجن !

كلا كلا ...

إنما الذى يصح عندنا ، هو أن غزلياتِ عمر وأمثاله ، كانت هزلًا لا شيء من الجد فيه ، وأن مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع فى شيء . وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل ، فتركه يهذى بالشعر كما شاء ، دون أن يخطر لمجتمع على بالٍ أن بنات هاشم ونساء قريش ، قد شُغِفن به حبا ، وأَبَحْنَه ما لا يباح !

وإذا كان « عمر » قد اختار أسماء غاداتِ عصره وحسانِ مجتمعه لقصصه وقصائده ، فما كان هذا الصنيع بالذى يمس سمعتهن أو يؤذى كرامتهن فى مجتمع يعرف « عمر » شاعرا يهيم فى وادى الخيال ، يتصيد منه مشاهد وصوراً ليست من الواقع فى شيء أو بعض شيء ، ومن ثم لم تضق الحسان باختيار عمر أسماءهن فى قصائده التى مجّد فيها الجمالَ وهام بالحسن ، بل ربما وجدن فى ذلك الصنيع مظهرَ اعترافٍ بجمالهن ، وإعلانٍ عن ملاحتهن ، وهن مطمئنات

إلى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد ، ولا يسىء الظن بمن اختار عمرُ اسمَها لقصيدةٍ من قصائده .

وأى حسناء لا يغرها الثناء ؟

ذاتُ حُسنٍ إن تَغِبْ شمسُ الضحى   فَلَنَا من وجهها عنها خَلَفْ !

أجمع النـاسُ على تفضيلِهـــا   وهواهُم فى سوى ذاكَ اختلفْ

أى حسناء ، لا يطربها أن تردد معازف المغنين اسمَها فى مثل قوله :

ليت هندًا أنجزتْنا ما تَعِـدْ   وشَفَتْ أنفسَنا مِمّا تَجِـدْ

واستبـدَّتْ مـرةً واحــدةً   إنما العاجزُ مَنْ لا يستبـد !

مجرد أسماء ، حَفَّ بها جمالُ مَنْ يحملها ، وهن بمنأى عن الريبة وسوء الظن .

أجل مجرد أسماء . وربما هام عمر مع خياله واشتط به الوهم ، فتمثل صاحبة الاسم فى جوه العابث ، وتمادى فى الخضوع لسيطرة شخصيتها الحقيقية على خياله ، فجاءت صورتها فى قصصه ، تَشِى بمعالم هذه الشخصية الحقيقية ، وإذ ذاك كان المجتمع ينكر ويغضب ، ويوقفه عند حَدِّه ، فيقف !

فَعَلَ ذلك حين هدده بنو تيم بالشرِّ ، لما رأوا فى تغزله باسمِ عائشة ، ملامحَ من بنتِ طلحة ...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل ، عندما رأوا فى تغزله باسم فاطمة ، ملامحَ بنتِ عبدِ الملك !

واستحيا عمرُ من قدامة بن موسى ، حين شاقه أن يرى أختَه زينب ، بعد أن تغزل باسمها على السماع .

وأقسمت « الثريا بنتُ على » للوليد بن عبد الملك أن عمرَ كان عفيفا ، وهو الذى ملأ ديوانه باسمِها ، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من قصائده فيها أقاصيص وحكايات !

وكفَّ عن التعرض لزوجة أبى الأسود الدؤلى ، وكانت جميلة ، فأراد أن يكلمها فعاتبه أو الأسود مرةً ، فلما عاد زجره بقوله :

وإنى لَيُثنِينى عن الجهلِ والخَنَا ‏ ‏ ‏ وعن شتمِ أقوامٍ خلائقُ أربع
حياءٌ ، وإسلامٌ ، وبُقْيَا ، وأننى ‏ ‏ ‏ كريمٌ ومِثلى قد يضرُّ وينفع
فشَتّانَ ما بينى وبينك أننى ‏ ‏ ‏ على كلِّ حال أستقيم وتظلَع

فلما لم يَرْعَوِ « عُمرَ » واعترض زوجةَ أبى الأسود حين عادت إلى المسجد ، خرج معها أبو الأسود مشتملا على سيفٍ ، فما كاد « عمر » يراهما حتى أعرض عنها متمثلا :

تعدو الذئاب على مَن لا كِلابَ له ‏ ‏ ‏ وتَتّقِى صولةَ المستأسِدِ الحامى[1]

كلا .. لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل ، دون أن يتصدى له مَن يزجره ويرده إلى التزام الحدود فيرعوى ، ولو لم يرعِو لخرج له بنو تيم وغيرُ بنى تيم بالسلاح ، ولأنْفَذَ الحجّاج وغيرُ الحجاج وعيدَه فيه ، أو لاستعدى أهلُ الحجاز عليه الخليفةَ بدمشق ، كما فعلوا حين شبّب الأحوصُ بنساء المدينة — عن غيرِ صلةٍ — ونُهِىَ فلم ينتهِ .

كما لم يكن المرعى مباحا لغير عُمَرَ من شعراء الغَزَلِ الماجن ، وقد نقل الأستاذ الدكتور طه قصة « وضّاح اليمن » الذى دُفن حَيّاً ، بعد أن تغزل بأم البنين ...

وأشفق الحارث بن خالد المخزومى[2] من الزواج بعائشةَ بنتِ طلحة بعد أن تغزل فيها ، حتى لا تقول قريش إن غزله فيها كان لريبةٍ[3] .

---

(١) الأغانى : ١٤٨/١ .

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاصى بن هشام بن المغيرة المخزومى .
انظر نسبه وحديثه مع عائشة ، فى (نسب قريش : ٣١٣) .

(٣) الأغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب — وانظر معه (نسب قريش : ٣١٤) .

وكاد ابنُ أبى ربيعة نفسُه ، يلحق بالأحوصِ ، لولا أن تداركتْه رحمةٌ : ففى أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حَجَّ بالناس وهو خليفة ، فاستدعى عمر وسأله : ألستَ القائلَ :

فكم من قتيلٍ ما يُباءُ به دَمٌ ... ومِنْ غَلِقٍ رَهْناً إذا لفّه مِنى
ومِنْ مالىءٍ عينيه من شىءِ غيرِه ... إذا راح نحو الجمرة ، البيضُ كالدُّمَى
أوانسُ يَسْلُبْنَ الحليمَ فؤادَه ... فيا طولَ ما شوقٍ ويا طولَ مُجْتَلَى !

قال : نعم . قال سليمان : « لا جرم واللّهِ لا تحضر الحجَّ العامَ مع الناس ... » وأخرجه إلى الطائف[1] . . .

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدّقوا كلَّ ما قال عمر ، وصدقوا معه أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة أو تلك من غزلياته ، « وهى قصص لا نشك فى أنها اختُرِعت بأخرَة » كما قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق .

وقد عاد بعد الذى قرره وأكده من تمثيل شعر عمر لعصره ، ولصلة النساءِ بالرجال فى مجتمعه ، عاد يؤكد أن « صلةَ عمرَ بأختِ عبدِ الملك وبنتِهِ ، وبسكينةَ بنتِ الحسين ولبابةَ بنتِ عبدِ الله بن عباس ، وعائشة بنتِ طلحة ، كانت طاهرةً كل الطهر ، بريئةً كلَّ البراءة من الإثم ... كانت لفظية لا غير »[1] .

على حين أخذ « الدكتور زكى مبارك » كل هاتيك الأخبار والقصص والمغامرات أخْذاً لَمّا ، وصدَّقها غيرَ مرتابٍ فيها ولا مُتَظَنِّن ، يقول عن عمر بن أبى ربيعة :

« ... بلى إنه رجل خليع ، وفاتنُ المنظر أخاذ ، فلابد أن يكون شعره

---

(٤) الأغانى : ٩ / ٦٨ الدار .
(١) حديث الأربعاء : ٢٩٥ .

كذلك فاتنا أخاذا ، وضاحك الثغر بسام ، فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساما ...

« ألا فليَخْلُ شِعرُهُ من التوجع ، وليَسْلَمْ نَسيبهُ من الجزع ، ولْيترك الهَمَّ لقومٍ سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم .

« علامَ يصف الليلَ ويشكو كواكبَه البطيئة ونجومَه المشكولة وفجرَه المفقود ؟ وما كان الرجل فى التفاف النساء حولَه وإقبالهن عليه . بالذى ... فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة فى جُنْح الليل ، فلا تكاد تصل إلى منزله حتى تجدَ غيرَها قد سبقتْها إليه ، فتعود آسفة حزينة !

« علامَ يشكو البينَ ، وما روَّعه نذِيرٌ بالفراق إلا بشّره بشيرٌ بالتلاق ؟ أم كيف يُبْكيه الوداعُ وهو الذى ما شَيَّعَ حبيبا إلا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمسٌ إلا أشرقت عليه شمس ! »(٢)

* * *

وماذا عن « سكينة بنت الحسين ؟ »

ماذا عنها ، بين « أخبار الملاح » فى حديث الدكتور زكى مبارك عن « حب ابنِ أبى ربيعة وشعره » ؟

بدأ فقال :

« لا يغضب قومٌ إن ذكرنا أنها كانت — فى عفافها — نَزِقةً طائشة ، تؤثر الخِفة على الوقار ، وتهوى أن يخلُد حسنُها فى قصائد الشعراء ...

« ... وما أظن هذه السيدة سَلِمَتْ فى صِلتها بابن أبى ربيعة ، من متورع يرميها على طُهرها بالخلاعة والمجون ... »

ثم قرر — قبل أن يجرد قلمَه لرسم صورتها — أنه يضمر الحبَّ والإجلال لتلك السيدة النبيلة . لماذا ؟ « لأنها قدَّرت نعمةَ الله عليها فدَلَّتْ وتاهتْ بما

---

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨١ .

وُسِمَتْ به من الملاحةِ والجمال ، وعاشتْ فى رعاية الحُسن والحُبِّ غيرَ حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلَها عن التبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء »[1] .

وآية إجلاله لتلك السيدة النبيلة ، وحبِّه إياها ، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن بأنها جعلَت منه ملاذَ متعةٍ للشعراء الماجنين : « فكانت سلسة الذوق فى اختيار الوصائف ، وكان بيتُها لذلك خفيفَ الظلِّ على الأدباء والشعراء[2] » .

ثم تمادى به القولُ فجعلها — جعل بنتَ الحسين — مرفِّهة تجعل « بيتها مألفا للمغنين . وتؤثر ترفيةَ الناس بما تستطيع تقديمَه إليهم من مُتَع الغناء ... » .

« ولو صَحّتْ قصةُ الفرزدق معها ، لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغَفْرِها تهافتَ الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان ، والشاعر لم يخلق إلا لِيَشقى بالحسنِ ويتعذب بالجمال ، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعِلمها بما كُتِبَ عليهم من سَفَهِ المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصَهم لِمَا خُلِقُوا له من عبادة الطرف الساحرِ والقدِّ الرشيق ! »[3] .

ثم ماذا ؟

ماذا بعد المرفِّهة !

بعده ما عفَّ قلمُ الدكتور زكى مبارك نفسُه عن ذكرِهِ !! فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابنِ سريج أخبارٌ رأينا أن نضربَ عنها صَفْحاً لما فى مقدماتها من مآثَمَ تقفُ عندها حدودُ الأدب المكشوف ! »[4]

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٣ .

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٨ .

(٣) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٧ .

(٤) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٩١ .

ثم كانت خاتمة حديث الدكتور عن السيدة التى أجَلَّها أن قال : « وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباءُ الأقدمون ، أما صورتُها فى رءوس الصوفية ، فهى صورة القديسة التى تسيطر على الأرض والسماء ، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون » .

وهى خاتمة تتسق مع المقدمة التى بدأ بها الحديث عن بنتِ الحسين قائلا :

« وأشرنا فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) عند الكلام عن الباطنية ، إلى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وأن الدعاة نجحوا فى حشْوِ تلك الرءوس الجوفاء (!) بالخرافات والوساوسِ والأضاليل ، وضرَبْنا المثلَ بالمعبودات الصغيرة التى تسكنُ سماءَ القاهرة من عِتْرةِ سيدنا الحسين ! »

وصورة السيدة سكينة فى رءوس المسلمين (الجوفاء) هى بعض هاتيك الخرافات والأضاليل ...

وأما صورتها التى جرَّد الدكتور زكى مبارك قلَمه لرسمها ، صورة المرفِّهة ، فهى « صورة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كُتب عنها فصلٌ فى مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، لَتَلَقّاه أهلُ الغرب بالقبول ، وعَدُّوا حياتَها المرحة دليلا على تأصُّلِ الحضارة فى تلك الأسرة التى سادت الشرق زمناً غير قليل ! »

يعنى : الأسرة النبوية !

ووالله إنه ليظلم الغرب بهذا ...

وإلا فلو أن مثل هذه الصورة التى رسمها لسكينة ، نُشرت فى مجتمع (هوليوود ومونمارتر) ، لعُدّت دليلا على مدى هبوطه وانحلاله ، وما قضية المجلة الأمريكية التى نشرت بعض فضائح غوانى هوليوود ، عنا ببعيد ...

لكنها عند « الدكتور زكى مبارك » دليلُ تأصُّل الحضارة فى الأسرةِ الهاشمية النبوية !

وهى ، كذلك ، دليلُ جاهٍ للطبقة العالية من قريش ، وأما العامة والمغمورون فشأنُهم غير ذلك .

نقل الدكتور زكى مبارك فى كتابه ، أن رجلا من بنى جُمَحَ وُلِدَتْ له جاريةٌ حسناء ، فقال : كأنى بها وقد كبرتْ فشبّب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوّه باسمِها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمتُ بمكة ! ورحل بابنته إلى البصرة ، ليتقى لسانَ عمر ![1]

ويجوز فى منطق الدكتور ، أنْ لو كان ذلك الأبُ هاشميا شريفا ، لطرب لغزلِ عُمَرَ فى نساء بيته ، كما زعموا أن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين على بن الإمام الحسين عليهم السلام ، أُنشِدَ إحدى غزليات عمر — المقول فى روايةٍ إنها فى سُكَينة — فطرب وارتاح ، حتى إذا بلغ قولَ عمر :

ليس بين الحياةِ والموتِ إلا أن يَرُدُّوا جِمالَهم فتزمّا

جعل الإمام الصادق يقول : عَجّلوا البَيْنَ ! أفلا يُوكون قِرْبة ؟ أفَلا يودِّعون صديقا ؟ أفلا يشدون رحلا ؟ .. حتى جرت دموعه ![2]

وكذلك كانت هذه الصورة التى فتنت الدكتورَ زكى مبارك ، سِمَةَ الحرائر عنده!

وأما الإماءُ المغنيات فلهن صورةٌ أخرى ، يُمثِّلها عنده الخبرُ الذى نقله من كتاب الأغانى عن « جميلة » المغنية « أنها لما قضت حجّها سألها المكيون أن تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناءِ أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعا . فقالت : ما كنت لأخلطَ جِدّاً بهْزلٍ . وأبتْ أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : اقسمتُ على من كان فى قلبِه حبٌّ لاستماع غنائها ، إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج » .

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٢٨ .
(٢) الاغانى : ١٧١/١ دار الكتب .

وتبعوها إلى المدينة ، حين أصرت على ألا تخلط جِدّاً بهزل ، فتجلس للغناء فى مكة وقد سَعَتْ إليها حاجّة !

ولو كانت حرة شريفة ، كبنت الحسين ، لكان لها فى ميزانه شأن آخر ...

ولا تعجب إذ يتمثل « الدكتور زكى » السيدةَ سكينة : « نَزِقَةً طائشة ، متبذلةً فى مخالطةَ المغنين وملابَسةِ الشعراء ، حريصة على الترفيه عنهم » . . وهى التى ودعها زوجها« مصعب » حين تهيأ للخروج إلى عبد الملك ، فصاحتْ من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ! فالتفت إليها وقال : أوَكلُّ هذا لى فى قلبك؟ قالت : إى والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنتُ أعلم أن هذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال .

أجل لا تعجب ، فقد مُسِخت القيَمُ عند صاحب « حب ابن أبى ربيعة » وانعكست الأوضاعُ فى تقديره ، فصار هذا الضبطُ العاطفى — حتى فى مخدع الزوجية — دليل نَزَقٍ وطيش ، مثله مثلُ التبذُّل الماجن الذى عدَّه مظهرَ أصالةٍ فى آل السيدة سكينة ، والتحرج الخاشع الذى عدَّه سِمَةَ القيانِ الإماء ، فى جميلة المغنية .

ولا تسأله أين كان بنو هاشم ، وأين كان الإمام زين العابدين ، وعمرُ يرفع عقيرتَه بالغزل فى سكينة ، وبيتُها قد صار « مألَفاً للمغنين ملاذا للشعراء المخلصين لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق » ؟ فمِثْلُ الإمام زين العابدين ، عنده ، مَنْ لا يغضب لأختِه حين غَضِب « ابنُ أبى عتيق » — فيما نقل الدكتور[1] — لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية ، لما تغزل فيها عمرُ على السماع ، فردَّ عليه عمر :

لا تَلُمْنى عتيقُ حسبى الذى بى	إن بى يا عتيقُ ما قد كفانى
لا تَلُمْنِى وأنتَ زيَّنتَها لى	أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسان

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ٥٣

ومثلُ بنى هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو تيم ابن مرة ، وولدُ طلحة بن عبيد الله ، لأختِهم عائشة ، وتوعّدوا عمرَ إنْ هو تغزل بها أن يؤدِّبوه ، فأقسم لهم بالله ألا يَذكرَها فى شعرٍ أبدا ...

مثلُهم من لا يغار على سكينة ، كما غار أبو الأسود الدؤلى على زوجته ، أو كما غار الحجاج بن يوسف الثقفى على فاطمة بنت عبد الملك — وليستْ من ثقيف — فكتب إلى عمرَ يتوعده بكلِّ مكروه إن ذكرها فى شعره ...

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فإنما يُسألُ مَنْ يُحاسبُ قلمَه ، ويتقى الحق والضميرَ فيما يكتب ، ويحترم عقله وعقول الناس .

وإنما الذى كان يجوز أن يُسأل فيه — رحمه الله — هو : كيف فاته أن ينقل الشعرَ الذى قيل إن الأحوص الأنصارى تغزل فيه بسكينة ؟ فمِنْ أخبارهم أن كلَّ غزل الأحوص بعقيلة ، هو فى سكينة بنت الحسين ، وإنما كنى عنها باسم عقيلة[1] .

وقد عدَّه بعضُ أهلِ عصره أنسبَ الناس بقولِهِ فى عقيلة :

يا لَلرجالِ لِوجْدِكَ المتجددِ ولما تؤملُ من عقيلةَ فى غد

ترجو مَواعِدَ ، بَعْثُ آدمَ دونَها كانت خبالاً للفؤاد المقصد

هل تذكرين «عقيلَ» أو أنساكِه بَعدى تَقلُّبُ ذا الزمان المفسد

يَوْمى ويومَك بالعقيق إذ الهوى منا جميعُ الشمْلِ لم يتبدد !..[2]

وأغلب الظن عندى أن الدكتور زكى مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ، و لم يقرأ الخبر القائل بأن عقيلة هى سكينة ، وإلا لتعلّق بها وجَزَمَ مؤكداً أن أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا فى سكينة ، وأن ليوم العقيق هذا شأناً أخطرَ من ليلة الصورين !

---

(١) الاغانى : ٤/٢٦١ دار الكتب .

(٢) الاغانى : ٤/٢٥٩ دار الكتب .

كلِمة يَجِبُ أنْ تقال

لا أدع الحديث عن « بنت الحسين » فى أخبار الرواة والقصاصين ، دون أن أسجل هنا كلمةَ الشيعة فى كلِّ هذا الذى قيل عنها ونُسب إليها .

إنهم يذهبون إلى أن أكثر هذه الأخبار والأقاويل من مفتريات الأمويين وأشياعهم . ويستدلون على هذا بأدلة :

منها : ما ذكره السيد الفكيكى من أن « أبا على القالى » قد ارتجل أماليه وهو فى كَنَفِ تلميذه الحكَم الأموى فى الأندلس ، فأملى فيها ما أملى عن « سكينة بنت الحسين » ولم يذكر شيئاً من أشعار ابن أبى ربيعة التى تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم . كما أهمل أشعارَ ابنِ أبى ربيعة فى رملةَ وفى أختِ الحجاج ، ولم يحفظ إلا رواية المغنين المقلوبة فى « سكينة » عليها السلام[1] .

ومنها : أن خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحملِهِ على الغناء فى دار سكينة مع عزة المغنية ، قد ورد فى الجزء الخامس عشر من الأغانى ، ولم يُشر إليه أبو الفرج فى ترجمة ابن سريج وأخباره التى أوردها فى الجزء الثانى من أغانيه ، مما يدل على أن هذه القصة قد أُدخلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدَث بعد شراءِ الحكَم المستنصر الخليفة الأموى (كتابَ الأغانى) بإشارة أستاذه أبى على القالى بعد رحلته إلى الأندلس ، مع العلم بأن كتاب الأغانى قد نشره

(١) يشير هنا إلى قصيدة عمر : * قالت سكينة والدموع ذوارف * وقد رواها ابوالفرج مرة : * قالت سعيدة والدموع ذوارف * قلبها المغنون فقالوا * سكينة * وارجع فى أقوال السيد الفكيكى إلى كتابه « السيدة سكينة » .

الحكَمُ الأموى بإشراف القالى فى الأندلس ، قبل نشر نسختِهِ الأصلية فى بغداد .

ومنها : أن أصحاب النهضات الهاشمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية فى وجوه ملوكِ بنى أمية وولاتهم ، من جرَّاء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروحِ الإسلام وتعاليمه . وقد رموا يزيدَ بن معاوية بالفسق ، وكفّروا الوليدَ بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أن الوليد أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز فى قناة الهاشميين الكرام بمثل ما فى كتاب الأغانى ، ولو كان أحدُ الأمويين يعلم أن السيدة سكينة قد جعلت دارَها ملهى ، لطبّلوا به وزَمّروا . وكلُّ ما قاله معاوية للإمام الحسين رضى الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد :

« مهلاً عن شتم ابن عمك ، فإنكَ لو ذُكِرتَ عنده بسوءٍ لم يشتمك » .

وأما عبد الملك بن مروان ، فقد قال فى حقِّ زوج سكينة ، مصعب بن الزبير ، خصمه الألدّ : « لو علم أن الماء ينقص مروءته ما شَرِبَه » وسأل عبدُ الملك يوما — بعد مقتل مصعب — أصحابَه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم . ثم سألوه رأيه فأجاب :

« هو مصعب بن الزبير ... وعنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة » .

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينة . فأنكر أهلوها وغضبوا وكانت معركة — رواها صاحب الأغانى نفسه — هذه الحكاية قد تكفى لدحض فرية مجالس الطرب التى كانت سكينة رضى الله عنها تحييها فى دارها وتأذن إذنا عاما لأهل المدينة « وقومُها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون ... » .

* * *

وكلُّ هذا الذى فى ردِّ السيد الفكيكى ، مما يجوز أن يقال ، فلا نراه بعيدا ..

كما لا نستبعد كذلك أن يكون كثير مما أضيف إلى أميرات البيت الأموى من صنع هذه الخصومة العنيفة الجامحة ! ... كتلك القصة المنكرة التى زعمت أن أم البنين ــ بنت عبد العزيز المروانى ، وزوج الوليد بن عبد الملك ــ أَحَبّتْ وضاحَ اليمن وأحبها ، وحدث أن أرسل اليها الوليد هدية من جوهرٍ أعجبه ، مع خادم له : « ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا ، فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهَرَ من الخادم وقد رأى ما صنعتْ فطمع فيها . وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب إليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر . فلما أبَتْ عليه ذلك انصرف محنقا إلى الخليفة فأنبأه بما رأى . فنهض من فوره ودخل على زوجته فإذا هى تتمشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث إليها فى ملاطفة حتى سألها أن تهديه هذا الصندوق فلم تستطع رده . فأمر فاحتُفرت بئر وألقى فيها الصندوقُ وهيل عليه الترابُ وسُويت الأرض ، ولم يعرف أحد لِوضاحٍ خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا » .

لوضاح هذا قصيدةٌ ، من أبياتها :

قالت : ألا لا تَلِجَنْ دارَنا	إن أبانـا رجـلٌ غائـر
قلت : فإنى طـالبٌ غِـرَّةً	منه ، وسَيْفِى صارم باتـر
قالت : فإن القصرَ من دوننا	قلت : فإنى فوقـه ظاهـر
قالت : فإن البحر من دوننا	قلت : فإنى سابـح ماهـر
قالت : فَحَوْلى إخْوَةٌ سبعة	قلت : فإنى غـالبٌ قاهـر
قالتْ : فليثٌ رابضٌ بيننـا	قـلت : فـإنى أسدٌ عاقـر
قالت : فإن اللّهَ من فوقنا	قلت : فربِّى رَاحِمٌ غافـر
قالت : لقد أعْيَيْتَنا حُجَّـةً	فَأتِ إذا ما هَجع الساهر
فاسقُطْ علينا كسقوطِ الندى	ليلةَ لا ناهٍ ، ولا زاجرُ !

والقصة مسرحُها قصر الخلافة بدمشق ، وليس فى مكة والمدينة اللتين استأجر لهما الأمويون الماجنين والمخنثين لإهدار حرمتهما الدينية ، ولإفساد الشباب الحجازى عن قصد وعمد ... فيما يؤكد لنا مؤرخو أدبنا ! ...

* * *

وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل : متى ظهرت « السيدة سكينة » فى المجتمع طليقة متحررة ، وشاركت فى التاريخ الأدبى لعصرها ؟ ...

الأخبار التى بين أيدينا ، تشير إلى أنها ظهرتْ لأول مرة فى موسم الحج سنة ٦٠ هـ ، حين صحبت أباها رضى الله عنه فى هجرته من المدينة إلى مكة ، وقد كانت إذ ذاك فى ربيعها الثانى عشر أو الثالث عشر . وغيرُ بعيد أن تكون قد لفتتْ إليها الأنظار بنضرة صباها وحيويةِ مَرَحها وبهاء طلعتها . ولكن مهابَةَ أبيها الحسين الإمام ، كانت كافية وحَدها لأن تلجم الألسنة . . . فما جرؤ أحدٌ على الزعم بأن اسمَها ذُكِرَ على لسان أى شاعر ، فى قصائد الغزل .

فهل ترى حُلّت عُقدةُ لسانهم ، بعد عودتها إلى المدينة إثر فاجعة كربلاء ؟ ...

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت فى مأتم عام لسيد الشهداء ، وأن أمها « الرباب » قد أمضت عاما بأكمله حادَّةً حزينة ، حتى لحقت بزوجها الشهيد[1] . وأن « أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية ، زوج الإمام على ابن أبى طالب » : « كانت تخرج إلى البقيع كل يوم ، فتبكى أبناءها الأربعة ، أعمام سكينة ، الذين استُشهدوا مع أخيهم الحسين فى كربلاء : عبدَ الله ، وجعفرَ ، وعثمانَ ، والعباسَ ، بنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فتلبث نهارَها هناك تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقَها ، فيجتمع الناسُ إليها يسمعون منها ، فكان مروان يجىء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتَها ويبكى »[2] .

---

(١) تاريخ ابن الأثير (الكامل) : ٧٣/٤ ــ وانظر معه (مقتل الحسين : ٤٥٣ وما بعدها) .
(٢) مقاتل الطالبيين : ٨٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢٦٩/٦ .

فهل ترى كان يحدث هذا ، وسكينةُ تعقد مجالسَ الغناء فى دارها ، وتواعِدُ « عمرَ » الصورينَ ذاتَ ليلةٍ ، استجابةً لرغبة نسوةٍ شاقهن مجلسُ ابن أبى ربيعة ؟ ...

هل كان مروان بن الحكم ، يسمع أم البنين تندب أعمامَ سكينة ، فيبكى لها ، وسكينةُ تبكى بدموع ذوارف على الخدين والجلباب ، لفراقِ عمر بن أبى ربيعة ، وتصغى إلى شدو المغنين بقولها على لسانه :

ليت المغيرىَّ الذى لم أَجزِه فيما أطال تَصيُّدى وطِلابى !
كانت تَرُدُّ لنا المُنى أيامَنا إذ لا تُلامُ على هوىً وتصابِ.. !

فلعل عمر إذن ، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها إلى مصر مع عمتها السيدة زينب عقيلة بنى هاشم ؟

الذين أرَّخوا للسيدة زينب ، ذكروا وفاتها فى شهر رجب سنة ٦٢ هـ ، وقد ثوت فى مرقدها الأخير هنالك[١] ، وآبت سكينة من رحلتها مضاعَفَةَ اليُتم ، لتشهدَ بعد ذلك ثورة أهلِ المدينة على بنى أمية ، وخروجَهم على « يزيد بن معاوية ، لِقلة دينه » وهى الثورة التى انتهت بموقعة الحرَّةِ ــ بظاهر المدينة ــ حيثُ استشهد من أولاد المهاجرين والأنصار ثلاثمائة رجل وستة ، وعددٌ من بقية الصحابة الأولين ، وهُجِرَ المسجدُ النبوى فلم تُقَمْ فيه صلاةُ الجماعة لمدى أيام[٢] .

والمقول إن عمر تاب توبته المشهورة فى ذلك العام ، وشُغِلَ العالم الإسلامى بعد ذلك بقيام (حركة التوَّابين) فى العراق ، ندمًا على عدم نصرة الإمام الحسين الشهيد ، فلم يروا كَفّارةً دون القتل فى الثأر له ولصحبه .

فهل ياترى ، كانت سكينة تصم أذنيها عن هتاف التوابين ، لترغم « ابنَ سريج » على الغناء فى دارِها مع عزةَ الميلاء ، وتَفْتِنَه عن توبتهِ عن الغناء ؟ ...

---

(١) العبيدلى النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات ــ ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥/٧ ــ ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها .وانظر شذرات الذهب : ٧٠/١ .

وقد رأيناها بعد ذلك تُشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم ترجع بعد مصرعه إلى المدينة مقهورةً محزونة ، فلا تكاد تطوى جرحَها فى الأعماق حتى تتزوج من عبد الله بن عثمان الحِزامى ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة بعيدا عن أضواء المجتمع ، فلما ترملتْ ، بعد أن أرهقها التيارُ جَذْباً ودفعا ، وأنهكها الموجُ شَدّاً وإرخاء ، بدأت تظهر فى المجتمع ، وقد هبطت بها موجةُ الأحداث والأرزاء إلى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، فى زواجها الفاشل من زيد بن عمرو العثمانى ، هى آخر الشوط فى المقاومة ، ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسةَ التى ضجِرتْ ، وجَرَّبت ، وكابَدَتْ ، وشربت الكأسَ حتى الثمالة !

وظهرتْ فى المجتمع ، وكانت وقتئذ ، فى منتصف العقد الخامس من عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكى مبارك ، أن يتصورَها فى هذه السِّنّ العالية « تعيش فى رعايةِ الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتنها على ألسنة الشعراء » .

وغيرُ عجيب أن يجوزَ عنده كذلك ، أن يكون « عمرُ » قد شهد معها ليلة الصورين ، وملأ الأفق الحجازى بقصائد غزلهِ فيها ، بعد مضى ثلث قرن على توبته !

وأما الذى يجوز عندنا ، فهو أن « سكينة بنت الحسين » قد شغلَتْ من ذلك الوقت ، دوراً آخر فى المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة .

وهذا ما نفرغ له فى المبحث التالى ...

الأديبَة الناقِدَة

لم يع تاريخ الأدب للسيدة سكينة غيرَ أبيات معدودات ، كتلك التى قيل إنها رثتْ بها أباها رضى الله عنه :

لا تعذُليه فَهمٌّ قاطعٌ طَرَقَهْ — فعينُه بدموعٍ ذُرَّفٍ غَدِقَه
إن الحسين غداةَ الطّفِّ يرشقُه — ريبُ المنونِ فما أن يخطىء الحدقَهْ
بكفِّ شرِّ عبادِ اللّهِ كلهم — نسلِ البغايا ، وجيشِ المُرَّقِ الفَسَقَه
أأمَّةَ السوءِ هاتوا ، ما احتجاجُكمُ — غداً ، وجُلُّكمْ بالسيفِ قد صَفَقَه
الويلُ حَلَّ بكم ، إلا بمن لَحِقَه — صيرتموه لأرماحِ العِدَا دَرَقَه
يا عينُ فاحتفلِى طولَ الحياةِ دَماً — لا تبك ولدا ولا أهلاً ولا رفقه
لكنْ على ابنِ رسولِ اللّهِ فانسكبى — دماً وقيحاً ، وفى أثرَيهما العلَقه[1]

* * *

وبيتين اثنين ، فى رثاء زوجها مصعب بن الزبير :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجدَ الذى — يرى الموتَ إلا بالسيوفِ حَراما
وقبلَك ما خاضَ «الحسينُ» منيةً — إلى القوم حتى أوردوه جِمَاما

وهى أبياتٌ لا تكفى لِعَدِّها شاعرة !
غير أنى لا أكاد أرتاب فى أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر فى غير الرثاء !

فتلك شنشنة نعرفها من أخزم !
إنهم قصروا المجالَ الفنى للمرأة العربية على الرثاء ، وقلَّ أن اعترفوا بها شاعرةً غير راثية .

---

(١) أمالى الزجاج : ١٠٩ .

فعلوا ذلك مع الخنساء !

وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب ، ذيّلوا بمراثيهن ديوانَ الخنساء المطبوع فى بيروت .

وفعلوه مع « الرباب » بنت امرىء القيس أم سكينة . قالوا : هى شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات فى رثاء زوجها ..

وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات ، إلى قصر ابن زياد . وقد نقلناهما فى الحديث عن كربلاء .

وما بمثل هذه الأبيات ، تُعَدُّ « الربابُ » شاعرةً كما وصفوها ! ..

على أن التاريخ الأدبى ، وإن أسقط شعر « سكينة » فى غير الرثاء ، فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها فى مختلف عصوره ، حين ألقى إليها مقاليد الحكم بين أمراءِ الفن فى الشعر والغناء .

وأقرّ لها بالسيطرة الأدبية على عصرها فى مجال النقد الأدبى ، حين فرضت عليه شخصيتَها الفريدة ، وبهرته بذوقها الفنى الأصيل الذى هيّأ لها أن تكون ذاتَ بصَرٍ دقيق بفنِّ القول ، وفقهٍ لبيان العربية فى التعبير .

* * *

وكانت الأصالة هى الطابع المميز لها ذوقا وحِسّاً ، بقدرِ ما كانت الطابع المميزَ لها نسَباً وجَمَالاً وأناقة .

وليس صحيحاً أن أمراء الشعر فى زمانها إنما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها وهيبة شرفها ، كما ذهب الدكتور زكى مبارك ، فما لجمالِ الأنثى جبروتٌ فى سِنِّ الكهولة والشيخوخة ، وهى بعدُ لم تنفردْ بالحسن دون بناتِ جيلها ، بل شاركتْها فيه أخريات يكفى أن نذكر منهن أختَها « فاطمة بنت الحسين » التى قيل فيها ، يوم اختارها أبوها رضى الله عنه لابن عَمِّها الحسن : « إن امرأة مردودتُها سكينة ، لمنقطعةُ القرين فى

الحُسن » . كما نذكر ضرتَها عائشة بنت طلحة ، التى خلبتْ ألبابَ الشعراء فى عصرها ، والتى ذكروا أن أبا هريرة رضى الله عنه قال فيها : سبحاَن الله ، لكأنها من حُور الجنة . . .

كذلك لم يكن شرف السيدة سكينة هو الذى ألقى إليها مقاليدَ الحكم الأدبى وأخضع لها الشعراء ، وإلا لشاركتها فى مكانتها هذه ، أختُها فاطمة وبناتُ عمِّها الحسن ، حفيدات الزهراء مثلها الطالبيات الهاشميات .

وإنما كانت سيطرتها الأدبية ترجع فى الحقيقة إلى عُلُّو كعبها فى فنِّ القول ، وحساسيتها المرهفة فى ذوق الشعر ، وإدراكِها البصيرِ لمواقع التأثير وأسرارِ البلاغة والبيان .

ولولا أنها كانت نادرةَ عصرِها بَصَرا بالشعر وفقهاً للعربية ، لما اعترف لها التاريخُ الأدبى بمثل تلك المكانة ، وهو الذى أسقط شعرَها من ديوان الأدب ، وجحدَ شاعريتهَا وشاعريةَ الإناث مثلِها ، إلا أن تكُون راثية !

وبين أيدينا خَبَرٌ ، قد يوضح لنا السببَ الذى من أجله أُلقيت إلى السيدة سكينة مقاليدُ النقد الأدبى فى عصرها . نصُّ الخبر :

« أنشِدت سكينةُ بنت الحسين قولَ الحارث بن خالد ، فى وصفِ النساء ، فى الحج :

ففَرغْنَ من سبعٍ وقد جَهِدَتْ   أحشاؤهـــن موائــل الخُمُـــرِ

فسألت سكينة مَن بالمجلس : أَحَسَنٌ عندكم ما قال ؟ . . . قالوا : نعم .

فقالت : وما حُسنه ؟ ! ... فواللّهِ لو طافت الإبل سبعاً لجهدِتْ أحشاؤها »[1] .

لقد غاب عنهم ما لم يَغِبْ عن السيدة سكينة ، وفاتهم أن ينتبهوا إلى ما انتبهت إليه بحِسِّها المرهَف !

---

(١) الاغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب .

والقدْرُ الذى وعاه لها التاريخُ الأدبى فى النقد والتحكيم والموازنة ، يكفى للدلالة على منزلتها الرفيعة فى المجتمع الأدبى ، ويقدم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية ، تُفَسِّر لنا ، لِمَ آثرها عصرُها بهذه المنزلة التى لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا (كتاب الأغانى) وفيه ما فيه من أخبار ومروياتٍ كتلك التى سمعناها ، ينقل روايةً عن محمد بن سلام ، تؤازرها روايةٌ مثلُها عن عَمَرَ بن شَبّة : « اجتمع جرير والفرزدق وكُثَيِّر وجميل ونُصَيب ، فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، فمكثوا أياما ثم أذِنَتْ لهم فدخلوا عليها ، فقعدتْ حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامَهم . ثم أخرجتْ وصيفةً لها قد روت الأشعارَ والأحاديثَ ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل ؟

هما دَلّتانى من ثمانين قامةً ... كما انحطَّ بازٌ أقتمُ الريشِ كاسِرُه
فلما استوتْ رِجلاىَ بالأرض قالتا : ... أحَىٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ نُحاذِرُه
فقلتُ: ارفعوا الأمراسَ لا يَشعروا بنا ... وأقبلتُ فى أعجازِ ليلٍ أُبادِرُه
أبادِرُ بَوَّابَيْنِ قد وُكِلَا بنا ... وأحمرَ من ساجٍ تَبصُّ مسامرُه !

قال : نعم ...

قالت : فما دعاكَ إلى إفشاء سِرِّها وسِرِّك ، هلا سترتَ عليك وعليها ؟ خذ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك ...

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل ؟

طرقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا ... حين الزيارةِ فارجعى بسَلامِ
تجرى السِّواكَ على أغرَّ كأنه ... بَرَدٌ تحدَّر من متونِ غَمامِ
لو كان عهدكِ كالذى حدثِتنا ... لوَصلتِ ذاك وكان غيرَ لمامِ
إنى أواصلُ مَنْ أردتُ وصالَه ... بحبالٍ لا صَليفٍ ولا لَوامِ

قال : نعم ...

قالت : أوَلاَ أخذتَ بيدِها وقلتَ لها ما يقال لمثلِها ؟ ... أنت عفيفٌ وفيكَ ضعف . خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك ...

« ثم دخلتْ إلى مولاتها وخرجتْ فقالت : أيكم كُثَيِّر ؟ ... قال : هأنذا .

قالت : أنتَ القائل ؟

وأعجبنى يا عَزَّ منكِ خلائـقٌ ... كرام اذا عُـدَّ الخلائقُ ، أربـعُ

دُنُوُّكِ حتى يدفع الجاهلَ الصِّبا ... ودفعُك أسبابَ المُنى حين يَطمعُ

فواللّهِ ما يدرى كريمٌ مُمَاطـل ... أينساكِ إذ باعدتِ أو يتَصدَّ عُ !

قال : نعم ...

قالت : ملحت وشكلتَ ، خذ هذه الثلاثةَ الآلافَ والحقْ بأهلك ...

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجت فقالت :أيكم نُصَيب ؟ ... قال : هأنذا .

فقالت : أنت القائل ؟

ولولا أن يُقـال : صَبـا نُصَيْبٌ ... لقلتُ : بنفسىَ النشأُ الصغـارُ

بنـفسى كـلُّ مـهضومٍ حَشَاهـا ... إذا ظلَـمتْ فليس لها انـتصارُ

قال : نعم ...

فقالت : ربيتَنا صِغاراً ومدحتَنا كبارا . خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك .

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ فقالتْ : يا جميلُ ، مولاتى تُقرئك السلام .

وتقول لك : واللّهِ ما زِلتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولَك :

ألاليت شِعرى هل أَبيتـنَّ ليلـةً ... بوادى القرى ، إنى إذَنْ لَسَعِيد

لكـلِّ حـديثٍ بـينهن بشاشةٌ ... وكـلُّ قتيـلٍ عندهـن شهيـدُ

جعلت حديثَنا بشاشة ، وقَتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينارٍ والحقْ بأهلك[1] .

---

(١) الاغانى : ١٤/١٦٦ وما بعدها ـــ ساسى .

وليس يفوتنا ما للنص من دلالات :

منها ، أن أمراء الشعر فى عصرها كانوا يجتمعون فى دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت وصيفةً لها تنقل إلى كل منهم مختارَها من شعره ورأيَها فيه . فعلتْ ذلك مرةً بعد مرة . فكلما فرغتْ من شاعر دخلتْ على مولاتها وعادت برسالة منها إلى شاعر آخرَ . . وهى السيدة التى وصفها الدكتور زكى مبارك بالتبذلِ فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء . . .

وقد أنكرتْ على « الفرزدق » إفشاء سِرِّه وسرِّ صاحبته ، والأخبار تزعم مع هذا أنها طربت لغناءِ الغريض بشعر « عُمَرَ » فيها ، وقد أفشى به سرَّ ليلةِ الصورَين !

وأثنت على « جرير » لعفة شعره ، وإن أنكرت ضعفَه وأسلوبَه فى مخاطبة زائرته .

وأعجبتْها أبياتُ « كُثَيِّر » فى وصفِ صاحبتِهِ ، لما لمحتْ فيها من دِقة التعبير عن عِزَّةِ الأنثى ، وطبيعة حواء ...

* * *

وخبرٌ آخر ننقله من (الأغانى) على علاته ، وهو صريحٌ فى احتكام الشعراء أو رُواتِهم إليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر . قالوا : « اجتمع بالمدينة راويةُ جرير ، وراويَةُ كُثَيِّر ، وراوية جميلٍ ، وراويَةُ نصيب ، وراويَةُ الأحوص ، فافتخر كلُّ رجلٍ منهم بصاحبه وقال : صاحبى أشعر .

« فحكَّمُوا سكينةَ بنت الحسين بن على عليهما السلام ، لِمَا يعرفونه من عَقْلِها وبصرِها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذِنَتْ لهم ، فذكروا لها الذى كان من أمرهم فقالت لرواية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتْكَ صائدةُ القلوب وليسَ ذا   وقتَ الزيارة فارجِعــى بسلامِ

أى ساعة أحلى من الطروق ؟ ... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبَّح شعره ...

« ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبُك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقرُّ بعينِها وأحسَنُ شيءٍ ما به العينُ قَرَّتِ

أفيُحب صاحبُك أن يكون أنثى ؟... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبّح شعره ...

« ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبُك الذى يقول :

فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها ولكنْ طِلابِيها لما فَاتَ منْ عَقْلى

فما أرى بصاحبِك من هوى ، إنما يطلب عقلَه ! ... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبّح شعرَه ...

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهِيمُ بدَعدٍ ما حَييتُ فإن أَمُتْ فوا حَزَنا مَنْ ذا يَهيمُ بها بعدى

فما أرى له همةً إلا فيمن يتعشقُها بعده ! .. قبّح الله صاحبَك وقبّح شعرَه ... ألا قال :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ فلا صلحتْ دَعْدٌ لذى خُلّةٍ بعدى ؟

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبُك الذى يقول :

من عاشقين تراسَلا وتواعدا ليلاً إذا نجمُ الثريا حَلّقا

بَاتَا بأنْعَمِ ليلةٍ وألَذِّها حتى إذا وضح الصباحُ تَفَرَّقا

قال : نعم ...

قالت : قبَّحه الله وقبّح شعرَه ! . . . ألا قال تعانقا ؟ . . . »[1]

ودلالة النص ، أن سكينة كان إليها الاحتكامُ إذا اشتجر الخلافُ بين رواة الشعراء أى أصحابهم أشعَرُ ، وأنها كانت واعية للشعر حافظة ، تعرف مآخذَ الشعراء وتقسو فى محاسبتِهم على عَثَراتهم . ولفتاتُها النقدية دقيقةٌ بارعة ، وهى جديرة بأن تعينَ على فهمِنا لعصرِ سكينة الأدبى ، على ضوء الاعتبارات الفنية التى كانت الناقدةُ الأولى للعصرِ ، تصدر عنها أحكامها فى ذوقِ الشعر ، ووزنِ الشعراء .

(١) الاغانى : ١٦٦/١٤ ساسى .

ولم يكن إعجابها بشاعرٍ ، يَحميه من قسوتها فى مؤاخذته ، فهذا « جرير » الذى أنكرتْ عليه ضعفَه وسوء أدبه فى مخاطبة النساء حيث قال :

طرقَتْك صائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيارةِ فارجعى بسلامِ

كانت ربما قدمتْه على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فيهما دون مجاملة : حدَّث الشعبى : « أن الفرزدقَ خرج حَاجًا ، فلما قضى حجّه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فسَلّم ، فقالت له : يا فرزدق ، مَن أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، أشعرُ منك الذى يقول :

بنفسى مَن تَجَنُّبه عزيزٌ علىَّ ومَن زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمسِى وأُصبِحُ لا أراه ويطرقُنى إذا هجع النيامُ

فقال لها : واللّهِ لو أذنتِ لى لأسمعتُك أحسنَ منه . ثم أمرتْه فانصرف . فلما كان الغدُ استأذَن عليها فسألتْه : يا فرزدق ، مَن أشعرُ الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ! صاحبُك « جرير » أشعرُ منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولَزُرْتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هَجَر الضجيعُ فِراشَها كُتِمَ الحديثُ وعَفَّت الأسرارُ
لا يلبث القُرَناءُ أن يتفرقُوا ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونَهارُ !

فقال : واللّهِ لئن أذنتِ لى لأسمعتُك أحسنَ منه ، فأمرته فانصرف . ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، فأعادتْ سؤالَه : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، صاحبُك أشعرُ حيث يقول :[1]

إن العُيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ   قتلننا ثم لم يُحْيين قَتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَرَاك به   وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللّهِ أركانا

....

فإذا كان هذا الموقف حدث قبل اجتماع الفرزدق مع جرير فى ضيافتها ، فذلك هو ما قلناها من أن إعجابها بالشاعر وتفضيلها إياه ، لم يكن يجعلها تغض البصرَ عن سقطاته . وأما إن كانت مؤاخذتُها جريرا قد سبقتْ زيارةَ الفرزدق لها ، وسماعَه ما سمع من تفضيلها « جريرا » عليه ، فهذا ما يدل على أن السيدة الناقدة ، لم تكن تحكمُ على الشاعر بشعره جملة ، أو تتشبثُ برأى لها فيه لا تعدل عنه ، أخطأ جرير ، فقالت له : فيكَ ضعف ، ثم لم يمنعها ضعفُه فى بعض شعره من الحكم له على الفرزدق .

* * *

وروى أبو الفرج فى (أغانيه) خبرا له دلالتهُ على شدة شغفها بالشعرِ وحرصِها على السمو به إلى فنيةٍ جمالية . حدَّث المدائنى : أن سكينة « كانت ذاتَ ليلةٍ تسير ، فسمعتْ حادياً يحدو فى الليل يقول :

* لولا ثلاثٌ هنَّ عيشُ الدهرِ *

فقالت لقائِدِ رَكبها : الحقْ بنا هذا الرجل حتى نسمَعَ منه ما هذه الثلاثُ . فطال طلبُهُ لذلك حتى أتعبَه . فقالت سكينةُ لغلامٍ لها : « سِرْ أنت حتى تَسمع عنه » . فسار الغلام سريعا ثم عاد إلى مولاته ، فقال لها : سمعته يقول :

* الماءُ ، والنومُ ، وأم عَمْرِو *

فقالت : قبّحه الله ، أتعبنى منذ الليلة ! »[1]

---

(١) الاغانى : ٨ / ٣٨ ط الدار .
والأبيات فى (ديوان جرير) ط الصاوى ، وروايته : * يصرعن ذا اللب حتى لا صراع به * .

(١) وفيات الاعيان ١ / ٢١١ .
والاغانى : ٢١ / ١٠١ ساسى .

وإنما أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المادية ، وحاجة القلب والوجدان . وأن تستوى عنده أم عمرو ، والماءُ والنومُ ، بل تتأخر عنهما .

وتشهد نادرة لها طريفة ، نقلها « ابن خلكان » على أنها كانت مرهفة الحس الشعرى ، دقيقة اللمح لِسر القول ودلالته على صدق المعاناة . « يُروَى أنها وقفت على عروة بن أُذَيْنَة[1] وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل ؟

إذا وَجَدْتُ أُوَارَ الحبِّ فى كبدى ذهبتُ نحوَ سقاءِ الماءِ أبترِدُ[2]

هَبنى بردت ببردِ الماء ظاهرَة فمَنْ لِنَارٍ على الأحشاءِ تَتَّقِدُ

قال : نعم ...

قالت : وأنت القائل ؟

قالت ، وأبثثُها سِرِّى وبُحْتُ به قد كنتَ عندىَ تحتَ السترِ فاستترِ

ألستَ تُبصِرُ مَنْ حولى؟ فقلت لها غَطِّى هواكِ وما ألقى على بصرى

قال : نعم ...

فالتفتت إلى جَوارٍ لها كُنَّ حولَها وقالت : هُنَّ حرائرُ ، إن كان هذا الشعرُ خرجَ من قلبٍ سليم قط ![3] .

وإنما أنكرت أن يزعم « عروةُ » ، وهو من كبار الصالحين ، أنه قال هذا الشعرَ على مذهب الشعراء !

وإنها لَتُحِس فيه بذوقِها المرهَف نبضَ قلبٍ جريحٍ أضناه الحبُّ ، وتدرك

(١) أبو عامر المدنى ، توفى حوالى سنة ١٣٠ هـ . وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المقدمين .

انظر بعض أخباره وشعره فى (الاغانى : ١ / ١٠٥) ساسى والمؤتلف والمختلف للآمدى : رقم (١٢٦) .

(٢) رواية (سمط اللآلى : ١ / ١٣٦) للشطر الثانى من البيت الأول :

• أقبلت نحو سقاء الماء أبترد •

وجىء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها ، وعلق الأستاذ الميمنى على هامشه : هذه هى السيدة سكينة ، وهى السائلة عن الشعر كما فى (المصارع ٣١٣) و (المرتضى ٢ / ٧٣) .

(٣) وفيات الاعيان : ١ / ٢٩٨ — وشذرات الذهب ١ / ١٥٤ .

بوجدانها الذكى ، أن وراء مثل هذا الشعر معاناةً صادقة ...

وكانت جديرةً عندى بأن تدرك كذلك صدقَ المعاناة وحرارةِ التفجع فى قول « عروة » يرثى أخا له اسمهُ بكر :

سَرَى هَمِّى ، وهَمُّ المرءِ يسرى   وغاب النجمُ إلاَّ قِيدَ فِتْـرِ
أراقبُ فى المَجَرَّةِ كلَّ نَجْمٍ   تعرض فى المَجرَّةِ كيف يجرى
لِهَمٍّ مـا أزال لـه قرينـا   كأن القلبَ أُسْعِرَ حَرَّ جَمْرِ
على بَكْرٍ أخى ، ولّى حمِيدا   وأىُّ العيشِ يصلُح بعْدَ بكرٍ ؟

لكنها لما سمعت هذا الشعر قالت : « من يكون بكرٌ هذا ؟ » فوُصِفَ لها فقالت : أهو ذلك الأسَيِّد ــ مصغر أسود ــ القصير الذى كان يمر بنا ؟ ... قالوا : نعم ... قالت : « لقد طاب بعدّه كلُّ شىء حتى الخبز والزيت ! »[١] أو كما جاء فى الأغانى : « كلُّ العيشِ واللّهِ يصلُح ويحسنُ بعدَ بَكرٍ ، حتى الخبز والزيت »[٢] .

وأَعْوَزها هنا التعاطفُ الوجدانى ، يشجيها بكلمة أخٍ فى رثاء أخيه ، مهما يكن هذا الأخ فى نظر الناس قميئا أو مغمورا .

وعلى كلِّ حالٍ فسكينة تتلقى الشعرَ بذوقها الخاصِّ وتحكم عليه بمقدارِ ما يؤثر فيها ويقع من وجدانها ...

وهكذا تُمَثِّلُها الأخبارُ ، وقد عُقِدَتْ لها إمامةُ النقد فى عصرها ، واشتدتْ فى رقابتها الأدبية على الشعراء ، فمضتْ تكشف فى صراحةٍ قاسية عن مَواضع المؤاخذة ، وتهدى إلى أسرارِ التعبير ، وتُوَجِّهُ إلى ضرورة التزام مقومات الشعر فى رأيها ، من عُمْق المعانَاةِ ، وعاطفية التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر إلى أفقه الجمالى ، بعيداً عن * الماء ، والنوم ، وأم عمرو * !

* * *

(٢) الاغانى : ٧ / ٦٣ دار الكتب .

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها ، واتجاهها بالنقد إلى اعتبار البيت أو الأبيات مناطَ حُكم على الشاعر ، فلم يكن عصرُها — فيما عَرَفه مؤرخو أدبنا — ينظر فى القصيدة من حيث هى وحدة متكاملة .

وليس يفوتنا هنا أن نلحظ أن « سكينة » فيما نُقِلَ إلينا من ملاحظها النقدية — لم تتعرض قط لشعرِ المدح ، فهل تراها أسقطتْه من حسابها لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبَة النفاق عليه ؟ ...

ليس هذا عندنا ببعيد ، وقد كان من بين الذين تعرضتْ لنقد شعرهم ، جرير ، والفرزدق ، ونصيب ، وكثير ، ولهم فى المدح قصائد مشهورات ، ولم نرها مع ذلك روتْ لأحدِهم بيتا من مدائحه أو ناقشتْه فيه .

وإنما كان اهتمامُها كله بما قالوا فى الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى فى المدح ، من نبض القلبِ وحِسِّ الوجدان ، وتعدُّه المقياسَ الدقيقَ لامتحانِ أصالةِ الشاعرية وصدقِ المعاناة ...

* * *

المشـــهد الأخـــير

امتد العُمرُ بالسيدة سكينة حتى شارفت العقدَ الثامنَ من حياتها ..

وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات ، ما يشير إلى مرض ألمَّ بها قبيل الموتِ أو يتحدثُ عن حالها فى أخريات أيامها ، وإنما اقتصر الخبرُ على ما كان من أمرِها فيما بين وفاتها إلى أن دُفِنَ جسدُها فى ثرى « طيبة » مدينة جدِّها النبى عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذى كان ، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة ، وقد أشار إليه أكثر الذين أرّخوا لسيرتها ، منهم ابن سعد فى (الطبقات الكبرى ٨ / ٤٧٥) من طريق ابن السائب الكلبى ، أنها « ماتت وعلى المدينة خالد بن عبد الملك — وقع فى الطبعة : ابن عبد الله — بن الحارث ، فقال : انتظرونى حتى أصلى عليها . وخرج إلى البقيع فلم يدخل حتى الظهر وخشوا عليها أن تغير فاشتروا لها كافورا بثلاثين دينارا . فلما دخل خالد أمر شيبة بن نِصاح — المدنى مولى أم سلمة ، القاضى القارىء — فصلى عليها » .

لكن أبا الفرج الاصبهانى ، وصف المشهد الأخير لرحيل السيدة سكينة ، قال روايةً عن جماعةٍ من شيوخ بنى هاشم :

« إنه لم يُصَلَّ على أحدٍ بعد رسول الله ﷺ بغير إمام ، إلا على سكينة بنت الحسين رضى الله عنه . فإنها ماتت وعلى المدينة خالدُ بن عبد الملك . فأرسلوا إليه فآذنوه بالجنازةِ وذلك فى أولِ النهار فى حرٍّ شديد . فأرسل إليهم : لا تُحدِثوا حدَثاً حتى أجىء فأصلى عليها . فوُضِع النعشُ فى موضِع المصَلّى على الجنائز ، وجلسوا ينتظرونه حتى صار الظهر ، فأرسلوا إليه فقال :

لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجيء . فجاءت العصرُ ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صُلِّيت العشاء ، كلّ ذلك وهم يرسلون إليه فلا يأذن لهم ، حتى حَلَّت العتمةُ ولم يجئْ .

ومكث الناسُ جلوسًا حتى غلبَهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يُصَلون عليها جمعا جمعا وينصرفون . فأمر علىٌّ بن الحسين رضى الله عنه مَن جاءه بطيبٍ ، فأتى بالمجامرِ فوُضِعتْ حول النعش ، ونهض محمدُ بن عبد الله العثمانى ، فأعطَى عَطّارا كان يعرف عنده عُوداً فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حولَ السرير حتى أصبح وقد فُرِغ من العُود . فلما صلّيت الصبحُ ، أرسل خالدٌ إليهم أن صَلُّوا عليها وادفنوها »[1] .

وكأنما أراد القدرُ ألا تمضى الهاشميةُ الحسناء عن الدنيا ، دون مشهدٍ ختامى مثيرٍ ، لقصتها الحافلة !

* * *

ولكن متى توفيت السيدة « سكينةُ » على وجه التحديد ؟

هنا نعود فنضرب فى تيه من تناقض الأخبار وتعارض المرويات ...

فالمشهد الذى نقلناه ، فيه نصٌّ على أنها توفيت ، وخالدُ بن عبد الملك بن الحارِث والٍ على المدينة ، وأن أخاها زين العابدين « على بن الحسينِ » قد شَهِدَ وفاتَها ، وكان هو الذى أشرف على تجهيزها لمثواها الأخير ..

والإمام زين العابدين قد توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين على الأرجح : عند ابن سعد ، فى الطبقة الثانية من تابعى المدينة (الطبقات ٥ / ٢٢١) وابن خلكان فى (الوفيات ١ / ٤٩٥) وعلى سنة ٩٤ اقتصر المصعب الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) والطبرى فى (التاريخ) سنة أربع وتسعين قال : وهى سنة الفقهاء ، مات فيها عامة فقهاء أهل المدينة ، وأولهم على بن الحسين عليهما

---

(١) الأغانى : ١٧٠/١٤ ساسى .

السلام ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث . وكذلك أرخه فى وفيات سنة أربع وتسعين الذهبى فى العبر ، فى ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول منها ، بالكوفة . وجمع الحافظ ابن حجر مختلف الأقوال فى وفاته عليه السلام ، ونظر فيها وقابلها ، فرجح عنده وفاته سنة أربع وتسعين أو خمس . . .[1]

فلو صَحَّ أن الإمام شَهِدَ وفاةَ أختِه السيدة سكينة ــ على رواية الأغانى ومن تابعه ــ لكان مقتضى هذا ، أنها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ ، إذا أخذنا بأقصى الأجلَين ...

لكن خالدَ بن عبد الملك ، قد كان والياً على المدينة سنة ١١٧ هـ ...

وقد عزله عنها هشامٌ سنة ١١٨ هـ ، كما فى (تاريخ الطبرى) ...

وفيه كذلك ، أن سكينة توفيت سنة ١١٧ هـ ، قال فى حوادث سنة ١١٧ هـ : « وحجَّ بالناس فى هذه السنة ، خالدُ بن عبد الملك ، وكان العاملَ فيها على المدينة ... وفيها توفيت سكينةُ ابنة الحسين بن علىٍّ » .

ولا نعلم خلافا فى وفاة السيدة سكينة فى هذا التاريخ : ١١٧ هـ .

فكيف شهد أخوها الإمامُ زين العابدين وفاتها ، ولا خلافَ فى أنه لم يدرك القرنَ الثانى ؟

والفرقُ بين تاريخ وفاته ، وتاريخ وفاة السيدة سكينة ، يبلغ ثلاثة وعشرين عاماً إذا أخذنا بالقول الراجح فى وفاته ، وقد يصل إلى رُبْعِ قرنٍ ، على قول من قال بوفاته سنة ٩٢ هـ !

وهو مدى طويل ، كان يجبُ أن يوقف عنده ، لكنا لا نعجب لمروره هكذا فى يسر ، بغير محاولةٍ للنظر فيه . فليس هذا ، على أى حال ، بأعجب مما

---

(١) تهذيب التهذيب ٣٠٤/٧ (٥٢٠) .

(٢) طبقات الأولياء : ٢٧/١ .

فى طبقات الأولياء للشعرانى (١/٧) من وفاة الإمام زين العابدين سنة ٩٩ هـ ، عن ٥٨ عاما أى أنه ولد سنة ٤١ هـ .

وفى الصفحة نفسها ، بل فى الفقرة التالية ، يقول بوفاة « الإمام محمد الباقر ابن زين العابدين ، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما » .

أى أنه ولد سنة ٤٤ هـ . وأبوه الإمام زين العابدين فى الثالثة من عمره !

ولم يفسر لنا المؤلف أو الناسخ والطابع ، كيف أنجب الإمامُ زين العابدين ، وهو فى الثالثة من عمره ، ابنَه الإمام محمد الباقر !

ولو قال إنها إحدى كرامات الإمام زين العابدين ، لتركناها له ، واسترحْنا .. لكنه لم يقلها !

* * *

ونعود إلى موضوعنا ، فلا نرى حتماً علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة شهود الإمام زين العابدين موت أخته السيدة سكينة ، فمن الواضح عندنا أن ورود اسمه رضى الله عنه ، فى مشهدها الأخير ، خطأ لا ندرى أهو من الراوى للخبر ، أم من الناقل ، أم من الناسخ !

ثم لا خلاف فى وفاتها رضى الله عنها سنة ١١٧ هـ ، بمدينة جدِّها النبى ﷺ ، وخالدُ بنُ عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، عاملٌ على المدينة ، لهشام بنِ عبد الملك بن مروان ..

واستقر بها المطافُ آخرَ الأمرِ فى ثَرى « طيبة » مدينة جدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، تاركة من بعدها كلمةَ الحقِّ فى كلِّ ما يقال فيها أو يُروَى عنها ، أمانةً صعبة فى حافظة الزمن الواعية ، وضمير التاريخ المنصف الأمين .

﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيكُمْ أَهْلَ البَيْتِ ، إنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾
صدق الله العظيم

المحتـويـات

الموضـــوع	صفحة

المبــحث الثالث

المبــحث الرابع

المبــحث الخامس

المبــحث السادس

الموضـــوع صفحة

المبـحث السابع

الكتـاب الثانى

البـــاب الأول

البـــاب الثانى

الموضوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

المبـحث الثانى

المبـحث الثالث

(٢) رقية ذات الهجرة

(٣) أم كلثوم

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الــفصل الثالث

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٤٢٦٤



مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر

